مذكرات

انقسام الروح

وائل السواح

سيرة ذاتية لليسار السوري الجديد
في سبعينيات القرن الماضي وثمنينياته

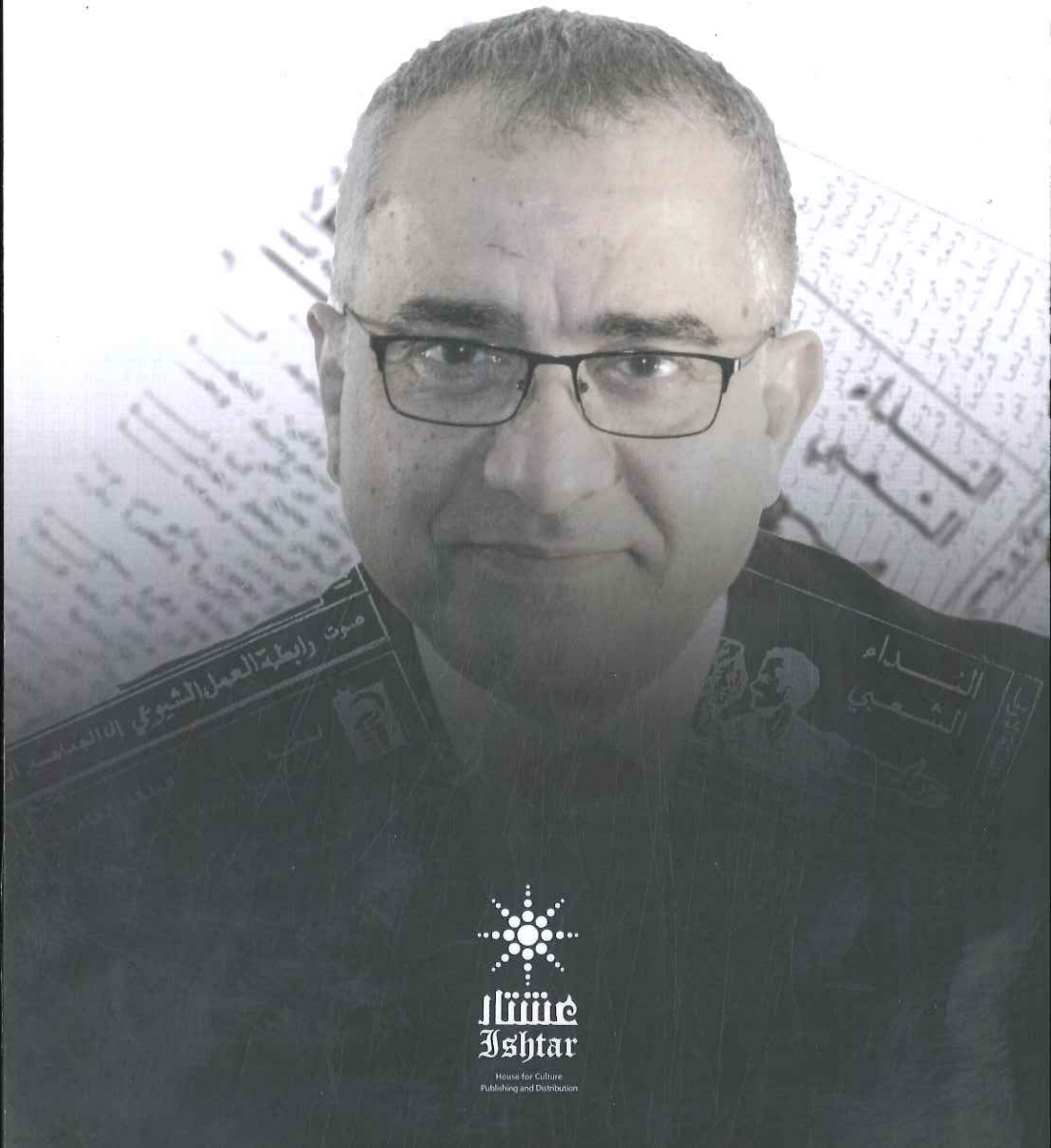

عشتار
Ishtar
House for Culture
Publishing and Distribution

وائل السوّاح: انقسام الرّوح

مذكرات

انقسام الرّوح

سيرة ذاتيّة لليسار السوري الجديد في سبعينات القرن الماضي وثمانيناته

عشتار
Ishtar
House for Culture
Publishing and distributing

وائل السوّاح

دار عشتار للثقافة والنشر والتوزيـع

انقسام الرّوح - سيرة ذاتية لليسار السوري الجديد في سبعينات القرن الماضي وثمانيناته
تأليف: **وائل السوّاح**
الطبعة الأولى: **2023**

ISBN: **9781990723049**
تصميم الغلاف: **فينوس الزهوري**

جميع الحقوق محفوظة ©
دار عشتار للثقافة والنشر والتوزيـع
Ishtar House for Culture, Publishing and Distributing
تورونتو -كندا Toronto - Canada

www.ishtarhouse.ca
Info@ishtarhouse.ca

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال من دون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف

إلى ميسون عزيز: كانت وراء دفع هذا الكتاب
إلى المطبعة، لإيمانها بي وإيمانها به

مقدمة

حكاية بلا بداية ولا نهاية

اليسار السوري ليس طارئاً تماماً، ولكنه مستعار. ولا عيب البتّة في الاستعارة في بعض المجالات، أحياناً. الديمقراطية مثلاً مفهوم مستعار وكذلك الصحافة والأحزاب والتكنولوجيا، فلا عيب إذن أن يكون السوريون قد استعاروا مفهوم اليمين واليسار من الغرب الذي أعارنا السيارة والتلفزيون والكمبيوتر والفيسبوك. ثمّة من يستعير ثوباً فيكون كبيراً جداً أو يكون ضيّقاً عليه. السوريون (ومعهم المصريون) كيّفوا ما استعاروه على مقاسهم، فبدت الأمور عليهم وكأنها أصيلة. ولعلّ نظرة خاطفة إلى الوراء ترينا كيف أجاد السوريون لعبة الديمقراطية والبرلمان والصحافة والأحزاب، وأيضاً اليسار، من دون الحاجة لأن نغرق في نوستالجيا فارغة.

مشكلتان رئيسيتان طرأتا على كلّ ذلك، فغيّرتا من وجه اليسار السوري. الأولى كانت حين تنطّح مجموعة من العسكر لقيادة ما يسمّى بحركة التحرر الوطني، التي دمجت ما بين الطبقي-الاجتماعي والوطني- القومي. وهو دمج أدّى، فيما أدّى إليه، إلى ضياع هوية اليسار واليمين معاً. أما المشكلة الثانية فهي القضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي الذي حوّل القضية برمّتها من جهة إلى جهة أخرى.

حدث، على إثر هزيمة حزيران 1967، انقلابان كبيران في الحركة السياسية السورية والعربية عموماً، انزاح فيهما جزء كبير من التيار القومي العربي نحو الماركسية، وانزاح مقابله جزء من التيار الماركسي نحو الفكر القومي. حركة القوميين العرب بمعظمها تبنت الماركسية، ووُجِدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، ووُلِد حزب العمل الاشتراكي العربي، كذراع سياسي للجبهة الشعبية في لبنان والأردن، وظهرت منظمة العمل الشيوعي في لبنان، التي قادها محسن إبراهيم وفواز طرابلسي، وتحوّل تيار صلاح جديد في سوريا تدريجياً إلى الفكر الماركسي- اللينيني، إلى أن تبناه نهائياً في منتصف السبعينات. جوهر هذا الانزياح كان اكتشاف التيار القومي العربي أن "العدو القومي الرئيس لحركة التحرر العربية يتمثّل بالإمبريالية العالمية بقيادة أميركا، والتي تستعمل إسرائيل والحركة الصهيونية" كأداة لها وأن الأنظمة العربية كافة، سواء منها الأنظمة "الرجعية" أو الأنظمة "الوطنية التي تحكمها البورجوازية الصغيرة"، عاجزة عن مواجهة هذا العدو.

في المنقلب الآخر، كان تيار في الحزب الشيوعي اللبناني بقيادة جورج حاوي وتيار في الحزب الشيوعي السوري بقيادة رياض الترك يتخليان تدريجياً عن "الصَّلف الطبقي" ويريان في المسألة القومية وجاهة لا بدّ من مقاربتها. كان جورج حاوي معجباً بعبد الناصر ولينين، وقد باتت هذه المزاوجة أحد معالم الخلاف في الحزب الشيوعي بين «الأمميين» و«القوميين»، وهو الخلاف الذي أدّى في نهاية المطاف إلى انتصار «القوميين» وبدء الرحلة الجديدة للحزب الشيوعي من خلال مؤتمره الثالث 1972. وفي سوريا، تجرأ في الفترة عينها ثلّة من الشباب في الحزب، بقيادة محام حمصي شاب -سيلمع اسمه كثيراً في سماء السياسة السورية- هو رياض الترك، على الاعتراض على القيادة التاريخية للرفيق خالد بكداش، الأمين العام للحزب الشيوعي، وفجّروا خلال انعقاد المؤتمر الثالث للحزب في 1969 مواضع خلافية تطرح

لأوّل مرة، بينها عبادة الفرد وقضية فلسطين والوحدة العربية، ما أشعل بداية الخلاف بين أكثرية المكتب السياسي للحزب بقيادة رياض الترك من طرف وقيادة خالد بكداش التاريخية من طرف آخر، سيؤدي قريباً إلى انقسام الحزب إلى حزبين. وفي كلا المؤتمرين -اللبناني والسوري- لعبت القضية الفلسطينية والوحدة العربية دوراً بارزاً.

هزيمة حزيران وتزاوج التيارين القومي والماركسي أدّيا إلى جعل بوصلة اليسار السوري القضيةَ الفلسطينية و"الإمبريالية العالمية"، وبات اليساريون السوريون يبنون سياساتهم ليس على واقع سوريا، بل على مواقف الإمبريالية الأمريكية، حيث يتجلّى موقفهم ببساطة بمعارضة المواقف الأمريكية واتخاذ مواقف معاكسة.

والأسوأ، أن ذلك جعل الحدود بين السلطة السورية والمعارضة واهية جداً. والحال أنه منذ وصول البعث إلى السلطة في سوريا، اختفت الحدود الفكرية والسياسية بين الفئتين. فعلى الضدّ من معظم التجارب الدولية، تنتمي كلتا السلطة والمعارضة في سوريا إلى الجذور الاجتماعية والفكرية ذاتها. وهما، متكاملتين، تشكلان جزءًا مما يسمى بحركة التحرر الوطني التي ندين لها بالتغيير القسري للمجرى الطبيعي للتاريخ في العديد من الدول الآسيوية والأفريقية، والتي تقبع الآن، مصادفة، في أسفل السلم الحضاري والاقتصادي العالمي. وتعود السلطة السورية، في جذورها التاريخية على الأقل، إلى البنية الاجتماعية التي نشأت عليها المعارضة. فهي ترجع إلى الفئات الريفية التي تعلمت وهاجرت إلى المدينة، فالتحمت مع مثقفي الطبقة الوسطى المدينية الذين كانوا يبحثون عن حلول اجتماعية لمشاكلهم الروحية؛ ولقد وجدوا تلك الحلول، وهم الذين درسوا في فرنسا ودولاً أوروبية أخرى، في النظريات التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك: الاشتراكية والقومية، فزاوجوا بينهما، بشكل تلفيقي مبتذل.

***

فاجأت الانتفاضة السورية المعارضة الغافية على حدود فلسطين، ولذلك تجدها فشلت في اللحاق بركب الثورة، وانقسمت بين من زايد عليها ومن بقي في منطقة الحكومة. وقد رأينا الانقسام يحدث في اليسار السوري وفي الحزب الواحد نفسه، فكثير من قواعد الشيوعيين انضمت إلى الانتفاضة بينما كان قادتها يجلسون في مكاتب الجبهة الوطنية التقدمية ويقارعون الاستعمار من هناك. وكذلك انقسم حزب العمل الشيوعي بين تيارين، انتقل أحدهما إلى صفوف الانتفاضة، بينما بقي الآخر في منطقة "الدفاع عن الوطن".

وكما فاجأتنا الانتفاضة، فاجأنا تحوّلها إلى العنف واستخدام السلاح. ويمكن القول بثقة أن الحكومة تتحمل المسؤولية الكبرى في اللجوء إلى السلاح كحلّ، من خلال القمع الدموي العنيف للمحتجيّن السلميين، ولكننا لا يمكن أن نغض الطرف عن تدخلات القوى الإقليمية التي كان من مصلحتها عطف الثورة باتجاه حرب أهلية.

ويسود اليوم سؤال: أكان الأمر يستحقّ كلّ ذلك؟ في مسرحية "يعيش، يعيش" للرحابنة تسأل هيفا (فيروز) السؤال نفسه: "اللي بيندفع حقه ناس هو أغلى من هالناس؟" والحال أن هذا سؤال وجودي أكثر من كونه سياسياً. وقد سألت نفسي هذا السؤال منذ إطلاق أول رصاصة. وانقسمت داخلياً في الجواب: فالقسم الإنساني مني كان يؤكد بوضوح على أن لا شيء يستحقّ التضحية بطفل أو صبية أو رجل أو امرأة لهم أسرة وأصدقاء ومحبون. أما السياسي القابع في داخلي فكان يقول: إن الثورة لو لم تحدث اليوم لحدثت بعد سنوات، ولكان وقعها أشدّ قسوة ومرارة. وأعتقد اليوم أن ذلك ما سيحدث بعد سنوات أو عقود.

لم تقسم الحرب السورية اليسار السوري فحسب، بل واليسار العربي

والعالمي أيضاً. وقد رأينا في تونس متظاهرين يساريين يرفعون صور الرئيس السوري بشار الأسد أثناء احتجاجاتهم على حكومتهم. ومعظم اليسار الحاكم في أمريكا اللاتينية وغيرها يؤيد ما يرونه "ممانعة" سورية للإمبريالية العالمية. بالمقابل، ثمّة العديد من اليساريين والمثقفين في العالم والدول العربية الذين يقفون إلى جانب حقّ السوريين في تقرير مصيرهم وفي رفضهم لحكومة أو نظام معين.

ووجد قسم آخر من اليسار، الذي يستند إلى البوصلة ذاتها، نفسه في مواقع يتحالف فيها مع تيارات إسلامية متطرفة، منها حزب الله في لبنان وحماس في فلسطين. ولعلّ مردّ ذلك أن هذا القسم لا يزال يهتدي بنجم الشمال الذي هو موقف هذه القوى "المعلن" من القضية الفلسطينية وإسرائيل والإمبريالية.

والآن، هل يمكن الحديث حالياً عن "يسار سوري"؟ لا يمكن للحياة السياسية ولا المجتمعية أن تتقدّم من دون حوار وجدال وصراع بين المحرّك إلى الأمام والقوّة التي تريد المحافظة على الواقع. ولئن اتُّفِق على تسمية الفئة الأولى يساراً، فإن هذه القوّة ستظلّ موجودة وستظلّ تلعب دوراً في عملية التغيير. غير أن المفاهيم لن تكون ذاتها، واليسار التقليدي (وخاصة اليسار الشيوعي الذي لا يستطيع التميز بين روسيا بوتين وبين الاتحاد السوفييتي) سيتحوّل إلى معاقل اليمين من دون خجل. أما اليسار المتجدّد الذي يرى في الحركة إلى الأمام قدر السوريين، فسيظلّ موجوداً، وسوف يجمّع نفسه قريباً في حركة واضحة المعالم تسير على طريق واضح ومحدّد.

ولكن قبل أن ندخل في جسد الحكاية، يتعيّن عليّ أن أسارع للقول إن الصفحات التالية ليست تاريخاً ولا تأريخاً ولا توثيقاً سياسياً، بل هي سرد للأحداث وتعريف بالأشخاص كما عشتها وكما عرفتهم. بل أغامر بالقول إن خيالي ورغباتي يمكن أن تكون قد جمّلت بعض الأحداث أو قبّحتها،

ويمكن لبعض الأحداث أن تكون خيالاً أو سراباً أو أمنيات، فلا يجوز إذن الاستشهاد بالصفحات التالية في توثيق أو كتابة تأريخية أو أعمال أكاديمية.

***

قبو في الشيخ محي الدين

فُتح الباب بحذر شديد وبان من خلاله وجهٌ شاحبٌ أصفر وعينان قلقتان متوجّستان.

"من أنت؟"

"الساكن الجديد،" أجبت.

فتح الرجل الباب على مضض واستدار ليدخل إلى غرفته من دون أن يكلّف نفسه عناء إلقاء تحية مجاملة، وصفق باب غرفته وراءه. دخلتُ الغرفة الملاصقة التي ستصير غرفتي، وشعور بالانقباض يرين عليّ. لم تكن تلك فكرتي عن الجار الجيد. كنت قد نلت لتوي شهادة البكالوريا وجئت من حمص إلى دمشق لأكمل تعليمي الجامعي. فوق كتفي سبعة عشر عاماً وفي جيبي مائة وستون ليرة سورية، سأدفع ستين منها أجرة هذه الجيرة. جاءني سعال مبحوح من غرفة الجار. سعال طويل وجارح.

شعرت بالتوتر ثمّ، حين هدأ، رحت أرتب أشيائي القليلة. كتب وبنطالان وقميصان وكنزة صوفية وسترة وزوج من الأحذية وثلاثة بدلات داخلية أو أربعة. تلك كانت أمتعتي. فوقها كان راديو الترانزستور الصغير الذي اشتراه لي أبي قبل مغادرتي حمص بأيام. "سيلزمك لتزجية الوقت وسماع الأخبار،" قال لي. عاد السعال من جديد، جارحاً عاتياً هذه المرة، فيه

فجور وقسوة. اقتربت من الباب الملاصق. فكرت أن أقرع الباب. تردّدت. السعال قاسٍ، موتّر، لئيم. قرعت الباب وانتظرت قرناً حتى انفتح ووقف الوجه الشاحب وراءه متسائلاً عما أريد.

"أنت بخير؟"

تأمل فيّ زمناً، ثم وسع فرجة الباب وتراجع إلى الوراء.

"تفضل!"

دخلت بتردد وراعني منظر الغرفة. كان فيها كتب، وكتب، وكتب أخرى. وكانت الكتب في كل مكان: على الطاولة وعلى السرير وعلى الأرض وعلى الخزانة وعلى أحد الكرسيين الذين يتوسطان الغرفة. على طاولة قهوة صغيرة، كان ثمة خمس أو ست كؤوس فارغة وفي أسفلها ثمالة شاي قديم. قربها، جثمت منفضة سجائر عملاقة تطفح بأعقاب سجائر رخيصة، فاضت عن المنفضة إلى الطاولة ومن الطاولة إلى الأرض التي كانت تزخر إلى جانب الأعقاب ببقع الشاي حائلة اللون.

من مسجلة عتيقة، انطلق صوت لمغنٍ لم أسمعه من قبل:

غيفارا مات... غيفارا مات

آخر خبر في الراديوهات

وفي الكنايس... والجوامع

وفي الحواري... والشوارع

وعَ القهاوي

وعَ البارات

غيفارا مات

واتمدّ حبل الدردشة والتعليقات

"تشرب شاياً؟" سألني. لم أرد إحراجه. شربنا شاياً أسودَ قليل الحلاوة بسبب قلة السكر كما اعتقدت. تجرأت وسألت من الذي كان يغني. نظر إليّ بدهشة وشيء من سخرية قبل أن يجيب: "الشيخ إمام."

كان السحر الذي يلف الغرفة المنزوية في قبو في الشيخ محي الدين ممزوجاً بالصوت الحنون الأجش ومختلطاً بالسعال الحاد الفاجر للرجل الذي يلامس الثلاثين، أقوى من أن أسحب نفسي إلى غرفتي وأنزوي بعيداً عن هذا السحر الأسود الذي يملأ الخياشيم ويعلق بالحلق. جلسنا طويلاً، أميل للصمت، قبل أن يبدأ أبو الهول الجالس أمامي يتكشّف عن رجل فاتن ومحارب عنيد. كانت تلك البداية. وفي السنوات التالية لذلك اليوم، سيلعب هذا الرجل دوراً كبيراً في حياتي، سيقلبها رأساً على عقب، سيدفعني في طرق وحارات مجهولة، سيجعل الدم يفور في عروقي والإثارة تسيل من مسام الجلد. كان اسمه أحمد جمّول.

حين تركت مدينتي الهادئة، الجميلة (أو التي كانت كذلك)، حمص قادماً إلى دمشق، كنت عضواً فخوراً في الحزب الشيوعي السوري بقيادة خالد بكداش. كان الحزب يعاني من أول خلاف داخلي كبير أدّى بعد أشهر إلى انقسامه. فقد تجرأ القيادي الشاب رياض الترك أن يسائل "الرفيق الأمين العام" حول قضايا تنظيمية وسياسية، بينها دكتاتورية الفرد والعلاقة مع "الرفاق السوفييت". فأصدر بكداش بيان 3 نيسان/إبريل الشهير الذي فجّر الأزمة الداخلية إلى الخارج. لم يترك الانقسام أثراً على الخط السياسي للحزب، بل وترك أثره على فتى متحمس في سنته الأخيرة في الثانوية، حين صار فجأة عضواً في اللجنة الفرعية للحزب في حيّه، لأن معظم الكوادر غادرت مع رياض الترك.

أحمد جمّول عرّفني على عالم آخر، مختلف، فاتن ومثير.

"بات لزاماً أن يكون لنا تنظيمنا الخاص،" قال لي بعد أشهر، حين توطدت علاقاتنا.

كنت حدثته عن نفسي، عن حمص، عن الرفيق الأمين العام، وعن اللجنة الفرعية في حيّ الحميدية. كان يستمع بنوع من الإعجاب وبشيء من السخرية.

"قديش صار له الرفيق الأمين العام رفيقاً أميناً عاماً؟" سألني ذات مرّة.

"40 سنة،" قلت.

"ولم ينجب الحزب خلال كل هذا الوقت من يماثله فهماً ومقدرة، فيسلمه دفّة القيادة؟"

"من نحن؟" سألته رداً على جملته حول ضرورة تأسيس تنظيم خاص.

"أنا وأنت ومن يشبهنا."

من يشبهنا؟ من يشبهني أنا؟ سألتُ نفسي من دون أن أفتح فمي.

كانت السنة 1973 في بدايتها. قبل نحو ست سنوات، كانت حرب حزيران قد أخذت السوريين على حين غرة. صفعتهم على وجوههم وعلى أقفيتهم، وهم غافلون. أذهلتهم وسارت بهم في دروب متباينة. بالإضافة إلى هجرة السوريين النازحين من الجولان إلى دمشق ومدن سورية أخرى، حدثت هجرتان كبيرتان أخريان: هجرتان سياسيتان، انزاح فيهما جزء كبير من التيار القومي العربي نحو الماركسية، وانزاح مقابله جزء من التيار الماركسي نحو الفكر القومي. حركة القوميين العرب بمعظمها تبنت الماركسية، ووجدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

بقيادة جورج حبش، ثم انشق عنها أحمد جبريل ونايف حواتمة، ووُلِد حزب العمل الاشتراكي العربي، كذراع سياسيَ للجبهة الشعبية في لبنان والأردن، وظهرت منظمة العمل الشيوعي في لبنان، التي قادها محسن إبراهيم وفواز طرابلسي، وتحوّل تيار صلاح جديد الذي كان قد انقلب عليه حافظ الأسد قبل سنتين ونيف تدريجياً إلى الفكر الماركسي - اللينيني، حتى تبناه نهائياً في منتصف السبعينات. جوهر هذا الانزياح كان اكتشاف التيار القومي العربي أن "العدو القومي الرئيس لحركة التحرر العربية يتمثَّل بالإمبريالية العالمية بقيادة أميركا، والتي تستعمل إسرائيل والحركة الصهيونية" وأن كافة الأنظمة العربية، سواءً منها الأنظمة "الرجعية" أو الأنظمة "الوطنية التي تحكمها البورجوازية الصغيرة" عاجزة عن مواجهة هذا العدو.

في المنقلب الآخر، كان تيار في الحزب الشيوعي اللبناني بقيادة جورج حاوي وتيار في الحزب الشيوعي السوري بقيادة رياض الترك يتخليان تدريجياً عن "الصَّلف الطبقي" ويريان في المسألة القومية وجاهة لا بدّ من مقاربتها.

على أن هذين الانزياحين لم يُرضيا فئات متناثرة من السوريين المفجوعين بهزيمة حزيران من شتّى المشارب السياسية. وقد اجتمع بضع عشرات من هؤلاء الأفراد التائقين إلى التغيير الحقيقي، القانطين من "الأنظمة الوطنية التقدمية"، والحالمين بأشكال شتّى من الثورة، بالاجتماع سوية لمناقشة "ما العمل" السوري.

عاد السعال مجدّداً. أحمد جمّول كان آخر من عرفت من مرضى السلّ السوريين. بين نوبة سعال وأخرى، كان أحمد يفيض حكياً عن كلّ شيء. عن الثورة والبعث وخالد بكداش، عن الهيغيليين الشباب ومخطوطات 1844 الاقتصادية والفلسفية والبعد الإنساني لدى ماركس الشاب في مقابل ماركس رأس المال، عن ولعه بفريد الأطرش وأفلام الويسترن

الأمريكية. كنت قد أقلعت عن متابعة هذه الأفلام على الرغم من ولعي بها لأنها لا تليق بماركسي - لينيني عنيد. أحمد جمّول أعادني إلى نفسي، وظلّ يفعل كلّما شططت.

فكرة ماركس الشاب كانت جديدة في سوريا (والعالم؟)، فمخطوطاته، وبخاصة المخطوطات الفلسفية والاقتصادية لعام 1844، كانت قد حُجبت من قبل ستالين أو أنها تعرّضت للكثير من إعادة التأويل بغية الدفاع عن المواقف السياسية والأيديولوجي للماركسية اللينينية. وطُمست أفكار ماركس حول الاغتراب والحرية والممارسة (praxix) التي هي في جوهرها وحدة الفكر والعمل ووحدة الذات والموضوع. هذه الفكرة هي التي بدأت تلفت انتباه ثلة من الشباب السوري (كلهم دون الثلاثين) لإعادة الاعتبار لليسار والماركسية باعتبارها فكرة إنسانوية في المقام الأول، وضعت الإنسان في مركز الماركسية، بوصف الإنسان الواقعي نقطة انطلاق الفلسفة، وهدفها أيضاً، وأساساً.

"فقط حين ينحّى الإنسان من مركز منظومة ماركس، يمكن تأويلها استبدادياً، كما جرى في كثير من الأحيان،" كان أحمد يقرأ لي من كتاب.

على أن ذلك كلّه كان ثقيلاً عليّ بسنواتي الثمانية عشرة. فلا شكّ أن أغاني مديح أبو عمار وهجاء رياض الترك والثلاثي، واختياري عضواً في اللجنة الفرعية وأنا في السابعة عشرة أسهل من مفاهيم الاغتراب والبراكسيس وماركس الشاب. فكيف يكون ماركس ماركسَين اثنين؟ أيكون أن لينين قد شوّه فكرة ماركس الأساسية؟

فإذن، من يشبهنا في هذا المقام؟ وكيف يفعلون؟

***

العفيف الأخضر الجامح وجورج طرابيشي الهادئ والحلقات الماركسية

فتنني أحمد جمّول بشخصين عرّفني إليهما، ساهما أيضاً في تغيير مسار حياتي. الشخصية الأولى سيدة فاتنة ستصبح زوجته بعد سنة أو اثنتين: وفاء تقي الدين، سليلة أسرة دمشقية عريقة وثرية، تركت أسرتها وتراثها الدمشقي وأحبت رجلاً إسماعيلياً فجاً قادماً من الريف الصحراوي، بقساوته وجلافته، وفوق ذلك كان مريضاً بالسلّ. بيد أن في الرجل سحراً لا يقاوم. واليوم بعد خمسة وأربعين سنة، أحاول أن أجد سرّ السحر الذي كان في هذا الرجل، فلا يمكنني ذلك.

الشخصية الثانية كان رجلاً أشد فجاجة وبدائية من أحمد جمّول نفسه، رجلاً جاء كالعاصفة من تونس، فأقام في دمشق أشهراً تركها بعدها، وقد تغير كلّ شيء لدى اليسار السوري: المثقف والمفكر التونسي الأبرز العفيف الأخضر. جاء العفيف كالزوبعة، تمكث قليلاً وتدمّر كثيراً، فنسف كل أفكاري عن ستالين ولينين وحتى ماركس وإنغلز. كان الرجل عاصفاً في كل شيء: في ثقافته وتجربته وسلوكه اليومي وشجاعته الفائقة. لم يكن يعبأ ببناء وشائج علاقة زمالة أو صداقة مع أحد، أو بمهادنة أحد. وحين ترجم البيان الشيوعي لم يتردّد في وصف ترجمته بأنها "أول ترجمة عربية غير مزورة" وهاجم -ربما ليس من دون وجه

حق- كل الترجمات السابقة. كنا ننظر إلى الرجل بانبهار، ونتأمل كلّ أفعاله وأقواله بإعجاب يشوبه الخوف وقليل من الانزعاج.

لم تتقاطع سبلنا مرة ثانية قبل العام 2007، حين التقيته في مؤتمر رابطة العقلانيين العرب بباريس. كان الرجل قد هرم ومرض وتداعى، ولكن روحه الثورية العنيدة والمكابرة لم تهنْ، وعزيمته وفجاجته وجرأته لم تتراجع. جرأته كانت تتبدى أكثر من غيره في عدم التمسك بأفكاره حين يكتشف أنها لم تعد صالحة، الماركسي الفوضوي المجالسي العنيف انتقل إلى مواقع فكرية أخرى، أقلّ تشدداً وأكثر ليبرالية، وحين رحل عن ديارنا كان يركز على ما يلي: نبذ المواطنة السالبة (الرعية) وتأسيس المواطنة الموجبة التي تؤكد على المساواة المطلقة بين المواطنين؛ الفكر النقدي الذي ينتقل بالعقل من المسلَّم به إلى المناقَش فيه؛ قطيعة جارحة مع التراث والتأسيس للفكر الحداثوي القائم على اكتشاف كروية الأرض ونظرية التطور واللاشعور.

لعب العفيف الأخضر دوراً محورياً في زعزعة قناعات اليسار العربي، وجاءت زيارته لدمشق قبيل حرب 1973. كانت هزيمة حزيران لا تزال متعمشقة عل جدران أرواحنا، وقد كتب سعد الله ونّوس حفلته السامرة من أجل 5 حزيران، وكتب علي الجندي ديوان "الحمى الترابية" وكتب إميل حبيبي "سداسية الأيام الستة" وكتب ممدوح عدوان "كيف تركت السيف" وكتب حليم بركات روايته "عودة الطائر إلى البحر". ثمّ جاء أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام ليعلنا قطيعتهما مع الأنظمة "الوطنية التقدمية" التي خسرت البلاد وظلمت العباد.

"ايه يعني لما يموت مليون

أو كلّ الكون

ايه يعني في العقبة جرينا

ولا فِ سينا

هي الهزيمة تنسينا

إننا أحرار؟

ايه يعني شعب فِ ليل ذلة

ضايع كله

دا كفاية بس أما تقول له... إحنا الثوار"

كان العفيف رجلاً نادراً، شديد التقشّف، قليل الاستهلاك غزير الإنتاج. يشرب كحوت ولا يدخّن أبداً. قال لي مرّة: "كنت في طفولتي أتقاسم حصيراً واحدة مع أخوتي، وكانت وجبتنا الرئيسية خبز الشعير وزيت الزيتون." ويعاني من ضعف في السمع، يعوّض عنه في الحديث المنساب كجدول ماء صاف.

أول مرة التقيت العفيف، صحبة أحمد، كانت في خمّارة فريدي، أجمل خمّارات دمشق التي صمدت حتى أزالتها خطب الجمعة وضغوط الإسلاميين السوريين على حكومة الأسد. كانت خمّارة فريدي غرفة مستطيلة الشكل، فيها صفان من الطاولات الصغيرة وحول كلّ منها أربعة كراسٍ من القش. أبو جوزيف، صاحب الخمارة، يقدم فقط الكحول والبليلة والموالح. تطلب كأس العرق أو زجاجة البيرة، ثمّ تطلب أخرى وأخرى، فتصطفّ الزجاجات أو الأقداح كلها على طاولتك، ثم تدفع عند النهاية حسب عددها. ولدى أبو جوزيف دفتر للذين لا يدفعون حسابهم، يسجل فيه الدين إلى وقت يفرجون. حين مات أبو جوزيف تخلّى جوزيف عن الدفتر وما عاد يقبل إلا نقداً. وجوزيف كان

ضخماً، وهو لا يشرب كما كان يفعل أبوه، لكي يخيف من يطلب عرقاً وليس في جيبه ثمنه.

كان أبو جوزيف رجلاً طريفاً، يُعرف في حارته -جناين الورد- باسم "أبو كرش"، وكمعظم البدينين كان طيباً ومرحاً، ولكنه شديد العصبية. وعلى عكس ابنه، كان لديه دفتر كارويات (مربّعات) كبير، يسجل فيه حساب الدائنين، وبينهم صدام حسين وطارق عزيز والمنصف المرزوقي وآخرون، وجميعهم مدينون له حتى الآن. وفي إحدى المرّات، صاح أمام صديق لي: "** أختهن أخو شرموطة، بيجو لعندي بيكركعوا وبيسكروا وبعدين بيصيروا رؤساء قال. إي يجو يدفعوا ديونهن بالأول!". سأله صديقي إن كان يحب أن يبيع الدفتر بعشرة آلاف دولار، فنظر إليه شزراً، لم يجب.

من العفيف تعلمت أن لينين قام بقطيعة مع الماركسية، التي ظلت وفيّة لفلسفة التاريخ الهيغلية التي تقول إنه لا يمكن أن نتجاوز فترة تاريخية ما، قبل تحقيقها. لا يمكن أن نتجاوز الرأسمالية قبل تحقيقها، وأنّ الثورة ستقع في أكثر البلدان الرأسمالية تطوّراً، واضعين في خيالهم أن بريطانيا ستكون ذلك البلد. لينين قطع مع هذا المبدأ، وجاء بنظرية الحلقة الضعيفة في النظام الرأسمالي الغربي، أي روسيا.

جاء العفيف، إذن، كإعصار كاسح، كنس عنا كلّ ما تبقى من أوهام متعلقة بالأنظمة "الوطنية التقديمة" وأنظمة "الديمقراطية الشعبية"، ونسف بصورة خاصة أوهامنا حول "التطوّر اللارأسمالي." في عام 1964، ابتكر منظر الحزب الشيوعي السوفياتي في عهد بريجنيف ميخائيل سوسلوف نظريته الغريبة حول طريق «التطور اللارأسمالي» وإمكانية التحول نحو الاشتراكية بقيادة القوى «الديموقراطية الثورية» المتحالفة مع الاتحاد السوفياتي. وسرعان ما انعكس ذلك على الشيوعيين العرب (وفي مقدمتهم الرفيق الأمين العام) الذين نحّوا

خلافاتهم مع الأنظمة القمعية وسعوا إلى عقد تحالفات "استراتيجية" معها من أجل بناء الاشتراكية من دون المرور بطريق الرأسمالية. وفي ظلّ هذه النظرية دخل الرفيق الأمين العام مع حافظ الأسد في "جبهة وطنية تقدمية"، ودخل سكرتير الحزب الشيوعي العراقي عزيز محمد مع البعث العراقي في "جبهة قومية تقدمية". ولم يشعر الأخير بأي خجل وهو يصف الطاغية صدّام حسين بأنه "كاسترو العراق".

"لا تصدّق كل ما يقوله العفيف." قال لي أحمد جمّول، "ولكن صدّق ضرورة استخدام معول الهدم في كلّ ما تؤمن به حتى الآن، قبل أن تبدأ ببناء جديد، سليم، ومعافى."

سوى أن الصفعة الكبرى كانت على الطريق. في الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السبت السادس من تشرين الأول/ أكتوبر 1973، قطعت إذاعة دمشق برامجها لإذاعة بلاغ عسكري عن هجوم مفاجئ قام به الجيشان السوري والمصري على القوات الإسرائيلية التي كانت مرابطة في سيناء وهضبة الجولان. خلال ساعات، توغلت القوات المصرية 20 كيلومتراً شرق قناة السويس، وتمكنت القوات السورية من الدخول في عمق هضبة الجولان. وتدخلت الدولتان الأقوى في العالم، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في الحرب بشكل مباشر، إذ زوّد الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا سوريا ومصر بالأسلحة، بينما زودت الولايات المتحدة إسرائيل بالعتاد العسكري. واجتاحتنا نشوة تشبه نشوة السكر، وكنا -على وقع أغنية "خبطة قدمكن ع ـ الأرض هدّارة" لفيروز وأخبار مونت كارلوا- ننتشي بإعادة الصاع لإسرائيل صاعين أو ثلاثة. ولكن أياماً قليلة فقط كانت جديرة بأن تجعلنا نصحو من نشوة التمني على وقع الواقعة: أراضٍ جديدة احتلت، وانضم الوافدون إلى نازحي 1967 ولاجئي 1948.

شخصياً، ثلاثة من أخوتي كانوا على جبهات القتال: فراس وسحبان

وبشار. وسحبان عاد إلى حمص مثخناً بجراحه بعد أن أطاح صاروخ إسرائيلي بدبابته. كان لونه أسود بالكامل وقد رشم بشظايا الصاروخ في كل مكان من جسده. بعض هذه الشظايا لا تزال إلى اليوم في رقبته.

نقل أحمد جمّول إلى مشفى الأمراض الصدرية في دمشق. وفي إحدى زياراتي له، كنا نسير في حديقة المستشفى، حين قال لي:

"ثمّ ماذا؟ هل لا زلت تراهن على الحكومات البورجوازية الصغيرة؟" لم تكن حكومة الأسد الأب قد تحوّلت بعد إلى رأسمالية طفيلية فاسدة عملاقة، كما جرى في التسعينات والألفية الجديدة.

"لا. أعتقد أن هذه الأنظمة لن تقوم بتحرير الأوطان ولا بناء الاشتراكية."

قال، وهو يبتسم ابتسامة خبيثة: "لقد بدأنا مشروعنا الخاص."

"أي مشروع؟" سألت.

"الحلقات الماركسية."

كانت تلك أول مرّة أسمع فيها بهذا التعبير. لم تكن ظاهرة الحلقات الماركسية جديدة تماماً، فقد بدأت تتشكل بشكل عفوي بعد حرب حزيران وانزياح اليسار السوري. تشكّلت الحلقات من قوميين عرب واشتراكيين عرب وبعثيين منشقين وشيوعين ناقمين على الرفيق الأمين العام ويساريين لم يكن لهم انتماء سياسي سابق، قرأوا ماركس وتروتسكي وإيريك فروم وإسحق دويتشر، واكتشفوا عالماً ماركسياً بعيداً عن لينين وسوسلوف والعلماء السوفيات ومنشورات دار التقدم. وبدأت وقتها مجلة تلعب دوراً هائلاً في تكوين تيار يساري جديد في المنطقة هي "دراسات عربية"، التي كانت تصدر عن "دار الطليعة"، بعد أن رئس

تحريرها المثقف السوري البارز جورج طرابيشي.

شخصياً، أدين بالكثير، ومثلي كثرة من أبناء جيلي، لجورج طرابيشي، فقد كان مدخلي إلى الفكر الماركسي غير الأرثوذكسي، خارج كتب «دار التقدم»، وكان مدخلي إلى عالم فرويد الثري، ومدخلي إلى فهم محمد عابد الجابري من دون تأليهه. منه تعلمت نقد الفكر الديني ونقد الفكر القومي ونقد الماركسية ونقد النقد. وتعلّمت منه أن الماركسية ليست بالضرورة ماركسية - لينينية، وأن الاتحاد السوفياتي لا يمثّل بالضرورة تجسيد الماركسية على الأرض، وأن خالد بكداش ليس معصوماً عن الخطأ كالأنبياء. ومن مجلة "دراسات عربية" تعلمت، حين كان يرأس تحريرها، أنه إضافة إلى كارل ماركس ولينين، هناك أيضاً تروتسكي ولوناتشارسكي وكارل لِبكنخت وروزا لكسمبورغ وإريك فروم وهربرت ماركوز. ومنه تعلمت أن الياس مرقص وياسين الحافظ ليسا هرطوقين بل هما مجدّدان مبدعان في الفكر الماركسي. ومنه تعلمت أن ما قاله ماركس ولينين ليس مقدساً، بل هو حديث بشر يقبل الخطأ والصواب والتطوير. وأثناء رئاسة تحريره مجلة «دراسات عربية»، آثر طرابيشي المواجهة في مجال الفكر على الانسياق وراء السائد. وفي الوقت الذي كان الأدب الماركسي - اللينيني - الستاليني قد بلغ أوجه في ظل حكم بريجنيف للكرملين، وهيمنة «العلماء» السوفيات على الفكر اليساري في العالم عموماً والعالم العربي خصوصاً، نشر طرابيشي (وكذا فعلت «دار الطليعة» التي كان له فيها رأي مسموع) مقالات لأمثال المفكرين السوريين البارزين الياس مرقص وياسين الحافظ، كما نشر عنهما وعن فكرهما، مفسحاً في المجال أمام رؤية مختلفة للفكر الماركسي، قادت كثرةً من أبناء جيلي إلى الخروج عن قيود الأحزاب البكداشية التي كانت مهيمنة على الفكر اليساري في الخمسينات والستينات ومنتصف السبعينات. وبدأنا نرى في رياض الترك وعمر قشاش صاحبَي رؤية مشروعة وليسا مجرد «خائنين» للحزب وللاتحاد السوفياتي«العظيم».

***

جورج، بهدوئه ولطفه ودماثته وأسلوبه الماتع، كان نقيض العفيف الأخضر العاصف الصاعق الذي كان يبول في شوارع دمشق وبيروت وباريس، ويشتم رفاقه قبل خصومه، ويرفض أن يجامل أحداً على حساب قناعاته. على أن الرجلين لعبا دوراً في تأسيس تفكير سياسي جديد رفد ما سمي وقتها الحلقات الماركسية.

إنما من ماركس الشاب وإنغلز الشيخ وبليخانوف ولينين ما قبل "ما العمل" وتروتسكي وإريك فروم وهربرت ماركوزه وجورج طرابيشي والعفيف الأخضر، نهلت شلل من الصبايا والشباب السوريين في مختلف المحافظات السورية من دون تنسيق مسبق أو أي تصور لعمل مشترك.

ثماني حلقات تشكلت بشكل عفوي في دمشق وحلب واللاذقية وحماة ودير الزور والسلمية والغاب، إضافة إلى حلقة عسكرية ضمّت عدداً صغيراً من ضباط سوريين يريدون سوريا مدنية. أكبر الحلقات كانت حلقتي حماة واللاذقية، ومعظم كوادرهما جاؤوا من بقايا حركة الاشتراكيين العرب (سواء بقايا أكرم الحوراني في حماة أو تلامذة وهيب الغانم في اللاذقية). أبرز كوادر حلقة حماة كان يوسف البني وأخاه أكرم وأمجد كلاس ونهاد نحاس. أما أبرز كوادر اللاذقية فكان فاتح جاموس - الذي سيلعب دوراً مركزياً في تشكيل رابطة العمل الشيوعي وقيادتها- وكامل عباس ووجيه غانم. حلقة السلمية أسسها أصلان عبد الكريم الشركسي القادم من حركة القوميين العرب ومعه المناضل الفوضوي علي صبر درويش وحسن زهرة. وساهم القوميون العرب أيضاً في تشكيل حلقة دير الزور وفي مقدمتهم عبد الله طعمة وزياد مشهور. وفي جامعة دمشق، برز طالب الطب المتحمس هيثم العودات (الذي سنعرفه لاحقاً باسم هيثم منّاع)، أما في جامعة حلب فكان أهم الكوادر هناك

محمد المعمار.

في الجيش تشكلت حلقتان: واحدة للضباط المجندين، كان من بين كوادرها أحمد جمّول ومصطفى خليفة (الذي سنعرفه لاحقاً كمؤلف لكتاب القوقعة) وعبد الملك عسّاف الذي رحل قبل سنوات في دير الزور الداعشية؛ ثم حلقة الضباط العاملين التي أسسها العميد صلاح الدين سليمان والمقدم خضر جبر والرائد مصطفى معتوق والملازم أول طارق شبيب.

وسألت أحمد: "ماذا تعني الحلقات الماركسية؟ وماذا ستفعل؟ كيف ستغيّر؟"

كان أحمد يسعل بقسوة ويهتز بكل جوارحه وهو يقذف الدم خارج صدره.

"سنتحدّث أكثر بعد أن أخرج."

كنت أخشى ألّا يخرج، ولكنه فعل. انتصر على السلّ، وظل يدخن ويأكل طعاماً سيئ الصنع، إلى أن تزوّج أخيراً من وفاء. وانتقل معها إلى ملحق في حي دمشقي وسط المدينة. وفي الملحق، هيّأت وفاء ذات مساء عشاء دمشقياً: بيضاً مقلياً وجبناً وزيتوناً وخياراً وبندورة، وجلسنا نتحدث. الحلقات تركز على سلسلة من المواضيع التي تتغافل عنها الأحزاب الشيوعية: مسألة البيروقراطية في الأحزاب الشيوعية، الجانب الإنساني للماركسية، المسألة القومية، قضية فلسطين، المسألة الكردية وقضية الأقليات عموماً، حقّ تقرير المصير، نمط الإنتاج الآسيوي، المرأة. ولكن، أهم من ذلك كانت مسألة التعامل مع البورجوازية الصغيرة والأنظمة الوطنية التقدمية.

كان البيض لذيذاً كعادة وفاء الجميلة الأنيقة. وكان العرق جيداً. خرجتُ

من ملحق أحمد ووفاء إلى قبوي في الشيخ محي الدين، وأنا أحاول أن أستوعب فكرة الحلقات الماركسية. وفي رأسي كان يدور سؤال واحد: "وماذا عن الرفيق الأمين العام؟"

***

في سجن تدمر كنّا نلمحهم من بعيد

مات أحمد جمّول قبل سنوات في الجزائر منفياً، بعيداً عن مدينته، السَّلَمية، وبعيداً عن دمشق. حين خرجت من السجن في 1991، تحدثنا على الهاتف مطولاً. تحمّل هو عبء مكالمة دولية طويلة، ليطمئن على صحتي ومعنوياتي. ثمّ تقطّعت بنا سبل الاتصالات، ولم يكن الإيميل والوسائط الأخرى قد وجدت في بلادنا بعد. سيبدو هذا غريباً بشكل خاص لجيل الثورة السورية، أو بالأخص لشباب الألفية الجديدة. للاتصال ببلد آخر، كان عليك أن تطلب الرقم من عاملة المقسم وتنتظر أحياناً لساعات قبل أن يرن الهاتف وتقول لك عاملة المقسم: "معك باريس" أو "معك الجزائر". كان توزيع بيان ما حول الديمقراطية أو الحرية أو فساد النظام يتطلّب كتابة، ثمّ طباعة بالآلة الكاتبة على ورق حسّاس خاص، يستخدم من ثَمَّ لطباعة مئات النسخ من البيان. توزيع البيان في زمن بوليسي حيث يوجد في كلّ زاوية مخبر أو دورية أمن، كان عملية صعبة ومثيرة في الوقت عينه. ولحدّ ما، كانت العملية تبدو كلعبة القطّ والفأر. كنا ننتشر في أحياء المدينة الفقيرة (مخيّم اليرموك، التقدّم، الطبّالة، وبعض أحياء القصاع) آن تُعَتِّم العين، ننثر البيان، نزرعه في النوافذ أو مداخل البيوت كالأزهار في القصص، نركض إذا دهمنا خطر، إلى حيث نختلط بالجموع المسائية، فنضيع في لجّتها، ثمّ نلتقي في مكان ما: مقهى الكمال، أو خمّارة فريدي إذا كان معنا

ثمن زجاجة بيرة، فنروي طرائف ما جرى بيننا، ونضحك، ونحاول خفض الأدرينالين الذي كان قد ارتفع في عروقنا إلى حافته القصوى.

أحمد جمّول عرفّني أيضاً على رجل يتقّد حيوية وحماساً وبعضاً من الخبث وقدرة على الحركة والتعاطف. فاتح جاموس، مهندس الكهرباء الشاب، القادم إلى دمشق من قرية بُسنادا السريانية الممتدّة على سفح تلة بجوار مدينة اللاذقية، بطبيعة فاتنة وتاريخ يعود خمسة آلاف سنة إلى الوراء. فاتح مهندس الكهرباء الممتلئ حيوية ونشاطاً سيلعب دوراً محورياً مع رفيقه السابق وخصمه الحالي أصلان عبد الكريم في قيادة رابطة العمل الشيوعي. ويوماً، سمّيت فاتح قلب رابطة العمل وأصلان عقلها المفكر. ولكن فاتح هو من لعب الدور الأهم في تحوّل الحلقات الماركسية إلى تنظيم سياسي. لا يتمتّع فاتح بعمق نظري كرفاقه أحمد حمّول وأصلان عبد الكريم وهيثم منّاع، ولكنه يفوقهم جميعاً قدرة على الحركة والإقناع والتشبيك والانتقال بين الأفكار والمواقع والخيوط. وسواء أحببنا الرجل أم لا، فقد كان "الدينامو" وراء الاجتماعات الموسّعة الثلاثة التي عقدها ممثلون عن الحلقات الماركسية، ليس من دون بعض التحايل وبعض المراوغة، حيث لم يتمّ تمثيل الحلقات وفق وزنها الحقيقي وعدد أعضائها. سيعتقل فاتح خمس عشرة سنة، مثل كل رفاقه في تلك المرحلة، وسيخرج من دون أن تفتر له همّة أو يقرّ له قرار. ولكنه سيلعب دوراً سلبياً برأي كثير من رفاقه في الثورة السورية، حيث سيقف في موقع أقرب إلى بشّار الأسد منه إلى السوريين. كنّا نسمّي فاتح "أبو علي"، وكان يحبّ ذلك، ويعتبره، كما قال لي ذات مرّة تعبيراً عن مشاغبته ومرجلته. أوّل مرة التقيته كانت في حديقة عامة في باب توما. جاء بقامته الضئيلة وعينيه البراقتين الذكيتين وابتسامته الخجولة، ولكن المطمئنة. أحببت صوته الدافئ وحذره الأمني، وأحسست بألفة كبيرة معه منذ اللحظة الأولى. ولا تزال كلماته كلما ودّعته بعد لقاء قصير في شارع أو حديقة أو موقف باص: "دير بالك

على حالك!" وكنت وما زلت أعتقد أنه كان يعني ذلك جيّداً. كان يمتلك عاطفة ودودة لكلّ الرفاق، ولو كان متديناً لصلّى كل يوم ليحمي الله رفاقه. كيف تغيّر فاتح بعد ثورة 2011، وهو الثوري مذ وُلِد، سيظلّ أمراً عصيّاً على الفهم بالنسبة لي ولكثيرين من رفاقه. أيعود ذلك إلى الطائفية؟ ففاتح ولد لأسرة علوية فقيرة في ريف اللاذقية، ولكن الطائفية لم تمنعه من معارضة حافظ الأسد وخسارة خمس عشرة سنة من عمره في سجون الأسد. أيعود ذلك إلى الخوف من الجهاديين الإسلاميين؟ ولكنّ الثورة بدأت مدنية، سلمية، ديمقراطية، والرجل لم يدعمها حتى آنذاك.

عُقد الاجتماع الأول قرب نهاية العام 1974 لتناول القضايا السياسية الرئيسة بعد حرب تشرين، وللإجابة على سؤال لينين الأساس: ما العمل؟ لم يكن جميع الأعضاء في الحلقات المختلفة مجمعين على ضرورة اللقاء أو ضرورة تطوير واقع الحلقات لما هو أبعد من نقاش وتبادل آراء. وقد تولّد بين أعضاء الحلقات وجهتا نظر، رأت إحداهما أن الظرف الموضوعي لم ينضج بعد للقيام بعمل منظّم، بسبب عدم وجود طبقة عاملة سورية قادرة على إحداث فرق سياسي في البلاد؛ بينما رأت الأخرى أنه لا بدّ من الارتقاء بظاهرة الحلقات الماركسية لكي لا تقع في مستنقع الركود. فاتح جاموس، ومعه رجل عنيد وصبور وذكي هو عبّاس عبّاس، الماركسي العتيق الذي لا يلين، كانا في مقدّمة الداعين إلى نقل الحلقات إلى تنظيم. انتهى الاجتماع بتكليف طالب الطب الذكي والدؤوب هيثم العودات بكتابة الرؤية الاستراتيجية التي ستقوم عليها الخطوة التالية.

ليس من السهل أن تُحبّ هيثم العودات، فهو رجل داخِلاني، يوحي بأنه لا يثق بمحدثيه، ولا يفتح لهم قلبه بسهولة. وجهه النحيل وابتسامته القلقة تشعرانك بشيء من النفور وشيء من الحذر منه. ولكنّه شاب

دؤوب، نشيط، ومجتهد. يقرأ كثيراً وله قدرة كبيرة على إعادة إنتاج ما يقرأ. وُلِد لعائلة معروفة بنشاطها السياسي في درعا، وكان والده، يوسف ناصر العودات، محامياً، معروفاً، قريباً من حزب البعث الموالي لصدّام حسين، دفع سنوات طويلة من حياته ثمناً لانتمائه السياسي، سجيناً في معتقلات حافظ الأسد. ولا شكّ أن هيثم الفتى تأثر كثيراً بغياب والده القسري، ما جعله لاحقاً ناشطاً مهمّاً في مجال حقوق الإنسان. ولكنّه كان شديد الحذر من أن يلقى مصير والده، فترك سوريا عام 1978، قبل أن ينهي دراسته في كليّة الطب والتجأ إلى باريس، حيث تنقّل من منظمّات حقوقية شتّى، وكان نائباً لرئيس اللجنة العربية لحقوق الإنسان وأحد أعضاء الفريق المركزي في تقرير التنمية الإنسانية العربية، كما لعب دوراً هاماً في ولادة المحكمة الجنائية الدولية من أجل رواندا والمحكمة الجنائية الدولية الدائمة. سيلعب هيثم دوراً كبيراً في حياة الحلقات الماركسية والسنتين الأوليين من تأسيس رابطة العمل الشيوعي. وأهم تأثير له كان مشاركته المهمة، مع أصلان عبد الكريم ومحمد المعمار، في كتابة الخط التأسيس الاستراتيجي للتنظيم العتيد.

وسواء أكنت من المعجبين بظاهرة رابطة العمل الشيوعي أم لا، فقد تعترف أن هذه العصبة من الثوريين نجحت في تأصيل عملها السياسي على أساس استراتيجي واضح، وهو ما لم يقم به أي تنظيم شيوعي سوري آخر. واستناداً إلى رؤية التنظيم في الانتقال من العام إلى الخاص، تسلسلت موضوعات "الخط الاستراتيجي" من لوحة الصراع العالمي، مروراً بالحركة الشيوعية العالمية والمسألة القومية والوحدة العربية ومسألة الأقليات والقضية الفلسطينية والحزب الشيوعي العرب الموحد، إلى الطبقة العاملة السورية والحركة الشيوعية السورية.

في صيف العام التالي (1975)، اجتمع ممثلو الحلقات مرة ثانية، وقرروا ضرورة الانتقال خطوة "إلى الأمام" بإعلان إطار ما موحّد للحلقات. كان

المجتمعون متأثرين باندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في نيسان 1975 بين الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من جهة، والكتائب اللبنانية وحزب الأحرار والقوى المتحالفة معهما من جهة أخرى. ولسوف تتطور هذه الحرب لاحقاً إلى مسارات مأساوية، لم يكن أحد يدركها آنذاك. بيد أن بدايات تلك الحرب بدت لليسار السوري وكأنها الساحة التي ينبغي لكل اليسار العربي أن يخوضها، ورأوا فيها نسخة، ربّما، من الحرب الأهلية الإسبانية، التي تقاطر الثوريون من مختلف أرجاء المعمورة ليشاركوا فيها إلى جانب الجمهوريين ضدّ كتائب فرانكو الفاشية. ولاحقاً، سيشارك أعضاء من التنظيم الجديد مع الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية بالسلاح، وبالكلمة والدعاية السياسية والتدريب. وكنت شخصياً بينهم، ففي 1979 أمضيت أربعة أشهر أعمل مع جبهة التحرير الفلسطينية، سواء في جريدة الجبهة المركزية أم في تدريب الكوادر سياسياً في الجنوب.

عززتْ التطوّرات السياسية في لبنان مواقع التيار الذي كان يريد نقل الحلقات إلى "شكل تنظيمي ثوري أرقى"، وفي مقدّمتهم فاتح جاموس وعبّاس عبّاس. واقترح بعضهم اسم "عصبة الثوريين"، في إشارة إلى "العصبة الشيوعية" التي أسسها ماركس وإنغلز ومعهما كارل شابر في لندن 1947، في تذكير بطبيعة الحلقات الماركسية التي كانت تنهل من ماركس أكثر مما نهلت من لينين، وفي ضمير معظم المؤسسين رفضهم للفكرة اللينينية التي ترى في الحزب جريدة ودزينة من المحترفين الثوريين.

***

وفي الصيف نفسه، الذي عقد فيه اللقاء الثاني الموسع للحلقات الماركسية، وقع حدث سيلعب دوراً كبيراً في تاريخ اليسار السوري: إعدام ناشطي "المنظمة الشيوعية العربية" في 2 آب 1975. ترافقت

مسيرة المنظمّة الشيوعية العربية مع نشاط الحلقات الماركسية وتقاطعت معها أحياناً. أسس المنظمّةَ ثلّة من الشباب، سوريين وفلسطينيين، في العشرينات من عمرهم، تزعّمهم شاب فلسطيني نقي السريرة، يشتعل حماساً وغضباً وقهراً، وله كاريزما عالية وقدرة على التنظيم والإقناع - علي الغضبان. وبينهم أيضاً الأَخَوَان غياث وعماد شيحا والفارس النبيل محمد فارس مراد. افترق شباب المنظمّة عن شباب الحلقات في فورتهم العاطفية ونقمتهم، واقتنعوا أن التغيير لا يمكن أن يأتي إلا بالعنف الثوري. وكان هدفهم ضرب المصالح الأمريكية في المنطقة، وفي خلدهم كان يدور نصرٌ قريب تحمله ثورة وشيكة. قاموا بوضع متفجرة في جناح الولايات المتحدة في معرض دمشق الدولي، ثم كرّروا الأمر نفسه في شركة NCR الأمريكية في قلب دمشق، على بعد مئات الأمتار من محافظة دمشق والبرلمان وقيادة الأركان. أثناء العملية الثانية، صدف وجود حارس ليلي في مكان التفجير، ولم يستطع الشباب تنبيهه أو إنقاذه، فقضى قتيلاً. وحتّى بعد ثلاثين عاماً ستظل صورة هذا الرجل وأسرته تُثْقِل على قلب من لم يُعدَم من أعضاء المنظمة.

كانت فترة عصيبة على النظام السوري والأنظمة الأخرى في المنطقة، وتعاونت أنظمة المخابرات في شرق المتوسط للقضاء على أفراد التنظيم بشراسة منقطعة النظير. وقُبِض على عدد منهم في لبنان، بينهم علي الغضبان، الذي اختُطف بمساعدة فصيل فلسطيني موالٍ للنظام السوري. وتمّت مداهمة مسكن محمد شقير، الذي عُذِّب حتى الموت، فأقرّ قبل أن يلفظ نفسه الأخير بمعلومات عن رفاقه في المجموعة، واعتُقل الجميع خلال ساعات، وصدرت أحكام سريعة قاسية بعد محاكمة كاريكاتورية في محكمة أمن الدولة، قضت بإعدام خمسة من أعضاء المنظّمة (أربعة فلسطينيين وسوري) – علي الغضبان، غياث شيحا، وليد عدوان، محمد خير نايف، وعلي الحوراني، كما قضت بأحكام بالسجن المؤبّد أو لمدّة خمس عشرة سنة على عشرة آخرين،

بينهم جميلة البطش، وفارس مراد، الذي سيخرج من السجن معطوب الصحّة، فيموت بعد فترة قصيرة، وعماد شيحا شقيق غياث، الذي سيخرج من السجن روائياً مرموقاً. صدرت الأحكام في 29 تموز / يوليو 1975، ونفذّت بعد أقلّ من أربعة أيام، حاول خلالها بعض حلفاء النظام من القوى "الوطنية والتقدمية" السورية واللبنانية والفلسطينية التدخل لتخفيف الأحكام، بيد أن الأسد الأب لم يفاجئ أحداً حين رفض الوساطة. وفي فجر يوم السبت 2 آب 1975، نُصبت في قلب دمشق خمس مشانق، ولكن الشهداء لم يصلوا أبداً إلى مكان تنفيذ الحكم، ففي آخر لحظة، قرر النظام الذي خشي من عاقبة الإعدام العلني، تنفيذ الجريمة في مكان ما تحت الأرض، ورفض أن يسلّم الجثامين لذويهم، وما زالت هذه الأجساد الخمسة مطمورة في مكان ما لا يعرفه أحد.

في سجن تدمر، كنا نلمحهم من بعيد. لم يكن مسموحاً لنا أبداً الاقتراب منهم أو الحديث معهم أو التلويح والابتسام لهم. أمضوا نحواً من ثلاثين سنة ينتقلون من سجن لآخر، في عزلة عن كل آدمي، حتى نقلوا أخيراً إلى سجن صيدنايا قبل الإفراج عنهم.

في النصف الثاني من سبعينات القرن النائم، كان رموز المنظمّة الشيوعية العربية يشعلون خيال وضمير اليسار السوري الجديد. لم تخلّف المنظّمة إرثاً نظرياً ولم تعش طويلاً لتخلّف إرثاً نضالياً، ولكن مناضلي المنظّمة كانوا أيقونات عاشت في قلبنا طويلاً. وحين التقيت بعد أشهر من إعدام الشباب، في ربيع1976، بأميرة شيحا، شقيقة غياث وعماد، كانت بالنسبة لي ولجميع من حولها تقريباً أيقونة حقيقية، وعلى الرغم من جمالها الصاعق وفتنتها، لم يتجرأ أي منّا على مغازلتها أو التقرّب منها، ليكون أبعد قليلاً من صديق أو رفيق.

وحين التقيت فارس مراد، بعد سبعة وعشرين صيفاً قضاها في سجون النظام، بدا لي شبه آدمي، بظهر منحن حتى تكاد قامته تنتصف، ولكن

بتماسك نفسي وسياسي وأخلاقي عنيد. قال لي، وكنا في بيته قرب الفحّامة بدمشق: "لم يكن العمل المسلّح هدفاً بذاته. كان وسيلة لكي نُسمع صوتنا، لأننا لم نكن نملك إمكانيات أخرى لذلك. وكان الأساس في عملنا العسكري أن يكون مجرد رافعة إعلامية لا يستهدف بشراً على الإطلاق." ولذلك، كان على فارس وعماد وكل الآخرين أن يعيشوا مع مقتل ذلك الحارس الليلي البائس مدة ثلاثين عاماً. في عام 2009، رحل فارس مراد عن عالمنا، وكان وداعه مناسبة لتلاقي كل أطياف اليسار السوري. فارس مراد وحده استطاع أن يجمع هذا اليسار الذي لا يلتقي على شيء عادة.

بعد عامين من التقائي فارس مراد، أفرج عن عماد شيحا، وكان أقدم معتقل سياسي سوري معروف. أقول "معروف" لأن ثمّة في السجون السورية أشخاصاً مجهولين لا نعرفهم، اختفوا من بيوتهم أو مكاتبهم أو مقاهيهم، ولم نعد نعرف عنهم شيئاً. عماد كان ذا نكهة مختلفة عن فارس: أقل عاطفة وأكثر عقلانية. حين زرته في بيت أهله في ركن الدين أول مرة حاولت أن أبحث عن آثار الأعوام الثلاثين التي أمضاها في السجون، ففشلت. كان وسيماً، لطيفاً، دمثاً، ومستقيماً. قال لي: "لا يمكن أن نعيش في كابوس الماضي إلى ما لا نهاية، يجب أن نستيقظ منه". لم يحبّ أن يخوض في تجربته التي كلّفته ثلاثين عاماً من حياته. حين اعتقل، كان في العشرين، وحين أطلق سراحه كان في الخمسين. مع الصبر، تعلّم المحافظة على لياقته وصفاء ذهنه، وتعلّم أيضاً الإنكليزية، وأتقنها، وحين خرج بات مترجماً مرموقاً، ولكنه أيضاً، ويا للدهشة، غدا روائياً محترفاً. نشر ثلاث روايات، كتبها جميعها في السجن، موت مشتهى، غبار الطلع، وبقايا من زمن بابل. ولكنها -ويا للمفارقة أيضاً- لم تكن أي منها تحكي عن عالم السجن.

لا يذكر معظم السوريين اليوم مناضلي المنظّمة الشيوعية العربية،

ولكنهم يعرفون اللوحة الفاتنة التي رسمها يوسف عبدلكي بعنوان "دمشق، سبت الدم" التي تؤرخ لليوم الذي أعدم فيه الأعضاء الخمسة. كما يذكرون على الأرجح القصيدة الفاتنة لنزيه أبو عفش عن شهداء المنظّمة، بعنوان "الله قريب من قلبي":

اليأس قريب من قلبي

ورفاقي يتدلّون عراة كحبال القنّب

خمس نوافذ أغلقت الآن

فنامي أيتها الوردة

خمس شواهد تنتصب الآن على نحو دموي

خمس زنابق تهوي في الليل ولا تصل الأرض

فسلاماً أيّتها الوردة

خمسة أوتاد تتلكّأ في منتصف القلب

سلاماً لي

وسلاماً لبلادي

وسلاماً لملايين الأعشاش المهجورة في منتصف القلب..

سلاماً للوردة.

***

قال لي صاحب الخمّارة: هذه طاولة أبي

كان ذلك إذن 1976، العام المخاتل، المغامر، الجسور، والضلّيل. كنت قد عدّت إلى دمشق من جديد من مدينتي الهادئة الجميلة، حمص، بعد سنة أمضيتها في تعليم اللغة الإنكليزية من خارج الملاك. في جيبي بعض النقود، وفي قلبي قصص حبّ كسيرة. وفي حمص، توطدت علاقتي بفرج بيرقدار، الشاعر المارد الذي سيغدو قامة في الشعر السوري، وعمر قندقجي، الفتى الوسيم الرقيق الذي مارس سحره على الجميع، قبل أن يغدو محامياً علماً في حمص، دافع عن كلّ متهم سياسي، من دون تمييز، ودفع لذلك ثمناً، وميخائيل سعد، الذي يحمل في جيبه، أنّى اتجه وأقام، ضيعته "حزّور" المرمية بإهمال على حوافّ مصياف، وقد حملها معه حتّى إلى مونتريال فعاش فيها هناك أعواماً طويلة، قبل أن تفاجأه الثورة فتعيده كما كان فتى مشاغباً ومناضلاً، وصلاح الصالح، الذي كان بيته لنا منتدى ومأوى وملجأ حين يعزّ الملجأ.

عمر قندقجي كان أفتانا وأوسمنا وأكثرنا قدرة على نشر الفرح. لم يكن بلغ العشرين بعد، ولكن وجوده بيننا كان ركناً رئيساً. يحبّ عمر اللوحات والشعر والموسيقى والطبقة العاملة، ويتحدّث عنها جميعاً بالحماس نفسه والحيوية ذاتها. وبينما رحلنا جميعاً عن حمص أولاً ومن ثمّ عن سوريا، بقي عمر وتداً ثابتاً في المدينة التي كانت أجمل المدن.

وكان ميخائيل، معلّم المدرسة المثقّف، أعقلنا وأحكمنا، إن كان فينا أيّ تعقّل أو حكمة. من حكمته مثلاً؛ أنه رفض أن يتسلّم منصباً قيادياً في حزبه (الجناح اليساري في حزب البعث -حركة 23 شباط)، لأنه كان يعتقد -واهماً- أن في الحزب من هو أكفأ منه. اعتقل بسبب انتمائه الحزبي عام 1976 لمدة عامين. وحين أطلق سراحه، سافر إلى بيروت ليعمل في جريدة القاعدة الصادرة عن جبهة التحرير الفلسطينية، وكسكرتير تحرير لمجلة المصباح البيروتية الثقافية الأسبوعية. وحين عاد إلى سوريا، اعتقل مرة أخرى عام ١٩٨٨، هذه المرّة بتهمة التعاطف مع حزب القوات اللبنانية، وبقي سبعة أشهر، قبل أن يطلق سراحه فيفرّ إلى كندا. وبين هذا وذاك، وجد ميخائيل في السبعينات فسحة من الوقت لينضمّ وحفنة من البعثيين اليساريين والقوميين الآخرين إلى تنظيم ماركسي – لينيني – قومي، أسّسه إسماعيل محفوض وتوفيق دنيا، وهما مثقّفان علويّان بارزان، كانا جزءًا من ظاهرة الحلقات الماركسية الواسعة، ولكنّهما لم يحضرا الاجتماعات التأسيسية ولم ينضمّا إلى رابطة العمل الشيوعي. وقد سمّى الرجلان تنظيمهما "التنظيم الديمقراطي الاشتراكي العربي" (ت.د.ش.ع). ولو استشرنا كراسة "الماركسية اللينينية والتبلور الماركسي العربي" التي شكّلت المنهج النظري للتنظيم، لوجدنا أن الخلاف بين التنظيم والرابطة كان في البعد القومي العربي لمؤسسي التنظيم وفي كون أعضاء التنظيم أكثر انسجاماً من أعضاء الرابطة التي ضمّت -في بداياتها- تروتسكيين وماويين ولينينيين ومجالسيين واشتراكيين عرباً.

إلى جوار التنظيم الديمقراطي الاشتراكي العربي، ظهرت تنظيمات يسارية أخرى بسرعة برقت لبرهة ثم خمدت. اتحاد الشغّيلة، الذي كان امتداداً لرابطة الشغيلة اللبناني، الذي أسسه ظافر الخطيب واختطفه بعد ذلك انتهازي عريق هو النائب وقتها زاهر الخطيب، كان أبرز تلك التنظيمات. واتحاد الشغّيلة هو أيضاً مزيـج من الفكر الماركسي – اللينيني - القومي

الذي ازدهر بعد هزيمة حزيران، وبرز من قادته سعيد عبد اللطيف وزياد وطفة. ثمّ برز تنظيمان صغيران متأثران بحزب العمّال الشيوعي المصري، الذي جاء كجزء من الحركة الشيوعية المصرية الثالثة، وكان يعتبر أول حزب راديكالي في العالم العربي، وينسب إليه تأسيس نظرية البرجوازية البيروقراطية. التنظيمان هما حركة "النهوض" وتوأمها الفلسطيني - السوري حزب العمال الشيوعي الفلسطيني. وكان الكاتب والسياسي فايز سارة حلقة الوصل بين التنظيميين، اللذين انهارا تحت ضربات الأجهزة الأمنية عام 1978. ويضاف إلى ذلك "الفصيل الشيوعي" وبرز من قيادته خلف زرزور، وهو قاص سوري، ساهم بعد ذلك بثلاثين سنة في تأسيس إعلان دمشق. وأخيراً، كانت بالطبع المنظمّة الشيوعية العربية التي أسّسها وقادها شعراء ثوريون، قضوا على أعواد المشانق في دمشق أو قضوا ثلاثة عقود في سجون الأسدين. وسبق هذه الفصائل كلّها تنظيم ماوي أسسه جريس الهامس باسم الحزب الشيوعي العربي، وحزب العمال الثوري، الذي تأثر بفكر الماركسيين العربيين الكبيرين ياسين الحافظ والياس مرقص.

ظهرت هذه التنظيمات جميعها في السبعينات كالفطر، ولكنّها لم تعمّر طويلاً (ما خلا حزب العمّال الثوري)، بسبب الضغط السلطوي أولاً، ولكن -ربما- بسبب الظهور الصاعق لرابطة العمل الشيوعي وقتها وسرقتها الأضواء من التنظيمات اليسارية الأخرى، بما فيها ت.د.ش.ع واتحاد الشغيلة وحزب العمال الشيوعي الفلسطيني. واليوم لو بحثت على غوغل، الذي يعرف كلّ شيء، لما وجدت عنها -للأسف- سطراً واحداً.

التقيت ميخائيل في إستانبول بعد قرابة خمس وثلاثين سنة، وكان لا يزال الفتى الذي عرفته في حمص، النبل نفسه والهمّة نفسها. كانت الثورة السورية قد أحيت فيه نفسه القديمة. وما إن رأى إستانبول حتى

وقع في عشقها، كما فعلنا جميعاً. وهو يزور المدينة أربعة أشهر في كل عام. واليوم تحوّل ميخائيل إلى طالب جامعي في ماردين، بجنوب تركيا، وهو يحب أن ينشر صوره، طالباً في السبعين من عمره، مع صبايا صفّه الفاتنات اللواتي يتقاطرن حوله كنحلات نشيطات يرفرفن حول زهرة معطاء.

أما فرج بيرقدار فهو عالَم بذاته. جاء من قرية تير معلة الملاصقة لحمص، حاملاً تمرّده وقصائده وقلقه. لم تكن قريته بعيدة كمسافة، ولكنها كانت بعيدة بما يكفي لكي يشعر برهبة المدينة، فيفيض رهافة وشِعراً. لا أذكر كيف تعرّفت إليه أول مرة، ولكنني أذكر كيف وقعت سريعاً في هوى روحه الوثّاب وقصيدته الجريئة. كنّا نسير أحياناً في ليالي حمص الصيفية مدّة ساعة أحياناً، ونحن نرتجل قصيدة مشتركة، موزونة، كما كان يحبذها فرج، قبل أن ينتقل بعد سنوات إلى قصيدة النثر، ثمّ ننساها لحظة ننتهي منها. بعد ثلاث سنوات، سيقترب فرج من فكر رابطة العمل الشيوعي وسيرغب في أن ينضمّ كعضو كامل العضوية. كنت وقتها قد أصبحت عضواً في اللجنة المركزية للرابطة، ولم أُرِدْ للشاعر أن يصبح سياسياً. كنتُ، شخصياً، قد ضحّيت بالأدب في سبيل السياسة، توقفت عن كتابة القصة بعد إصدار مجموعتي "لماذا مات يوسف النجار". وقال لي أبو سامر (أصلان عبد الكريم): "أنت تخليت عن الأدنى لمصلحة الأرقى. لا يجب أن تحزن." كنت قد أخبرته أنني لم أعد أستطيع كتابة القصة والشعر أكثر. كانت آخر قصة كتبتها سنة 1978، ثم جف القلم وامتهنت الجري من مكان لآخر ومن رفيق لآخر ومن شقة إلى أخرى. أبو سامر رأى السياسةَ فوق الفن. فرحتُ كثيراً لملاحظته، وامتلكني رضا غامر. "انتقلتُ مما دون إلى ما هو خير"، كنت أكرّر لنفسي كلما حَنَنْتُ إلى الورقة والقلم أكتب فيها سطراً أو سطرين لأخفف وطأة الملاحقة والوحشة وهجران الحبيبة. لم أرِدْ لفرج، وكان أحد شعرائي المفضّلين أن يتخلى عن الشعر لمصلحة السياسة فوقفت

في وجه تنظيمه. قلت له: "أنت شاعر فاكتب الشعر إذن"، وقلت له: "هنالك مائة شاب يمكن أن يوزعوا البيانات، ولكن لا يوجد سوى شاعر واحد اسمه فرج بيرقدار. واجبي أن أحمي هذا الشاعر فيك." وقلت له: "كلّ قصيدة تكتبها خير من ألف بيان سياسي، وتفيد قضية الثورة أكثر بألف مرّة." لم يكن يوافقني، ولم يوافقني الرفاق. في كلّ اجتماع، كان الرفاق يطالبونني بتسليم فرج لقيادة منطقية دمشق، وفي كلّ اجتماع كنت أرفض. والعميد (لم يكن عميداً. كان اسمه زياد مشهور، وكان مسؤول التنظيم في الرابطة، وكنا نناديه العميد بشيء من التحبّب وشيء من المداعبة، لصرامته التي كان يتصنّع أحياناً، وقد وقع الاسم في نفسه موقعاً طيباً) كان يلّون وجهه الأسمر بحمرة من الغضب والاحتجاج. "ولكن يا رفيق!" يقول لي، ثمّ ينظر إلى الرفيقين الكبيرين: أصلان عبد الكريم وفاتح جاموس، الذين كانا يتشاغلان بأمر آخر أو يشرعان بنقاش سياسي جديد. لم يكن العميد يحبّني. وكذا لم يحبّني كلّ العاملين في مجال التنظيم. كنت أغضبهم بانفلاتي الأمني. خلال فترة ملاحقتي التي امتدت ثلاث سنوات، كنت أتفتّل في شوارع دمشق وأزور أهلي في حمص، أحضر السينما والمسرح والأمسيات الموسيقية، وأجلس في المقاهي والبارات. والعميد كان يأتي في كلّ اجتماع مع ملفّ كامل بكلّ تحرّكاتي. أحسب أن بعض الرفاق كان يسهم في نقل هذه التحركات إلى العميد: أمس كنتَ في حيّ العمارة تأكل الكنافة مع الرفيق جمال سعيد، الأحد رأوك في مسرح القبّاني، والثلاثاء، كالعادة، كنتَ في باب توما. وكنت أجيب مداعباً أحياناً: "ماذا أفعل يا رفيق؟ المسرحية كانت جميلة، ولم أستطع مقاومتها." على الأرجح، لم يشاهد العميد مسرحية في حياته، وهو قطعاً لم يحضر حفلاً لموسيقى الغرفة؛ ليستمع إلى سوناتا البيانو رقم 3 لشوبان من مقام B مينور، مثلاً، ولعلّ رواية "الأم" لمكسيم غوركي تكاد تكون قمّة الفن الروائي بالنسبة له. وبقي فرج في علاقة خيطية معي خارج جسد التنظيم، يكتب أجمل قصائده، إلى أن

اعتقلتُ في آب 1981، حين سارع الرفاق إلى ضمّه إلى فرقة حزبية ثم إلى اللجنة المنطقية، فاللجنة المركزية والمكتب السياسي. وكان فرج مناضلاً صلباً كما كان شاعراً مدهشاً، وسويةً مع عبد العزيز الخيّر وأكرم البنّي والراحل عدنان محفوظ قاد الحزب في مرحلة حرجة جداً، حتى اعتقل هو أيضاً بعد ستّ سنوات. لست أتفق مع نشاط الحزب في سنوات قيادة فرج ورفاقه، ولكني أنحني أمام شجاعتهم وتضحيتهم. حين اعتقل كانت سومر، ابنته وابنة رفيقتنا شفق، التي اعتقلت أيضاً وعُذِّبت لسنوات، في الثالثة من عمرها. وحين خرج بعد نحو أربع عشرة سنة، كانت تستعد لدخول الجامعة، تربيها جدّتها في القرية. وفي السجن تعرّض لكل نوع ممكن وغير ممكن من التعذيب، وتنقّل في فروع التحقيق والمعتقلات، كسجن تدمر سيء الصيت وسجن صيدنايا الذي سيتحول أيام الأسد الابن إلى أسوأ من سابقه. حكم خمس عشرة سنة، وقام العالم والمثقفون والكتاب والفنانون والحقوقيون بحملة طويلة ملحّة لإطلاق سراحه، ولكنها لم تفلح إلا قليلاً، فقد عفا عنه الطاغية قبل سنة واحدة من انتهاء حكمه.

اعتقل فرج لسبع سنوات من دون محاكمة، وحين ارتكب النظام خطأ محاكمته، كان السجين هو من يحاسب السجّان. قدّم أجمل وأصدق مرافعة ضدّ النظام، لم يدافع عن نفسه، ولكن عن سوريا. "باسم الحرية المغدورة في وطني منذ أكثر من ثلاثين عاماً، باسم المحرومين منها مادياً ومعنوياً، جسداً أو فكراً أو روحاً، باسم ابنتي التي لا تستطيع أن تخون طفولتها، وتصدّق الشعارات التي يرغمونها على تردادها في المدرسة كل صباح، أعلن بوصفي إنساناً وشاعراً وسياسياً، أن الحرية هي القيمة الأسمى في فلسفة التاريخ البشري، وأني ضدّ من يقف ضدّ الحرية"، هكذا كتب في مرافعته في المحكمة، عام 1993.

هل كنت على حقّ؟ هل كان الأجدى والأفضل أن يبقى فرج شاعراً؟ ربّما.

وهو نفسه يقول: "لو كنت سياسياً فقط؛ لكان يمكن أن أُهزَم، غير أن الشعر استطاع أن ينقذني، ويعطي حياتي في السجن معنى مختلفاً وقيمة مختلفة عما يراد، ما من شيء يستطيع أن يشدّ القوس بي إلى النهاية أكثر مما يفعل الشعر." ولذلك، فالشاعر الذي تحوّل مناضلاً واعتقل أربع عشرة سنة، عاد في السجن إلى كتابة الشعر (كما عدت أنا إلى كتابة القصّة والرواية)، وحين خرج من المعتقل، كان أول لقاء له مع جمهوره في منتدى الجمعة الثقافي في المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، الذي كان يديره الناقد الذي سأتشرف بصداقته لاحقاً حسان عبّاس. كانت هذه أول أمسية عامة له، حضرها نحو مائة شخص تقريباً، بعد سنوات سجنه الطويلات، قبل أن يحمل معه إلى السويد أجمل قصائده التي ترجمت اليوم إلى لغات عدّة في العالم. واليوم، حين أرى فرج في إستنبول أو برلين، أو بيرن، أتأمل في خطوط وجهه النبلَ القديم المقيم، وأتذكّر قصيدته التي كتبها فيّ بعد ملاحقتي من قبل الأجهزة الأمنية:

وتحزنُ... تحزنُ

حتى يقول لك الفقراء: قبلناك في صفنا.

وتقول صغار النخيل: قبلناك في صفنا.

ويقول لك الشوط إنك مُهرٌ أصيلْ.

تُعِدّ البلاد احتمالاتها... وامتحاناتها

وستأتي إليها: وما أنت وحدك،

تدخل فيها: وما أنت وحدك،

لا غيرك الآن إلاك أنت

وما أنت وحدك.

ستدور بنا، فرج وعمر وميخائل وصلاح وأنا، شوارع حمص الجميلة، قبل أن يشوّهها الإهمال والتغيير الديموغرافي، بعد منتصف الليل، نتناقش في الأدب والفن والسياسة، نجادل في قصيدة النثر ودور الفنّ اجتماعياً، نحلم بنساء جميلات يغازلننا، نحلم بأن نرى قصائدنا وقصصنا تنشر في مجلات متخصصة، نرتجل الشعر والألم والودّ والصداقة الصِّرفة. حين تنقصنا النقود نسهر في بيت عمر أو بيت صلاح على الأغلب، نستمع لقصيدة أو قصة لأحدنا، أو نلعب لعبة "الصراحة". وعمر سأل فرج ذات ليلة أثناء اللعبة من كان أقربنا إليه. انتظر فرج هنيهة قبل أن يجيب: الجميع أصدقائي وفي قلبي، ولكن أقربهم عمر. وأنا اجتاحني حزن صغير، ما زال مقيماً إلى اليوم. وحين تكون في جيوبنا بعض الليرات كنا نسكر في مطعم وخمارة الأمير: وكانت السهرة تكلّف كلاً منا خمس ليرات سورية. الأمير كان مطعم والدي المفضل. كان أبي، أحمد نورس السوّاح، الصحفي والكاتب السياسي المعروف في حمص يجلس فيه صحبة الشاعر الماجن محي الدين درويش وأستاذ اللغة العربية الأقدر رفيق فاخوري، ومدير بريد حمص درّي الأخرس، والصحفي العتيق عبد الكريم شاهين. وذات مساء، كان أبي وصحبه يشربون في المطعم، حين رأى أخي فراس يدلف من الباب، ويتجه إلى طاولة قريبة. يومها قرّر والدي أن يتقاعد عن المطاعم، وراح يشرب على شرفة شقتنا الصغيرة. ثم توقّف أخيراً عن الشراب دفعة واحدة، حين أفاق ذات صباح وقرّر أن يغدو مرجع المدينة في الفقه الحنفي.

في البدء، كنت أتهيّب دخول مطعم الأمير، وكان الصحب يشجعونني. وحين دخلت أخيراً، هبّ صاحب المطعم رزوق يرحّب بي، ثمّ قادني إلى

طاولة في زاوية المطعم، وقال لي: "هذه طاولة الوالد." في خريف تلك السنة (1975) عدت إلى دمشق مرة أخرى، لأتعرف على مظفر النوّاب، ذلك الشاعر المُلهِب المُلتَهب، الذي سيفتح أمامي عالماً من نار ونور.

***

جميل حتمل الذي لوّن حياتي ومضى غيرَ آبه

العام 1967 سيكون عاماً موّاراً بالحياة والحركة والمغامرة بالنسبة لي. فيه تعرّفت إلى من سيكونون أصدقائي بقية العمر، وسيتركون في روحي بصماتهم طويلاً. أولهم كان حسّان عزت، الشاعر الجميل الذي يسكن بين الكلمات والصور، يعيش القصيدة قبل أن يكتبها، وفي أحايين كثيرة يعيشها ولا يكتبها. لا يمتّ بصلة إلى فوضى الشعراء وبوهيمية الفنانين. أنيق، نظيف ومرتّب، كما هي قصائده وكتبه. كان لديه في بيته في بستان البختيار غرفة، لا يدخلها الغبار ولا البشر، إلا نخبة من أصدقائه. حين سمح لي أول مرة بالدخول إليها، دخلنا ككاهنين بوذيين يتسللان إلى معبدهما. سحرني الجو الكئيب، النظيف المرتب. كلّ الكتب كانت مغلّفة بلاصق من النايلون الأزرق الحزين. في تلك الغرفة استمعنا إلى الشعر والموسيقى واتفقنا واختلفنا في قصيدة النثر وقصيدة التفعيلة وفي النقد، قرأنا رامبو وبودلير وويتمان وأدونيس وسليم بركات، وخضنا في السياسة والفلسفة والدين. كان حسّان ليبرالياً متحمساً في أفكاره الدينية والفلسفية والاجتماعية، وكنت أبدو إزاء تحرّره متزمّتاً قليلاً. وسيلة التنقل الخاصة بحسان كانت دراجته التي أطلق عليها اسم "روزينانتي" تيمّناً بفرس دون كيخوته. وكثيراً ما تنقلّنا عليها لزيارة صديق

أو حضور معرض رسم.

تعرّفت إلى حسّان في مهرجان للشعر والقصّة في جامعة دمشق. لسبب لا أفهمه، سمّى اتحاد الطلبة المهرجان باسم "مهرجان عكاظ." وكان لديّ عشرون سبباً لأكره الاسم، وتردّدت في المشاركة فيه، ولكن صديقي الصحفي عدنان جرجوس أقنعني. كنّا في مقهى الإيتوال قبالة مدرسة الفرانسيسكان. "ما لك وللاسم؟" سألني، "سيكون ثمّة جمهور كبير." وهائل، النادل الذي كان يمهلنا في تسديد ثمن ما نشرب، والذي كان يضع فنجان قهوتي على الطاولة، هزّ برأسه موافقاً من دون أن يعرف ما القصّة، فاقتنعت. اشتركت بقصّة عنوانها "لماذا مات يوسف النجّار" ستكون عنواناً لمجموعتي القصصية الأولى بعد ذلك بسنتين. حين ألقيت قصّتي في مقصف الأزروني المركزي بجامعة دمشق، شعرت بتقبّل جميل من الحضور. كانت القصة حول مدرّس رسمٍ يعلّم أطفال قرية رسم السكاكين بدلاً عن الأزهار، فيحاول رئيس الشرطة أن يثنيه عن ذلك، وحين يفشل يقتله. بعد أن ألقيت قصتي، نهض إلى المنصة شاب أسمر نحيل، أجعد الشعر، بعينين سوداوين حالمتين، يتنهد؛ فتخرج من صدره زفرات طويلة متقطعة، تنبئ عن حزن دفين. ألقى حسان قصيدة بعنوان "الغزال الاسكندراني والحواة." وكانت شيئاً جديداً بالفعل، في تركيبة الجملة الشعرية وتدفق الصور الغريبة. ولا ينبغي أن تحب شعر حسان عزت لتعترف أنه نسيج وحده في الشعر، لم يقلّد أحداً ولم يستطع أحد أن يلده.

لجنة تحكيم القصة تألفت من القاصّين العظيمين زكريا تامر وسعيد حورانية. لجنة تحكيم الشعر تألفت من الشعراء علي الجندي ومحمد عمران وفايز خضور. يوم إعلان نتائج المسابقة، ذهبتُ إلى الإيتوال. لم أكن أرغب في حضور الاحتفال لأنني كنت واثقاً من أنه لن يكون لي مكان بين الفائزين، وبين المشاركين قصّاصون معروفون، بينهم القاص الفاتن

عادل حديدي. في المقهى، رأيت عدنان، صديقي الذي أقنعني أساساً بالمشاركة. قال لي: "وماذا ستخسر؟ تعال نتسلَّ!" وهزّ هائل برأسه موافقاً. ذهبنا معاً، وجلست في آخر القاعة. سعيد حورانية أعلن النتائج، وكانت القصة الفائزة بالمرتبة الأولى قصة "لماذا مات يوسف النجار"، وحلّ عادل حديدي ثانياً. فيما بعد توطدت علاقتي بعادل، وصرنا زبونين مداومين في مطعم الريّس قبل إغلاقه، ولكن يومها لم يتلقّ عادل النتيجة بروح رياضية. في الشعر، فاز حسّان عزت، ولم يكن فوزه مفاجأة. تسلّم كلّ منا هديته: علبة من الموزاييك فيها لوحة نحاسية مكتوب عليها اسم الفائز والتاريخ. خرجت من مقصف الأزروني صحبة صديقي عدنان، وكنت ثملاً قليلاً بالفوز، وكانت نسمات آذارية منعشة تلفح وجهينا. سمعت أحدهم ينادي اسمي: "وائل!" التفت. كان حسان، يسير صوبي مسرعاً وبيده علبة الموزاييك. ابتسم وقال: "هناك خطأ في العلب. أعطوني علبتك ويبدو أن علبتي معك." فتحت العلبة فوجدت اسم حسّان عليها. ضحكنا. تبادلنا العلبتين. ولوّحت مودعاً، ولكنّ حسان قال: "شو رأيك بقهوة في بيتي." اكتشفت أن بيته يبعد عن بيتي الذي أسكنه خمسين متراً فحسب. وفنجان القهوة ذاك كان مفتاحاً لعالم من الثراء والمودة والصحبة الجميلة. وحين طُلبت من قبل مخابرات أمن الدولة لاحقاً، وكان عليّ أن أتخفى، كتب حسّان قصيدة أسماها "مزمور العاشق واو" وأهداها لي. ثمّ بعد اعتقالي لحّنها وغنّاها الصديق سميح شقير، وحين أطلق سراحي، غناها في سهرة ضمتنا وثلّة كبيرة من الصحب:

كيفَ خلّفتَ وعودَ "الصالحيّة"؟

أينَ خبّأتَ زهورَ الياسمين

وتباعدتَ عن الصَحْبِ قليلاً

وعشِقتَ البندقيةْ

واستثارتك أحاديثُ الشجر

وتعابيرُ القُرُنْفُلِ

أينَ خبّأت الطفولة

أين خبّأت العناقاتِ الطويلة؟

دمشقُ قد تمشي مع من يشاءْ

وقد تعطي جسدها لمن يشاءْ

إلاّ حُبَّها

فهو للعاشق "واو"

***

بعد أيام قليلة، لمحت حسّان في الجامعة، وكان برفقة شاب أشقر وسيم، حيي، لعينيه زرقة يشتهيها البحر وليديه أصابع تشتهيها الحسان، بضحكة فاتنة وشقاوة أليفة. ناداني حسّان:

"أريد أن أعرفك إلى صديقي."

وقدّمنا واحدنا للآخر: "جميل حتمل" قال.

ومنذ أن انغلقت يدانا على أول مصافحة ذاك المساء، اشتبكنا، جميل وأنا، في أغرب وأجمل وأهم صداقة في حياتي. لم أعرف وقتها أنني وجميل سنغدو روحاً واحدة، روحاً مضطربة، قلقة، متيقّظة دائماً، ومتألّمة، ولكنها واحدة. كان جميل يومها -لسبب ما- لا يزال في سنته

الأخيرة في الثانوية، ولكنه كان قد قرأ تشيخوف، دوستويفسكي وزكريا تامر وحيدر حيدر ومحمود درويش وأدونيس ويوسف إدريس ونجيب محفوظ ولوركا وناظم حكمت وشعراء وروائيين ومفكرين آخرين لا تحضرني أسماؤهم. كان شعلة من لهب تسعى على قدمين، لا يستطيع الجلوس كثيراً، وإن جلس تقدّم إلى مقدمة الكرسي، كأنه يخشى أن يرتاح. قلت له مرّة: "أنت حلمك أن تكتب قصة من صفحتين." كنت أحاول أن أغيظه. جميل كان يكتب قصصاً مقتصدة في الطول، ولكنها مدهشة. ولطالما تساءلت: من أين يأتي بالفكرة.

"قال الولد لرفيقه: أترى تلك الحديقة وذلك البيت وهذه السيارة الجميلة؟ إنها جميعاً لنا. أجابه صديقه: أترى ذلك البحر وتلك السماء وهذه الأشجار؟ إنها جميعاً لنا." إلى هنا والحكاية عادية جداً، ولكن جميل يصعقنا بجملة النهاية، إذ يُضيف "وكان يعرف جيّداً أنه يكذب."

كنت أغار دوماً من جميل، فقد كان لديه أجمل الأشياء: أحلى القصص وأفضل الأصدقاء وأوسع العلاقات وأجمل النساء! وحتى آخر نصّ كتبه في باريس، كنت أسأل نفسي: كيف استطاع أن يكتبه. على عكسنا جميعاً، لم يتذبذب فنّ جميل صعوداً وهبوطاً، كان كلّ نص أعلى من سابقه. وحين كتب آخر مجموعة له في باريس، قصص المرض... قصص الجنون، حين كان يعاني سكرات الموت الأخيرة، حلّق في فضاء لم يسبقه إليه أحد من الكتّاب السوريين، وتناول قضايا الموت والوحدة والانتحار، برهافة وحساسية نادرتين. يومها أيضاً سألت نفسي: "من أين يأتي بهذا الصدق؟" وهو كان أصدقنا بلا استثناء. كان ينتمي إلى أولئك الذين لا يعرفون المداهنة ولا المراوغة ولا الحلول الوسط. في يوم كان يردف حسّان على متن روزينانتي، وقد خرجا من معرض للرسّام التشكيلي التجريدي الحمصي مصطفى بستنجي، حين خطر له أن يسأل حسّان:

"ما رأيك بالمعرض؟."

حاول حسّان أن يبدي إعجابه باللوحات، بيد أنه أحس بيدي جميل القابضتين على خصره حذر السقوط عن الدرّاجة تتشنّجان، وسمعه يقول:

"توقف لو سمحت."

وحسّان الذي لم يعرف ما الحكاية، أوقف درّاجته عند الرصيف (وكان في تلك الأثناء ثمّة أرصفة في الشام)، وراح يتطلّع إلى جميل وهو يبتعد خطوات عنه، ثم يستدير ويقول له قبل أن يشرد بعيداً: "أنت لست صديقي!" لم أعد أتذكر الآن إن التقينا ليلة ذاك أو في الليلة التي بعدها، على أن حسّان وجميل ما انفكّا صديقين حتى رحيل جميل المبكر.

كان جميل عليلاً منذ طفولته. شيء ما في قلبه لم يكن طبيعياً. لا أدري ما هو، فلم يكن لدينا الوقت لنسأل عن أمراضنا. كنا مهووسين بالحياة، مسكونين بالبحث عن الحقيقة، ملوّثين بالثورة والقَصَص والشعر والنساء. وكان جميل قريباً من جوّ الحلقات الماركسية ورابطة العمل الشيوعي منذ البداية، وهو كان الصديق الشخصي للفنان الجميل يوسف عبدلكي وثلّة أخرى من مؤسسي رابطة العمل. كان يعتبر نفسه جزءًا من الرابطة، وقد ظلّ التعبير الأصيل عن روح الرابطة الأصيل حتى رحيله، بيد أن الرفاق كانوا يرفضون أن يدخل في التنظيم بسبب مرضه. كانوا يخافون عليه من لحظة الاعتقال. وكان هو حزيناً جدّاً لذلك الإقصاء. مع يوسف عبدلكي (وكان عضواً في لجنة منطقية دمشق)، دار حوار طويل حول جميل. قلت له إن وجود جميل خارج الرابطة صعب عليه وخسارة لنا. وقلت له كم من رجل صنديد انهار تحت التعذيب وأن المرض ليس مبرراً للخوف على جميل. أخيراً، قُبِل جميل في الرابطة كرفيق، وبقي فيها (أم بقيتُ فيه؟) حتى آخر يوم في حياته.

في 1981 اعتقل جميل لبضعة أشهر، وانهارت صحّته هناك فوراً، والنظام خشي أن يموت في السجن بسبب مرضه، فأطلق سراحه، وسافر مباشرة إلى باريس للعلاج، وبقي هناك أكثر من عقد، وهو يشعر في كلّ يوم بالغربة تكبر حتى تطبق على صدره وقلبه وتضيّق شرايينه وتجعل كآبته تزيد يوماً إثر يوم. لم يحبّ باريس كثيراً، ليس لأنها باريس، ولكن لأنها لم تكن دمشق. كتب لي في 1991، بعد أيام من خروجي من السجن: "كم أتمنى لو أكون هناك الآن، ولو على حافّة الموت، لو أكون وأدقّ الباب عليك أو على إبراهيم (صموئيل) أو على علي (الكردي) أو سحبان (سواح) أو... لأقول لكم أريد أن أسهر."

كان قد انفصل عن حبيبة عمره وأم ولده قبل اعتقاله بسنة، وسبّب ذلك ألماً كبيراً له. لكي يحصلا على الطلاق من المحكمة الروحية الكاثوليكية، كان لا بدّ من قطع مسار شائك ومعقّد وملتوٍ. ونجوى كانت امرأة مليئة بالحياة والصخب والعاطفة. وخسارتها كانت ضربة موجعة له. حاولتُ مرّة ومرّة، وحاول كلّ الأصدقاء، أن نرأب الصدع، فما استطعنا.

في باريس عاش في شارع La rue de l'Abbé-Groult في الدائرة الخامسة عشرة. شقة مساحتها 35 متراً. وكان يعمل مراسلاً لجريدة القدس العربي التي خانته كما خانت غيره أيام صاحبها عبد الباري عطوان، بمرتّب لا يكاد يسدّ رمقه. بقي أربعة عشر شهراً من دون راتب ومن دون أن يكلّف عطوان نفسه الاتصال به للسؤال عن صحته. "الآن، يا أبو المجد (اسمي الحركي في رابطة العمل)، سأتوقّف لكي أبحث عن كأس. فلم يعد عندي شيء، وليس معي نقود لأشتري. قد أجد جرعة كونياك. سآخذها لأزيد هذا "الفرح" الغامر الذي أنا فيه." ومن الـ 35 متراً، كان غالباً ما يذهب إلى المشفى للعلاج: صمّام، عملية، إسعاف لعضلة القلب. "كم بتّ أكره المشافي والقلوب المعطوبة وغرف العناية

المشدّدة وغرف التحقيق. كم بتّ أكره هذه الوحدة القدرية التي تستبدّ بي، والتي تجعلني لا أنام، ولا أفيق – ربما." ثمّ يعود إلى الـ 35 متراً مربعاً من اليأس والوحدة. "بعد ساعتين سأخرج. سأخلع قميص المرض الأصفر، وأذهب إلى الـ 35 متراً من الغبار، بيتي، ومعي دفتر جديد بيّضت عليه قصصاً جديدة... كأنّ الكتابة حارستي حين لا حارس. أكتب وأسخر من نفسي، وأقول: ما الجدوى؟ أعرف أنك تعزّيني حين تحدثّني في رسالتك الأخيرة عن كتابتي. كُ... أخت الكتابة، والعالم، والإخلاص، و... أخت هذه الدنيا المثقوبة، المجوّفة، الـ... تخيّل: لو لم يأتِ أمس بسّام وفادية، مع باقة ورد حمراء، لم أرَ خلال أسبوعين أحداً من الحرس القديم، باستثناء صديق العمر يوسف، وهالة التي تكبّدت حمل طفلتها الحلوة ليلى وجاءت. ولأول مرة يا أبو المجد أشعر ما معنى المرض، وما معنى أن تكون وحيداً. لا أحد يمسح عرق جبينك، ولا أحد -صباحاً- يقول لك: حبيبي، صباح الخير."

الإخلاص! كان جميل قد تعرف على رالة، سيّدة جميلة من أسرة سورية عريقة. أحبها، بكلّ الجنون الخاص به. وأحبّته، كما لاحظنا جميعاً، بصدق. بيد أن العلاقة تدهورت حين لم تعد رالة تتحمّل تصرفاته وحساسيته وتعلّقه المرضي بسوريا. وحين تخلّت عنه أخيراً، تزوجت أحد الرجال السوريين الذين لم يكنّ لهم ودّاً ولا احتراماً، شخص "يفوقني بأن معه مصاري، ومُسلم، ولديه جنسية..."

علاقتي بجميل بدأت بشجار وانتهت بشجار. في أول لقاء لنا في 1976، في بيت حسّان عزّت، اختلفنا حول أوّل قصّة قرأها لي، وفي آخر لقاء لنا في باريس، 1992، تشاجرنا حول آخر قصّة قرأها لي. كنت قد غيّرتني سنوات السجن، فخففت من ثوريتي وعزّزت لدي مسألة الفرد، ودارت معظم قصصي التي كتبتها في السجن عن الإنسان الفرد، وليس عن الطبقة والمجتمع والثورة. جميل، الذي لا تغيّره ظروف ولا أحوال ولا

غربة ولا سفر كان لا يزال يعتقد أن الثورة القادمة هي الثورة الاشتراكية، وأن لا بديل عن تحطيم البرجوازية وإقامة دولة العمال. في إحدى عربات الميترو، اختلفنا وارتفع صوتنا. اتّهمني بالغرور وعدم الرغبة في رؤية ما حولي، واتّهمته بالتثبيت على حقبة من الماضي، لا يريد عنها حياداً. ورمَقَنا من حولَنا: فرنسيون وآسيويون وأفارقه وعرب، فصمتنا. وحين توقف القطار في المحطّة التالية نزلت بصمتٍ مكسور، والتفت إليه وهو يحدّق بي من زجاج نافذة العربة، وهو يبتعد مع القطار. "أتذكّر الآن نزولك من المترو ووداعنا الصامت. كأن عليّ أن أعيش هذه الوداعات مسلسلاً لا ينتهي، ولا بطولات فيه."

يقول الكاتب عبد الرحمن منيف، في تقديمه للأعمال الكاملة لجميل التي طبعت بعد رحيله: "جميل أميرٌ للحزن، حزنه وحزن الآخرين، نبرة الصوت، نظرات العيون، وذلك الشجن الذي يلازمه كظله، ما قدمه من كتابة شهادة على العصر العربي الصعب، ولو أسعفه الحب؛ لربما استطاع أن يعيش فترة إضافية وأن يكتب، لكنّ الرياح سارت باتجاه آخر، مات جميل، وهو ينتظر الطائر الأزرق، ويتوقع وصوله، ولعل الطائر لا يتأخر أكثر مما فعل، لأن الكثيرين ينتظرون أيضًا".

في آخر زيارة له في المشفى، طلب من صديقة عمره هالة العبد الله أن تحضر له صحناً من الحمّص، وحين كانت تهمّ بالخروج ناداها صائحاً بصوت ضعيف: "هيه، لا تنسي الكمّون." ولكنه دخل في الغيبوبة قبل أن يذوق ذلك الحمّص بالكمّون، ثم رحل بعد أيام.

عاد جميل إلى الشام في صندوق مغلق. كنا في انتظاره جميعاً. كان حزن شفيف يغلفنا جميعاً بأسىً وفجيعة وغصّة في الحلق. وفي جنازته، طفنا به كصوفيين يطوفون حول سرّ الصوفية.

وحين خرجت من دمشق في صيف 2012، حملت حقيبة واحدة، فيها

بعض الملابس وبعض الكتب، ورسائل جميل حتمل، ومسودّة روايته الوحيدة التي كتبها ولم ترَ طريقها إلى النشر، لأنه رحل قبل أن يراجعها. لم أحمل قصصي التي لا تزال إلى اليوم مركونة في درج ما من بيتي في دمشق، ولكنني حملت رسائله، كأنني أرفض أن أعترف أن ما مضى قد مضى، وأن جميل قد مات فعلاً.

***

صراع ماركس ولينين في قبو معتم بحلب

متى تعرّفتُ إلى مظفر النوّاب؟ تفلت هذه الذكرى مني دائماً. أيكون بعد الأمسية النارية التي أحياها في مدرّج جامعة دمشق سنة 1974، فألهب بها السوريين كما كان يفعل بقصائده وإلقائه المسرحي الفاتن؟ أيكون عبر الصديق محمد عنتبلي، الصديق القديم والوفي لمظفر؟ أم أن صديقي الشيوعي العراقي العتيق صالح الكردي هو من عرفني عليه؟ لا أجزم. ولكنني أجزم أن علاقتي به توطّدت إثر عودتي من حمص في خريف 1975. ولعلّ سبب ذلك أنني في أحد لقاءاتنا قلت له إنني أحب شتائمه، ولكني مولع أكثر بقصائده الوجدانية ومطالع قصائده أكثر؛ أحب "القدس عروس عروبتكم، فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها؟" ولكنّي أحب أكثر:

ألقيت مفاتيحي في دجلة

أيام الوجد وما عاد هنالك

في الغربة مفتاح يفتحني

ها أندا أتكلم من قفلي

من أُقفل بالوجد وضاع على أرصفة الشام سيفهمني.

وافقني مظفر وقتها، بصمت، ومن دون أن يجيب، ولكنه في مناسبة أخرى، قال لي إن كتابة المقاطع الصارخة من قصائده أيسر بكثير من سكب قلبه في قالب على الورق.

عرّفني مظفر على عالم من القلق المرعب الجميل، عن طريقه عرفت أميرة وسوسن شيحا (شقيقتي غياث شيحا الذي كان أعدم قبل أشهر لانتمائه إلى المنظمة الشيوعية العربية)، وعن طريقه عرفت سوسن العابد، الصبية السمراء النحيلة التي تحمل في سواد عينيها عالماً من الأسرار لا قاع له، وعرفني على فاطمة اللاذقاني التي ستصبح بعد عامين زوجتي لمدّة عامين، وستعرف أكثر باسم فادية. وانضمّ إلينا جميل حتمل ونجوى بشور، ومحمد عنتبلي، فيما سيشبه أخوية سرّية، مغلّفة بصوفية شعرية وحسّية، ستأخذنا إلى بساتين حسّان عزّت في الغوطة، وإلى الفج العتيق الذي عمره مليون سنة في معلولا، ولكنها أخذتنا أيضاً إلى سراديبَ وكهوفٍ في دواخلنا بدأنا نستكشفها شيئاً فشيئاً، وندهش في كلّ مرّة نكتشف فيها سرّاً جدياً أو رغبة نائمة.

ولكن مظفر عرّفني أيضاً على الثورة بمعناها الحقيقي. كان يروي لنا تجربته في العراق واعتقاله وتعذيبه ثم هروبه الأسطوري من السجن، فنفغر أفواهنا، في رهبة وإعجاب وتأمل. وعرفني مظفر على تجربة الحزب الشيوعي العراقي – القيادة المركزية، الذي انشقّ عن التيار الرئيسي (الانتهازي للحزب) وقاد ثورة في أهوار العراق، التي انتهت بمذبحة كبيرة واعتقال قائد الحزب عزيز الحاج وانهياره التاريخي.

في هذه الأثناء، كانت الأمور تتعقد في سوريا. الحلقات الماركسية التي كانت عقدت اجتماعها الثاني في نهاية 1975، بدأت تنشط بشكل منظم. وصبّت اهتمامها على صياغة استراتيجية العمل المشترك، وكلّف أصلان عبد الكريم وهيثم العودات وأحمد جمول ومحمد المعمار بكتابة الجزء الأكبر من هذه الاستراتيجية، التي صدرت فيما بعض في

عشر كراسات صغيرة حملت العناوين التالية:

1. ملامح الصراع الطبقي على المستوى العالمي.
2. الأممية والحركة الشيوعية العالمية
3. العنف الثوري وأشكال الانتقال إلى الاشتراكية.
4. الثورة العربية والحزب الشيوعي العربي.
5. الوحدة العربية والقضية القومية.
6. القضية الفلسطينية.
7. البورجوازية الصغيرة والسلطة السورية.
8. الجبهة والتحالفات.
9. الطبقة العاملة السورية.
10. الحركة الشيوعية المحلية.

كانت الاستراتيجية التي عملت عليها الحلقات الماركسية بين الاجتماع الثاني والثالث تتدرّج من العام إلى الخاص، من لوحة الصراع الطبقي العالمية إلى الحركة الشيوعية السورية والحزب الشيوعي المنشود، مروراً بموضوعات الأممية والوحدة العربية والقضية الفلسطينية وحال الطبقة العاملة والسلطة في سوريا.

لم يكن شباب الحلقات الماركسية يفكرون في الإعلان عن أنفسهم كتنظيم، ولكنّ بينهم من أراد أن يشعر الشارع السياسي السوري بوجود حركة جديدة مختلفة قادمة، فأصدروا أولاً بياناً بعنوان "الحرية لجميع المعتقلين السياسيين في سوريا"، كان، ربما، أول بيان يتحدث عن جميع

المعتقلين السياسيين بغض الطرف عن اتجاهاتهم السياسية أو الإيديولوجية، معتقلين مثل عقل قربان، اللغز الذي لا نعرف كيف اعتقل وما الذي جرى معه في السجن تماماً فجعله يفقد عقله، ونور الدين الأتاسي وصلاح جديد وزملائهما من رفاق حافظ الأسد القدامى الذين زجّ بهم في السجن بعد انقلابة في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1970، ومروان حديد، الإسلامي المتشدد وقائد انتفاضة حماة الإخوانية في عام 1964، بعيد استلام حزب البعث مقاليد الأمور في سوريا. صاغ البيان هيثم العودات وعباس عباس، وطبعاه في مدرسة ابتدائية، كانت والدة هيثم تعمل فيها كمدرّسة، لأن الحلقات لم يكن لديها طابعة وقتئذ. ونُشِر البيان، الذي انتقد الاعتقال السياسي وأدان التعذيب وطالب بإطلاق سراح جميع معتقلي الرأي والضمير والمعتقلين السياسيين، غفلا عن التوقيع، أولاً، لأن الحلقات لم تكن أخذت اسما بعد، وثانياً، لأن البيان كان نوعاً من اختبار الأرض للحركة القادمة. شارك مناضلون سوريون وفلسطينيون في نشر البيان الذي لقي ترحيباً واسعاً في أوساط أسر المعتقلين وطلاب الجامعات ودوائر سياسية معارضة واسعة. ومع البيان، راح السؤال يدور عمّن وراء إصداره.

الخطوة الثانية التي قام بها ناشطو الحلقات الماركسية كانت إصدار نشرة غير دورية باسم "أول أيار"، التي جاءت نقلة من الحقل الدعاوي الذي كان جزءًا من ناشطي الحلقات يريدون البقاء فيه، إلى التحريض السياسي. ولأول مرّة منذ عقود، بدأ السوري العادي يقرأ عبارات مثل الدكتاتورية والثورة والقمع والاضطهاد، بأسلوب بسيط يستطيع الجميع فهمه ومتابعته.

ولم يكن جميع أعضاء الحلقات موافقين عل هذه النقلة، فبالنسبة إليهم، الحلقات لم تكن بديلاً سياسياً وإنما قاطرة لخلق حزب شيوعي سوري بديل، "يقود الطبقة العاملة السورية في نضالها السياسي"، وكان

رهان الحلقات وقتها هو أن يكون تيار المكتب السياسي الذي يقوده المناضل العتيق رياض الترك نواة هذا الحزب الثوري الجديد. نتج عن توزيع بيان المعتقلين ونشرة أول أيار أن عدداً من رموز الحلقات انسحبوا منها.

وفي الوقت عينه، كانت الأوضاع في لبنان تتطوّر بسرعة. في 13 نيسان/بريل 1975، اندلعت الشرارة الأولى للحرب الأهلية في لبنان، حيث وقعت محاولة لاغتيال رئيس الكتائب اللبنانية بيير الجميل، في كنيسة "سيدة الخلاص" بعين الرمانة شرقي بيروت. وردّ الكتائبيون بمهاجمة الحافلة الشهيرة التي كانت تقلّ 27 شاباً من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كانوا يمرّون من نفس الحي، فقتلوهم جميعاً في عملية بربرية. حافلة عين الرمّانة كانت شرارة الحرب الأهلية التي استمرت حتى 1990، وربما لغاية اليوم. وقسّمت الحرب اللبنانيين طائفياً بين مسلمين ومسيحيين، وسياسياً بين "تقدميين" و"انعزاليين". وكان النصر في الأشهر الأولى من نصيب الحركة الوطنية اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية.

في سوريا، كنا نتابع انتصارات الحركة الوطنية بحماس منقطع النظير. واستعرنا من "عمّان" اسم "هانوي العرب" فأطلقناه على بيروت، وتوجّنا كمال جنبلاط زعيماً للثورة العربية، وعلى الرغم من خلافنا "الطبقي" مع أبو عمّار، الذي كنا نعتبره ممثلاً للبورجوازية الفلسطينية، إلا أننا قبلنا بقيادته للحرب في لبنان. كانت الحرب بالنسبة لنا تجسيداً للصراع الطبقي بين معسكر الثورة ومعسكر الثورة المضادة، وسافر بعضنا إلى لبنان للمشاركة في القتال، وقتل عدد منهم.

النظام "الوطني التقدّمي" في دمشق كان أكثر الأطراف قلقاً من انتصارات التقدميين اللبنانيين، فاستغلّ طلب الرئيس اللبناني الذي انتخب لتوّه، سليمان فرنجية، من سوريا بالتدخل. دخلت القوات السورية لبنان

واحتلت طرابلس وسهل البقاع متفوقة بسهولة على قوات الحركة الوطنية اللبنانية والميليشيات الفلسطينية، ثم ارتكبت في 12 آب / أغسطس 1976 إحدى أبشع المجازر ضدّ الفلسطينيين في مخيّم تل الزعتر، وقتل في المجزرة آلاف الفلسطينيين.

ردّ فعلنا في الحلقات الماركسية كان بدء التحريض ضدّ التدخل السوري في لبنان، وقد أصدرنا بيانين مهمين: الأول كان "على الجميع أن يعرف ماذا جرى ويجري في لبنان" أما الثاني فحمل عنوان "يا حكّام سوريا ارفعوا أيديكم عن لبنان".

تطور الأحداث اللبنانية وانتصارات الحركة الوطنية أولاً، ثمّ قرار حافظ الأسد التدخل في لبنان لقمع الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية، دفع بنا إلى الإسراع في تحويل الحلقات الماركسية إلى تنظيم سياسي: رابطة العمل الشيوعي.

واجتمع أربعة وعشرون مندوباً عن الحلقات الماركسية في قبو معتم بمدينة حلب في 28 آب/أغسطس 1976، لم يتجاوز معظمهم الثلاثين من العمر. وناقشوا على امتداد ثلاثة أيام ضرورة ولادة تنظيم سياسي جديد يكون رافداً للحركة الوطنية اللبنانية وداعما لها ويعبّر عن صوت السوريين الرافض لموقف حكومتهم.

ودار خلاف بين المجتمعين حول النظام الداخلي للرابطة، بين من يؤيد نظرية لينين في أن الحزب الثوري هو جريدة ودزينة من الثوريين المنضبطين، ورأي ماركس في عصبة الشيوعيين التي اعتمدت الديمقراطية وحرية التعبير. وانتصر نظام داخلي أقرب لرؤية ماركس الشاب؛ لدرجة أن التنظيم لم يعرف منصب الأمين العام أو الأمين الأول أو رئيس الحزب، بل كانت قيادة الرابطة دوماً قيادة جماعية.

لماذا رابطة العمل الشيوعي؟ هذا السؤال طرحه أحمد جمّول في كراسة

بالعنوان نفسه، سجّل فيها الأسباب التي دفعتنا إلى الانتقال من الحلقات إلى التنظيم، ومن العمل الدعاوي إلى النشاط السياسي. بين هذه الأسباب التطورات اللبنانية والتدخل السوري، ومن بينها انهيار الحوار بين الحلقات الماركسية والحزب الشيوعي المكتب السياسي، وقناعة أعضاء الحلقات أن المكتب السياسي ليس ناضجاً بعد ليكون نواة الحزب الشيوعي الموحّد، خاصّة وأنه كان لا يزال يلتزم بمقررات مؤتمر الرابع وبمقولة التطور اللارأسمالي.

أما لماذا رابطة وليس حزباً، فالجواب أننا في رابطة العمل لم نعتبر أنفسنا حزباً بديلاً عن القوى الشيوعية القائمة. كنا نعتقد أن في كلّ بلد يجب أن يكون هنالك حزب واحد يمثل الطبقة العاملة الموحّدة، ولذلك، بينما أعلنا عن أنفسنا كتنظيم، فقد كنا لا نزال نعتبر أن هدفنا الرئيس هو توحيد القوى الشيوعية السورية جميعها في حزب شيوعي واحد. وكنا نراهن على الحزب الشيوعي – المكتب السياسي ورابطتنا وقواعد الحزب الشيوعي البكداشي التي لا توافق على الخط المنحرف لزعيمها.

ومع ذلك فقد كان بيننا من لم يرد تحول الحلقات إلى تنظيم والانتقال من العمل التثقيفي الدعاوي إلى النشاط السياسي فآثر الابتعاد ولم يتابع في مسيرة التنظيم الوليد.

بعد الاجتماع الموسّع، جلسنا أحمد جمّول ووفاء تقي الدين وأنا في ملحقهما في حي الروضة. كنت في أوج حماسي وألَقِي، أحسب أن الثورة باتت قاب قوسين، وربما أدنى بقليل. لم يشاركني أحمد توهّجي. كنا نرشف رشفات خفيفة من العرق الأغبش في مساء أيلولي شفيف.

"ما بك؟" سألت أحمد، مستغرباً صمته وسكونه.

نظر إليّ برهة، ثمّ قال: "لست أدري يا صديقي... لست متأكداً من أننا لم نستعجل."

بعد عامين، سيتأكد أحمد أننا استعجلنا، عندما قرر أن ينسحب من التنظيم ويسافر إلى بيروت، حيث بقي حتى الغزو الإسرائيلي للبنان في 1982، غادر بعدها إلى الجزائر، حيث مات، أغلب الظن مقهوراً ومحروماً من المساءات الأيلولية الحزينة في دمشق.

***

ليس سهلاً أن يسكنك شاعر ضلّيل

كنا نجلس في مهجعنا في سجن تدمر نهاية شهر تشرين الثاني / نوفمبر من عام 1982، عندما وصلتنا قصاصة من جريدة سورية، تهافتنا عليها، نستطلع الأحرف كتميمة سحرية. كان فيها أخبار عن القطاع العام والحركة التصحيحية وفلسطين والإمبريالية والمنجزات الاشتراكية. وفي إحدى زواياها نعي لرجل كان يضج بالحياة أكثر من الحياة، ويعيش في الموت أكثر من الموت، ويكتب شعراً لا يشبه الشعر لأنه هو الشعر. مات رياض الصالح الحسين. لا أذكر إن كنت قد بكيت وقتها، أم أنني خجلت بسبب وجودي مع أربعين رجلاً آخر في مستطيل مساحته عشرون متراً، نتأمل أيدينا ونسقط في الفضيلة الآثمة والإثم الفاضل. ولكنني أذكر أنني انسحبت من مجموع الرفاق، وجلست مع نفسي أسترجع تركيب قصيدته التي أحبها أكثر من غيرها، خراب الدورة الدموية. أسترجعها شطراً... شطراً، وكلمة... كلمة:

استقلّي باص جسده

أو انتظريه في المحطة التالية

فهو الآن متهم لأنه قتيل

ومتهم بتخريب الدورة الدموية

القبلة الأولى رصاصة

الطلقة الأخيرة حب

حكايتي مع رياض حكاية فاتنة لجيل جميل، جيل انبثق في سبعينات القرن الفائت كما تنبثق سوسنة في جرد، جيل لم ينبت كسنبلة ولكنْ انطلق كرصاصة، سوى أنه، أيضاً، انطفأ كرصاصة.

حكاية رياض لا تنفصل عن حكاية سبعة فرسان، شكلوا معاً ظاهرة صغيرة ومتواضعة في سبعينات القرن الماضي، ولكنها مع ذلك ذات دلالة: جميل حتمل، حسان عزت، بشير البكر، رياض الصالح الحسين، فرج بيرقدار، خالد درويش، فادية اللاذقاني، وأنا. من هؤلاء الفرسان، مات اثنان وهاجر ستة: مات جميل حتمل في مغتربه القسري بباريس، ومات رياض الصالح الحسين في مغتربه الطوعي بدمشق، وهاجر بشير إلى بيروت، ليستقرّ فيما بعد في باريس، يعيش قصيدته في كلّ يوم ويكتب حياته قصيدة دائمة، قبل أن ينتقل إلى لندن رئيساً لتحرير العربي الجديد. وهاجر حسّان إلى الإمارات بحثاً عن عمل، لأن بلده لم يزوّده بأكثر من مكتب في جريدة بائسة. فرج بيرقدار هاجر أولاً إلى السجن، ليمضي فيه أربع عشرة سنة، قبل أن يطلق سراحه، فيترك البلاد إلى السويد، ليصبح رمزاً سورياً جميلاً. فادية اللاذقاني أيضاً اعتقلت نيّفاً وثلاث سنوات، لتخرج بعدها إلى باريس، تشفي المكتئبين والقلقين والفصاميين، ولا تعود إلا مرتين أو ثلاثاً، إحداها لتودّع أمّها، وأخرى لتستقبل شقيقاً لها خرج أيضاً من سجن طويل، ثمّ انغمست في عيش شفيف، تسكنها ذكرى أخيها الآخر الذي أعدم في السجن من دون أن ترى جثمانه، فتدفنه، وتدفن معه حزنها المقيم. خالد درويش هاجر إلى فلسطين، بلده الأصلي، حيث يقضم في رام الله اليوم الشعر والسياسة والبرتقال. وبقيت وحدي، كمقهى صيفي ليلة رأس السنة، كورقة صفراء سقطت عن شجرة ولم تستطع أن تصبح سماداً لها، إلى

أن دفعت بي باقيات الأيام إلى وطن جديد.

في ذات مساء ربيعي فاتن من مساءات 1977، اقتحم رياض غالمي، ولم يغادره حتى اللحظة. ليس سهلاً أن يسكنك شاعر ضليل، فيه من القلق ما يسحق مائة فرس برية، ومن الحب ما يغرق مائة امرأة، ومن الكرامة ما يجعلك تشعر بالضآلة والخجل. أحضره بشير البكر، شاعر ضليل آخر وفاسق جميل، ينظر إلى الكون كلّه من علٍ، ويتسكع في شوارع بيروت وباريس ولندن، وقال لنا هو ذا شاعر. وكان الأجدر به أن يقول هي ذي قصيدة، هي ذي قذيفة. كنا في منزل حسان عزت، نحضّر عدداً جديداً من الكراس.

كنا حسان وجميل وبشير وفادية اللاذقاني وأنا، نصدر كراسة أدبية شهرية، للكتابة غير الرسمية. قلنا: نريدها كتابة خارج النص وخارج القوانين وخارج الصحافة الرسمية. وكنا نطبعها على الآلة الكاتبة، ثم نصورها على الورق الحساس (جستتنر) ثم نطبعها، ونجمع الأوراق سوية ونخرزها، وننطلق إلى الجامعة ومقاهي الأدباء والشوارع؛ لنبيعها بليرة سورية واحدة. انضمّ إلى مغامرتنا لاحقاً فرج بيرقدار ورياض الصالح الحسين وخالد درويش. وكتب معنا ممدوح عدوان وعلي الجندي وفرج بيرقدار ومحمود شاهين وخالد درويش، ورسم معنا يوسف عبدلكي وسعد يكن وألفريد حتمل، وقرأنا كلُّ من كان مهتماً، وقلبه علينا، خوفاً من زنزانة طائشة قد تصيبنا. وقد أصابت رياض بالفعل، حيث اعتقل لبضعة أسابيع، وحقق معه في شكل الكراس ومحتواه، ثمّ أصابت خالد درويش وفرج بيرقدار، فاعتقل الاثنان زمناً.

بشير أيضاً هو من أحضر إلينا خالد درويش، شاعر معبّأ بفلسطين، كما يُعمّر القلب بالحزن. هادئ بغضب دفين تحت جلده وأظافره. اعتقل وعذّب بسبب مشاركته في نشر الكرّاس، وخرج ليعيد التأكيد على الحبّ والحق في الحياة:

حين تكونين معي

بلاداً تصير الحجارة،

الفصولُ مواعيد،

والأصدقاءُ مرايا.

كان هدفنا من الكرّاس الخروج عن سلطة الرقابة وسلطة الشعر التقليدي وسلطة الأحزاب السياسية المهيمنة على الأدب والفن، الأحزاب التي فرضت علينا أيمن أبو شعر شاعراً كبيراً ورائق النقري فيلسوفاً معاصراً. لم تكن الصحافة تنشر قصائدنا وقصصنا، فقلنا، "ننشرها نحن،" وفعلنا، مخلّفين وراءنا موجة نقدية أعطت ما كتبناه حقّه وقتها.

في الكرّاس نشر بشير أجمل قصائده آنذاك، ثمّ جمعها في ديوان أول، وأعطاها لصديق له فنان لكي يصمّم له غلافه، فأضاعها الصديق. وفي الكراس أيضاً، نشر رياض الصالح الحسين أول قصيدة له: خراب الدورة الدموية: وقد أثارت لحظة ظهورها لغطاً حاداً، وانقسم الناس انقساماً حاداً بين مرحب بالقصيدة ورافض لها. فأما المعارضون فقالوا: هذا مهرطق، يصفّ كلماتٍ بجانب كلمات؛ ليكتب شيئاً أشبه بالكفر، وأما المؤيدون فقد اندهشوا بحرارتها وبساطتها ومقدرتها الهائلة على الوضوح المستحيل:

يركض في دهاليزها فرس شوكيّ

يحكّ بقوائمه ظهرها الطافح ببثور الجرب

هي... هي

المدينة-المئذنة

ثمة طاووس وحيد في حديقتها الواسعة

يفرد بزهو ذنبه الملوّن، لينظر إليه

ماسح أحذية ذو عينين حزينتين

ووجه ملطخ بالبويا

امرأة شقراء عيناها جرح ووجهها كآبة

بائع بطاقات يانصيب خاسرة سلفًا

كاتب هذه القصيدة المطرود من عمله

لأنه حاول التأكيد على أن الأرض توقفت عن الدوران،

وأن الأبيض لم يزل أبيض والأسود لم يزل...

لا يشبه هذا الكلام الشعر، لسبب بسيط لأنه هو الشعر، ولا يمكن للشيء أن يشبه ذاته، ولا يمكن للشعر أن يبدو "كأنه" شعر. وهو بالتأكيد لا يشبه شعراً آخر. فعلى عظمة شعراء كبار سبقوا رياض في شكل قريب من القصيدة، كمحمد الماغوط وإسماعيل عامود وحامد بدرخان ونزيه أبو عفش، إلا أن قصيدة رياض تظل مختلفة، تصدمك أكثر لأنها أبسط، وتستهلك مشاعرك أكثر لأنها أصدق، وتكرهها لأنها لا تشبه الشعر، ثم تعشقها لأنها هي الشعر.

كان رياض أصمَّ ولكنه لم يكن أبكم. لا أعني أنه كان يتحدث بطلاقة كسياسي كذاب، في سجال سياسي في فضائية آثمة حول موضوعة لا يقتنع بها هو نفسه، ولكنه لم يكن أبكم. لا أقصد أنه كان يحاضر بشطارة

مثقف يفهم -مثل معظم المثقفين- في كل شيء: في الاقتصاد والذرة والسياسة والأدب والدين وفي الفرق بين المجتمع المدني والمجتمع الأهلي. لا، ولكنه لم يكن أبكم. لا أعني أنه كان يغني كهيفاء وهبي أو علي الديك، ولكنه لم يكن أبكم. فقد كان يقرأ شعره وشعر نزيه أبو عفش وحامد بدرخان وإسماعيل عامود، عندما نكون معاً أو في أمسيات شعرية، وكان يغني أحياناً، يردد أغنيات لفيروز، وكان يحب أن يردد غالباً أغنية "بكتب أسمك يا حبيبي عل الحور العتيق، بتكتب أسمي يا حبيبي عا رمل الطريق" لفيروز، ويسأل: "من يعرف عن ماذا تسأل فيروز في سؤالها: "مازالك بتحبني، ليش دخلك ليش؟" ليش شو؟ كان يسأل، وأجزم أنه رحل عنا من دون أن يعرف الإجابة.

***

وكان عاشقاً كبيراً. لم أر في حياتي من هو أكثر منه عشقاً للنساء، ولكن في الوقت نفسه احتراماً وتقديراً لهن. والمرأة المثلى بالنسبة له هي المرأة "الواسعة"، المرأة التي "من صفصاف وأعشاب نارية"، المرأة "التي ترتدي العاصفة والوحوش"، المرأة "الزرقاء"، والمرأة "الوسيمة" ربما، ولكنه لم يصف المرأة ولا مرة واحدة بالجميلة الفاتنة، لم يصف بإفراطٍ عيني امرأة أو فمها أو نهديها. ولكنه تحدث عن العينين والفم والنهد. تحدث عن النهد: "نهدها غزالة،" وعن الفم الذي "سرق منه وردة،" وعن العينين "اللتين يرعى فيهما عاشق شجراً ومعتقلات،" عن الشَعر الذي "يركض فيه حصان هائج"، ولكنه عندما أراد وصف المرأة التي يحب، قال إنها:

حادة كالشفرة

صلبة كحربة فولاذية تخترق القلب

واسعة كالمحيط

جميلة كالفرح

مضيئة كالضحكة حبيبتي الممتلئة بالأعياد

شهية كرغيف الخبز

طيبة كبرتقالة

المرأة بالنسبة له شريك وصديق وحبيب يقاسمه همومه الصغيرة والكبيرة ورغيف الخبز والحزن والحلم والجنون.

جاءنا مرة وكنا في مقهى الإيتوال (المقهى الجميل الذي كان يستضيف علي خلقي ومظفر النواب وعلي الجندي وممدوح عدوان وزكريا تامر ومصطفى البدوي ونزيه أبو عفش ودعد حداد وليلى نصير... ثم تحول الآن إلى معرض للدراجات الآلية وصبايا الجمال المستعار) جاءنا مرة وقال: أنا عاشق. وحكى لنا كيف أمضى بعد ظهر يوم الأمس مع حبيبته يرعيان الحشيش في الطبيعة كالخواريف. (هذه استعارته وليست استعارتي). وكان وجهه ينقط بِشراً.

كان اسمها سمر: ولا أحسب أنه أحب غيرها. وكثيراً ما رمز لها في شعره بـ "الآنسة س".

حينما كنت صغيراً كغرسة الحمص

وأليفاً كالهرة

سألتني سيارة هرمة

بعد أن لطخت وجهي بالطين:

بماذا ستغتسل في المستقبل؟

آنئذٍ دخلت الآنسة "س"

فتحت لها الباب وهي خائفة

جلست على السرير بانفعال

نظرت إلى زوايا غرفتي كلصة وتنهدت:

علينا أن نأكل كثيراً يا صديقي ونموت

فما عاد في الأرض متسع لنا

قرأت لها قصيدة فبكت

وحدثتني عن الأقفاص النظيفة

حبة برتقال واحدة وسبعة عشر ألف متسول:

ماذا يعني؟

سمر كانت عالمه الصغير. لم تكن عشيقته: كانت سرّه وكذبتَه وقصيدتَه التي لم يكتبْها قطّ. لم تكن امرأته: كانت دفقة الحياة التي يستمد منها عيشه يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة. كانت قضيته وصلاته وموته وبعثه وانتشاره.

من روزا لوكسمبورغ حتى فاطمة برناوي

كان جسد من أحبها معجوناً بالجراثيم

والقنابل الموقوتة

وكان قميص من أحبها مبللاً بالزهور

وأناشيد الرعاة

من روزا لوكسمبورغ حتى فاطمة برناوي

كانت يداها تضيقان... تضيقان

حتى تصبحا بحجم جثة

وعيناها تتسعان... تتسعان

حتى تصبحا بحجم قبلة

***

لم تشغله السياسة. وبينما استهلكتنا نحن، خاصة جميل حتمل وفرج بيرقدار وأنا، تضاريس السياسة وجبالها، لم تكن تعني بالنسبة لرياض شيئاً. أعني بالطبع السياسة بتفاصيلها ودهاليزها وخلافات السياسيين حول أي الأحزاب أفضلها، وصراعات الأحزاب مع بعضها، وصراعها مع السلطة، وتنافسها على كسب المناصرين الجدد. كل ذلك لم يعنِ لرياض شيئاً. ولكنه كان أشدنا اهتماماً بمصير الإنسان، وكرهاً للاستبداد، وتوقاً إلى الانعتاق والتحرر والعدالة والمساواة. لم تستهلكه السياسة الضيقة، الملتوية، المحترقة، الوسخة أحياناً. ولكنه انشغل بالأسئلة الكبيرة عن الظلم والعدل والمحبة والاستلاب.

بعد قليل ستتقدم البذلة الأنيقة

التي تحتوي رجلاً لامعا

لتقدم الهدية

إلى وحش رؤوسه بعدد القارات والمدن والقرى،

وحش لا يملك أوصاف دراكيولا

فأنيابه مهذبة للغاية

ولديه امرأة جميلة ولطيفة

تأكل قلوب الأطفال ببراعة لا عب شطرنج ماهر

وأما هو فيحب الويسكي المثلج

وقزقزة الحبال الصوتية للبلابل

وبينما لم تشغله السياسة، فإن شاغلاً آخر كان يحتل كيانه: الموت. لم أعرف شاعراً حكى عن الموت في هذه السن المبكرة مثل رياض. فبينما كنا نتحدث عن الثورة والتغيير وحكم البروليتاريا، كان رياض يتحدث عن الموت، وبينما كنا نتشاجر حول طبيعة الثورة: هل هي ديمقراطية أم اشتراكية، وعن الفرق بين الديمقراطية البورجوازية والديموقراطية الثورية، كان رياض يتحدث عن القبور:

كانت تقول لي

وأصابعها تتحرك كقطيع من الوعول في شعري:

ألديك غرفة بطول قامتي؟

وهل نافذتها مفتوحة على الشارع أم المقبرة؟

هو نوع من الالتباس ما بين الحب والموت، ليس فيه أثر للخوف أو الرهبة.

زارني الموت

ولم يكن على الرف قهوة

ولأن الموت يحب القهوة مثل جميع الناس

فلقد قلب شفتيه وصفق الباب وراءه

ومضى في قطار العتمة.

كما يغدو الموت عادة يومية أو حدثاً مألوفاً، بل إنه يغدو أيضاً فعلاً تبادلياً مع الحياة.

ها أنذا أقضم أظافري وأفكر بحزن

فليلة السبت لن أستطيع أن أنسل إلى بيت

حبيبتي لألعب معها الورق

ولذا قررت أن أموت لمرة واحدة

بدلاً من الموت سبع مرات في الأسبوع

وبما أنني لا أملك تابوتاً ولا قبراً ولا كفناً

فلقد قررت أن أحيا بعدد الموتى.

لست من أنصار من يقول بالنبوءات، وليس رياض نبياً. إنه شاعر والشاعر الحقيقي هو والعرفان صنوان، فرياض إذن ما كان يتنبأ ولكنه كان يعرف.

عندما جاءني خبر موته، كنت أنا نفسي في مكان يشبه الموت.

مات رياض

ومات جميل

ورحل بشير

ورحل فرج

ورحل حسان

ورحلت فادية

ورحل خالد

ثمّ رحلتُ أنا إلى عالم من الغربة والهشاشة والحزن الشفيف.

***

ستجعل مني قصة "لماذا مات يوسف النجار" قاصّاً معروفاً في تلك الفترة. بعد المهرجان بأيام، صدفني صديقي الشاعر بندر عبد الحميد، وكان محرر الصفحة الثقافية في جريدة البعث، وطلب مني أن أنشر القصة في صفحته. وفعلت، وكانت تلك أوّل قصة أنشرها في الجرائد. فتح لي بندر عالماً رحباً من العلاقات والشهرة في المجتمع الثقافي في دمشق، في وقت مبكّر نسبياً.

قيل الكثير عن بندر عبد الحميد، ويظلّ ما قيل قليلاً. لم يكن بندر متنطّحاً في أي مجال من مجالات الحياة، لم يدّع أنه مناضل ولا سياسي ولم يعتلِ منابر الشعر الخطابي، ولم يظهر على شاشات التلفزيون، ولم يخض في غمار المعارضة، ولم يؤيّد الحكومة والنظام. كان مثقفاً هادئاً ورجلاً كريماً وصديقاً نبيلاً، فتح قبوه الصغير في أحد الأزقة المتفرّعة من شارع العابد وسط دمشق للجميع بلا تمييز ولا تفرقة، فأحبّه الجميع بلا تمييز ولا تفرقة.

انحدر بندر إلى دمشق من أقاصي الجزيرة، من قرية ما كان سيسمع باسمها أحد لولا بندر نفسه: تل صَفُوك. كانت أقرب مدرسة إلى قريته تبعد عشرين كيلومتراً، وكان عليه أن يقطع المسافة خلال ثلاث ساعات في كلّ يوم، قبل أن يدرَج في مدرسة العشائر الداخلية في الحسكة. في المدرسة الثانوية بدأ يعرف أن ثمّة عالماً موازياً للعالم الذي يعيشه هو الكتاب، فبدأ يقرأ بنهم، وأغرم بالشعر بشكل خاص، وحاول أن يكتبه، وحين تعلم لاحقاً العروض نظم قصيدة عمودية فاز بها بجائزة ما، ولكنه فقدها أو أتلفها فيما بعد.

ولكن بندر ليس فرداً فقط. ينتمي بندر إلى جيل كامل من المثقفين والشعراء الذين تاهوا بين السياسة والأدب، بين الالتزام واللا انتماء، بين الوجودية والماركسية، بين القومية والدين. هو الجيل الذي برز في السبعينات. سبقهم جيل محدّد المعالم، واضح الاتجاه، مثّله سعد الله ونّوس وممدوح عدوان وفايز خضّور وعلي كنعان، الذين اعتبروا أنفسهم جزءًا من حركة التقدّم والتحرّر، انتسب معظمهم إلى حزب البعث حين كان الحزب في مرحلة صعوده، وحين كان لا يزال حزباً للفلاحين ومثقفي المدينة المتأثرين بالفكر الاشتراكي الغربي، والذين كانوا يعانون من قلق وجودي وفكري. وحين جاؤوا إلى دمشق، كانوا كالفاتحين الذين يريدون نقل المدينة من الظلمة إلى النور، من التخلّف إلى الحداثة، فتولّوا مراكز حسّاسة في المؤسّسات الثقافية والإعلام، ولعبوا دوراً كبيراً في بناء ثقافة جديدة، فحرّروا القصيدة من العمود وحرّروا القصّة من الحدّوثة، وحرّروا المسرح من التمثيل. ثمّ صفعتهم هزيمة حزيران 1967، التي اعتبروها هزيمة لهم ولجيلهم ولحكومتهم ولتوجّهاتهم الثورية. أغضبتهم الهزيمة، فانكفأ بعضهم على ذاته كما فعل فايز خضّور، وفجّر بعضهم غضبه في ثورة مسرحية كما فعل سعد الله ونّوس، وانغمس بعضهم في سيل من الكتابة، شعراً ومسرحاً وروايات، كما فعل ممدوح عدوان.

جيل بندر جاء على أنقاض الهزيمة. حين انحدر بندر إلى دمشق للدراسة في جامعة دمشق نهاية الستينات، صعقته المدينة الفاتنة بجمالها وأناقتها، وفيها تعرّف على جيل كامل من الشباب الذين كانوا يصعدون في سماء المدينة كالشهب: نزيه أبو عفش ومحمد كامل الخطيب ودعد حداد وسحبان سواح وتوفيق الأسدي وجليدان الجاسم وحسن يوسف. حين انقضت هزيمة حزيران كالصاعقة، كان جيل بندر يفتح عينيه على الثقافة والمدينة والسياسة والفن، وبينما كان جيل الستينات واضحاً في أيديولوجيته واتجاهاته السياسية المبسّطة (حبّ الفقراء والثورة والوحدة العربية والمقاومة الفلسطينية)، كان جيل بندر يلهث باحثاً عن الحقيقة، متنقلاً بين "لامنتمي" كولن ويلسون و"غريب" ألبير كامو وفيلم "رغبة آنا" لإنغمار بيرغمان، من جهة، وثورة 1986 ومؤلفات هربرت ماركوزه وغي ديبور وناجي علّوش، وحرب فيتنام والمقاومة الفلسطينية وأفلام الواقعية الجديدة في الستينات ومطلع السبعينات، وتنظيرات حزب البعث الحاكم والحزب الشيوعي الذي كان يمدّ سيطرة خبيثة على المشهد الثقافي السوري، من جهة أخرى.

خرج جيل بندر عبد الحميد من هزيمة حزيران ليقع في مهزلة حرب تشرين 1973. في البداية انخرط جميع أفراد هذا الجيل في الحرب، وآمنوا بها، وبشّروا بالنصر والثأر لهزيمة حزيران.

ثمّ رأى هذا الجيل دكتاتور سوريا الراحل حافظ الأسد وهو يثبّت دعام حكم دكتاتوري طائفي بغيض، ورأوا الفساد والمحسوبية وهي تتحكّم في كلّ مفاصل الحياة، وعصَر الألم قلوبهم وهم يرون خمس مشانق تتدلّى منها أجساد خمسة شباب في العشرينات بسبب عملهم مع المنظّمة الشيوعية العربية، ثم وهم يرون مئات من الشباب اليساري يساقون إلى السجون، ليلحق بهم آلاف المحسوبين على الإخوان المسلمين، ورأوا رئيسهم وهو يقمع حركة النقابات في 1980، فلم يعرفوا أين يقفون،

وعجزوا عن فعل شيء في 1982 حين دمّرت قوّات حكومتهم مدينة من مدنهم فسوّتها بالأرض، وحين اجتاح الإسرائيليون عاصمة عربية تبعد عنهم أقل من مائة كيلومتر، وحين حوصرت بلادهم بسبب دعم رئيسهم لعمليات إرهابية في الخارج، وحين فتح الرئيس بعد ذلك الاقتصاد فسمح لعائلته ومحسوبيه بمراكمة ثروات لم تكن تخطر على بال أي منهم بأي حال. ورأوا مهزلة الوريث، وصدّق بعضهم أن الرئيس الشاب يحمل أجندة للإصلاح، فانخرطوا في المنتديات ووقّعوا بيان التسعة وتسعين، مطالبين بالحريات والانفتاح ووقْفِ الاعتقال السياسي، ثمّ فغروا أفواههم وهم يرون قادة ربيع دمشق يذهبون إلى السجن.

وأخيراً، فاجأت الثورة السورية بندراً وجيله، كما فاجأت الجميع. وانقسم الجيل على بعضه، فانغمس بعضهم في الثورة، وآثر البعض الاحتماء بالنظام. وفيما تفرّق أبناء جيل بندر أيدي سبأ في كلّ أصقاع الأرض، بقي بندر في دمشق، ينطر بيوت أصحابه وقصائدهم وذكرياتهم، كما بقيت زاد الخير في مسرحية "ناطورة المفاتيح" للرحابنة، لتنطر البيوت والمفاتيح، حتّى يعود أصحابها. أصحاب البيوت في مسرحية الرحابنة عادوا وعادت معهم الضحكة تدر في شوارع المدينة، أما ناطور المفاتيح الدمشقي، فتفجّر قلبه الكبير، وما زالت البيوت خالية، وأصحابها يهيمون على وجوههم.

***

شاي أسود غامق مع قليل من السكر

عرّفني أحمد جمول إلى عزت المحمود ليكون أول مسؤول لي في الرابطة: مارد مديد، طيب القلب كعذراء، قوي كحصان وفقير كفراشة الربيع. في غرفته في حيّ الزهراء بحمص، لم يكن ثمّة الكثير: فراش وبساط وطرّاحة ومدفأة، ما كان يزيلها صيفاً أو شتاءً. كان فيها أيضاً طاولة وكرسي للكتابة، وعدّة المتّة: موقد غاز صغير، إبريق ألمنيوم، علبة المتّة، كأسان صغيرتان، ومصّاصة. لم أكن أدمنت المتّة بعد: ولكنني سأفعل ذلك بعد سنوات، في السجن. جاءتنا في زيارة عابرة في سجن تدمر علبة متّة بيبوري، فانقلب المهجع عيداً. استبشرت وجوه الرفاق، وبدأ العمل بنشاط لإعداد إبريق ماء ساخن. رفيقنا عبد الكريم عبد الرحمن، أستاذ الفلسفة من ريف جبلة، كان مسؤول حلقة المتّة. اجتمع الرفاق حوله في حلقة، وكنت بين من تحلّق. وكان عبد الكريم يصبّ الماء فوق عيدان المتّة، ثم يقدمها بالدور إلى الشبيبة. عيناه تشعّان فرحاً، وعيون المتحلّقين تتراوح بين الترقّب والنشوة والحسرة. وصلتني الكأس المعمّرة.

لم يكن لدينا مصّاصة للمتّة، فأفرغ عبد الرحمن قلم بيك من خرطوشة الحبر، ثم ثقبه من أسفله عدّة ثقوب بإبرة محمّاة، فحوّله إلى مصّاصة. أخذت الكأس. كانت حارّة، ولسعتني حرارة السائل والطعم المرّ اللاذع

للمتّة. بدأت أرشف رشفات صغيرة متباعدة، وعيون الأصدقاء ترقبني بامتعاض وتعجّل. عبد الرحمن لم يطق صبراً أخيراً. قال لي: "رفيق وائل إذا ما حبيتها ما تجبر حالك." كان في صوته تشجيع لي لأترك ما تبقى في الكأس. شعرت بالفرج، وأعطيته الكأس وفيها نصفها تقريباً، فملأها وحوّلها للرفيق التالي. ثمّ دارت الكأس عدّة مرات، وهي تقفز فوقي في كلّ مرّة تصل إلي. بعدها، حاولت مراراً أن أتذوّقها، وفي كلّ مرّة كانت مرارتها تخفّ وطعمها يصبح أقلّ قساوة. ولكن كان عليّ أن أنتظر أبو عزيز، هيثم يوسف، الشاب الوسيم القادم من قرية التلعة قرب صافيتا، لكي يجعلني أحبّ المتّة، ثم أدمنها.

بيد أنّ عزّت المحمود كان يقدّم الشاي أيضاً. شاي أسود غامق مع قليل من السكر، يقدمه عزت في كأس زجاجي كالح، يغسله بالماء، ولكن من دون صابون على الأرجح. على أن أكثر ما سجرني بعزت أثناء مجالستي إياه كان سيجارة الناعورة: سيجارة غليظة محشوة بالتبغ الأسود الرخيص. خجلت أن أخرج علبة الروثمانز من جيبي وقبلت منه سيجارة رحت أسعل بعدها دقائق عدة، وهو يقهقه بمرح طفولي. على أنني لم أرمِ السيجارة بعيداً وأصررت على إكمالها. سيجارة الناعورة صارت رمزاً للنضال ضد الإمبريالية والعدو الطبقي. كان عزّت يمج نفساً عميقاً من سيجارته بمهارة وحرفية ثم ينفثه في الهواء فتعبق الغرفة المغلقة برائحة حريفة، قوية فيها رجولة وتمرد وعنفوان. وبين نفَس وآخر كان عزت يتحدث عن علاقته بمحمود درويش وميشيل فوكو وروجيه غارودي. كان الخطّ الفاصل بين الحقيقة والخيال عند عزّت رفيعاً جداً، لدرجة تصعب معها رؤيته أحياناً. وما عتم أن غدت سجائر الناعورة دخانيَ الرسمي، وكنت غالباً ما أضع العلبة، وسعرها 55 قرشاً، على الطاولة في مقصف الجامعة أو الكافتيريا أو المقهى، كإثبات على روح النضال المتأصلة لديّ. في بيروت، خلال إقامتي هناك صيف 1979، لم أكن أستطيع الحصول على الناعورة، ولكنني انتبهت إلى أن مناضلي

الحركة الوطنية اللبنانية هناك يدخنون الجيتان. وقال لي أحدهم إن للحزب الشيوعي الفرنسي نصيباً من أسهم شركة جيتان. وهكذا تحوّلت من الناعورة السورية إلى الجيتان الفرنسي، بنفس الروح القتالية العالية، محققاً بذلك تكاملاً أممياً أصيلاً.

في دمشق، ضمّتني أول خليّة انتظمت فيها إلى شاب فلسطيني هادئ ورقيق، علي الكردي، وفتى حيّ بشاربين أسودين كثين وعينين ناعستين جميلتين، هو نصّار يحيى. تعرّفت إلى علي باسم رياض، ولفتني أنه من المثقفين القليلين الذين لم يحبّوا استعراض ثقافتهم. يتحدّث بهدوء وتواضع أصيل، وحين يشتد النقاش بين نصّار وبيني، كان غالباً ما يحلّ الإشكال بنكتة أو ابتسامة. سيُعتقل علي الكردي مرّات ثلاثاً: في صيف 1979، حيث أطلق سراحه بعد نحو ثمانية أشهر، وفي صيف 1982 لتسعة أعوام، ثم 1995، ولكن هذه المرة لشهر واحد. باستثناء السياسة، جمعت بيننا صداقة شفّافة وأصدقاء مشتركون هم جميل حتمل ويوسف عبدلكي وإبراهيم صموئيل. هادئ، إذن، ورقيق، ولكنّك لا تريد فعلاً -إن كنت عاقلاً- أن تُغضِب أبو العلا، فهو إن فعلتَ، تحوّل إلى عاصفة من الانفعال وتوهّج وجهه الأسمر الشاحب الجميل بحمرة الغضب القانية.

نصّار يحيى أيضاً كان هادئاً، يصغرني بعام وبعض العام، جاء للتو من مدينة السلمية، ليدرس التاريخ أو الفلسفة في جامعة دمشق. اسمه الحركي كان "وليم"، ولكنْ لن يطول المقام به قبل أن يعرّف عن اسمه الحقيقي واسم أخيه "عقاب يحيى" أحد القادة البعثيين الديمقراطيين. ذكر اسمه بشيء من الخيلاء، فذكرت اسم أخي أيضاً: فراس السوّاح، الذي كان نجمه قد بدأ يستطع بعد نشر كتابه "مغامرة العقل الأولى." علي لم يكن معنا عندما تبادلنا أسماءنا كهدايا، ونحن لم نعرف اسمه إلا عندما اعتقل. منذ عرفته، كان نصّار واقعياً في السياسة، وحين

اندلعت في 1979 معركة طبيعة الثورة القادمة، وقف مع الفئة الأكثر عقلانية.

لعبت موضوعة "طبيعة الثورة القادمة في سوريا" دوراً كبيراً في بلورة آراء الرابطيين. سؤال طبيعة الثورة كان طرحه كارل ماركس وفريديريك إنغلز منذ البيان الشيوعي. ورأى المؤسسان أن على الطبقة العاملة أن تنجز مهام الثورة الديمقراطية التي فشلت البورجوازية في بعض البلدان أن تقوم بها ثم تكملها بالثورة الاشتراكية. وجاء لينين في كتابه "خطتا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية"، مطلع القرن الفائت، ليقف موقفاً وسطاً بين ماركس- إنغلز وتروتسكي، فأكد على الطبيعة الديمقراطية للثورة، ولكن بقيادة العمال والفلاحين، قبل أن يغيّر رأيه لاحقاً في نيسان / إبريل 1917، فيعلن أن الثورة الديمقراطية تحقّقت، وحان الوقت لبناء الاشتراكية. تبنينا في رابطة العمل الشيوعي مقولة: إن الثورة القادمة في سوريا ذات طبيعة ديمقراطية، وهذا يفرض علينا التحالف مع أطياف من البورجوازية الوطنية. على أننيَ لا أدري كيف أفقت ذات يوم فوجدت القيادة وقد غيّرت رأيها، وأقرت أن الثورة القادمة هي ثورة اشتراكية، بمعنى أنها ثورة البروليتاريا السورية لتحقيق الاشتراكية. لم يعنِ الكثير لرفاقنا أن البروليتاريا في سوريا ضعيفة وهشّة ومستلبة، وهي منقسمة بين البعث الحاكم والإسلاميين، ولم يعنِ الكثيرَ لهم أن شركاءهم الفلاحين لا يريدون سوفخوزات اشتراكية، بل يريدون الانتقال إلى المدينة والالتحاق بوظيفة في الجيش أو الأمن أو الإذاعة والتلفزيون. نصّار وأنا (ومعنا عليّ) كنّا من بين القلّة التي رأت في ذلك التحوّل مغامرة وقفزة في الهواء.

في السجن، سيقرأ نصّار كثيراً، سيلتهم الكتب، وينعزل عن أغلبية الرفاق، وينحو على رأس ثلّة صغيرة من الشباب منحى فلسفياً رواقياً، ولكن بمضمون وجودي، وربما فوكوي. سيغدو هايدغر ونيتشه

وهابرماس وفوكو، بل وجاك دريدا (الذي لم أستطع أن أفهم نصّاً واحداً له) مرشديه الروحيين بدلاً من ماركس وهيغل وأوغست كونت. ولكنّه قبل ذلك، سيلعب دور المحرك الأساسي في أول عملية انشقاق يتعرض له حزب العمل الشيوعي داخل السجن، وسيقيّض لي أن ألعب معه هذا الدور، ولكنّ لذلك كلّه حديث آخر.

تَرَكَنا علي بعد فترة، وجاءنا شاب صموت من بسنادا قرب اللاذقية، يحسن الاستماع كثيراً، ولكن الحديث كان يبدو وكأنه عقوبة بالنسبة له. احتجت لفترة لكي أحبّ حليم روميّة كما أحببنا علي، ولكني سرعان ما فتنت به وبإحساسه العالي وكرمه ونبل أخلاقه. سنجتمع أيضاً في سجن تدمر وصيدنايا، وسيبقي على صفاته تلك، فلا يتدخل إلا قليلاً في الصراعات الداخلية ومشاكل المهجع والانقسامات السياسية والعراك بالكلمات، وبالأيدي في بعض الأحيان.

في خليتنا، قرأنا الخطّ الاستراتيجي وكتب لينين الأساسية وكرّاسة ماركس الجميلة عن "الصراعات الطبقية في فرنسا 1848-1950"، ثم "18 بروميير لويس بونابرت" الذي لم أفهم عنوانه إلا بعد سنوات، عندما قرأته بالإنكليزية. ولكنني مذ قرأته أول مرّة فتنتني العبارة الشهيرة التي يفتتح ماركس كتابه بها، وهي العبارة التي علمتني أكثر من عشرات الكتب: "في موضع معين من أحد مؤلفاته يبدي هيغل ملاحظة تقول: إن الأحداث الكبرى في هذا العالم، والشخصيات التاريخية قد تتكرر، إذا صح التعبير، مرتين. لكن هيغل نسي أن يضيف أنها، إذا كانت تجيء في المرة الأولى تراجيدية، فإنها في المرة الثانية تكون هزلية ليس إلا." ثمّ يبرز بسخريته التاريخية التي لا مثيل لها كيف حلّ غوسيدير محلّ دانتون، ولوي بلان محل روبسبيير، وجبليو 1848 (من جبل) محل جبلي 1793، قبل أن يأتي على ذكر ابن الأخ (لويس بونابرت) باعتباره النسخة الهزلية لعمّه نابليون الأول. وفتنت بأسلوب ماركس في الحديث

عن حدث جلل كمجيء شخص تنقصه الموهبة والمقدرة بانقلاب إلى السلطة في فرنسا مستغلاً ضعف الأحزاب جميعها، بأسلوب فيه من الهزل والسخرية ما لا يشبه من كان كتب "العائلة المقدسة" ومن سيكتب لاحقاً "رأس المال"، خاصّة وأنه كان يعاني في ذلك الحين بالذات من أقصى درجات البؤس والحزن لموت طفلته فرانشيسكا واضطرار زوجته للاستدانة ثمناً لتابوتها.

ولكن الحياة لم تسرْ دائماً بيسر وهدوء: قراءةٌ ومناقشةٌ ودروسٌ وعشقٌ نهاراً، وعرقٌ وكآبةٌ لطيفةٌ شفيفة ليلاً. كنت لا أزال أسكن البيت الذي كان أحمد جمّول يسكنه قبل الزواج. في غرفة أحمد، حلّ صديقي الشيوعي العراقي صالح الكردي. كنّا -صالح وأخي سحبان، وتوفيق الأسدي، القاص المتميّز الذي كان متألقاً وانطفأ من دون أي سبب واضح، والناقد المدرسي الرزين حتى عندما يسكر، نبيل الحفّار، والفنان البدوي الصاخب الذي تتحوّل الألوان الفاجرة بين يديه إلى عجينة من النار واللوعة والعشق والشقاق، جليدان الجاسم، وأنا- ثلّة من الأصدقاء الذين يريدون أن يلووا عنق اللوحة والقصة والسياسة والتاريخ. كنت أصغرهم، وكنت أجلس معهم مشدوهاً بحواراتهم والعبارات العالية التي يستخدمونها، وأتساءل إذا ما كان سيمرّ يومٌ أتمكّن فيه من استخدام لغتهم وتعابيرهم وذرابة لسانهم. بدأت صداقتنا في المنتدى الاجتماعي الذي كان تأسس على يد مجموعة من طلاب جامعة دمشق الذين تراوحت أعمارهم بين 20 و25 سنة. كنا نلتقي لحضور أمسية شعرية أو معرض فني أو فيلم سينمائي. وحين لا نكون في المنتدى، نلتقي في الإيتوال أو في بار فريدي. وحين نُبتلى بنقص في الأموال، ننكفئ إلى بيوتنا، وحينها كنّا صالح الكردي وأنا نشتري بطحة عرق ماركة "كبريتة" وليمونة، نتقاسمهما، ونتقاسم معهما أسرارنا وحكاياتنا، وننام غالباً على الطوى، أو نأكل كعكاً مع الشاي قبيل النوم بقليل. من صالح، تعرّفت على ثورة الأهوار في العراق، التي فجّرها شيوعيون منشقّون عن الحزب

الشيوعي الرسمي، بقيادة عزيز الحاج. حكى لي صالح كيف أن ثورة الأهوار لم تكن سوى تكرار لثورة الحسين، مهيّأة للذبح لا للانتصار، مثلها مثل انتفاضة جيفارا وانتفاضة أيار 68 في فرنسا. وحكى لي حكاية الزعيم الشيوعي الذي انهار تحت التعذيب. شعرت بالقرف من هذا الرجل الذي انهار في المعتقل، إلى أن تجاورنا في صفحات الرأي في جريدة الحياة بعد ثلاثين سنة، فتعرّفت فيه إلى إنسان مرهف وكاتب عميق.

في عام 1976، كان حافظ الأسد ينعم في رخاء الحكم، بعد حرب تشرين وتسوية أموره مع الغرب وهزيمته لخصومه في الداخل والخارج، وبخاصة بعد أن اعتقل خصمه اللدود صلاح جديد وحبسه مع ثلّة من رفاقه في غرف ضيقة متهالكة في سجن المزّة وقتل خصمه الآخر محمد عمران في 1972 بمدينة طرابلس، لبنان. بعد انقلابه في تشرين الثاني/نوفمبر 1970، زار مدناً سورية كثيرة وبنى شعبية لا بأس بها على حساب الترمّت والتقشّف وضيق الأفق لحكومة البعث السابقة التي انقلب عليها.

لم تكن تلك السنوات من دون منغصّات بالطبع، ولكنها منغصّات محتملة، لم تهدّد وجود الأسد في السلطة. هذه المنغصّات أتت من اليمين أساساً ومن اليسار قليلاً. عندما قامت الحركة التصحيحية عام 1970 انقسمت جماعة الإخوان المسلمين إلى ثلاث فئات: جماعة دمشق التي كانت تدين للزعيم التاريخي للجماعة ومراقبها العام عصام العطّار (وهو كما يعرف الكثير شقيق نجاح العطّار الصديقة الصدوقة لآل الأسد ونائب رئيس الجمهورية حالياً)؛ بالمقابل رفضت جماعة حلب ذلك وانتخبت الشيخ المترمّت عبد الفتّاح أبو غدّة مراقباً عاماً للتنظيم؛ ولم يَرْضَ الشابُّ العصابي مروان حديد أيّاً من الرجلين زعيماً، فأسّس جماعة متشدّدة اعتمدت العمل المسلّح وسيلة للتغيير. ولم

تنفع وساطة مكتب الإرشاد العام للتنظيم العالمي في إجراء انتخابات جديدة جاءت بالشيخ عدنان سعد الدين مراقباً عاماً للجماعة عام 1975، فجماعة العطار لم تعترف بالوضع الجديد واستمرت بالعمل كتنظيم مستقل تحت اسم "الطلائع الإسلامية"، بينما شكّلت كتلة مروان حديد "الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين". وكانت جماعة مروان حديد هي من قاد تحرّك 1973 أثناء أحداث الدستور التي دفعت حافظ الأسد إلى التراجع سريعاً عن دستور علماني بدأ يتحرك هذا الأخير سريعاً، فأضاف أن الفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع وأن دين رئيس الدولة الإسلام. في كانون الثاني / يناير 1973، أصدر حافظ السد مشروع دستور جديد، حُذفت منه لأول مرة مادة أن يكون دين رئيس الدولة الإسلام، وانتفض بعدها الشارع السني في حماة وحمص وحلب، وعمّت المظاهرات شوارع المدن الثلاث، حتى اضطر الأسد على إضافة المادة. تلا ذلك أن الأسد طلب من صديقه الإمام الشيعي المغيّب موسى الصدر أن يصدر فتوى يعتبر فيه العلويين جزءًا من المسلمين، وفعل الصدر ذلك، معبّداً الطريق أمام الأسد ليتولّى مقاليد الأمور حتى أتمّ الثلاثين سنة.

المنغص الثاني جاء من قبل جماعة صلاح جديد الذي كان يرزح في زنزانته في سجن المزّة. فقد بدأ التيّار اليساري في حزب البعث بإعادة تشكيل أنفسهم وانتخاب أمين قطري جديد. رد فعل الأسد كان سريعاً، حيث اعتقل معظم أعضاء التنظيم الجديد، وزج بهم بضع سنوات في السجن، وأضعف إلى حدّ كبير أي خطر مباشر يمكن أن يسببوه، وبخاصة ضمن المؤسسة العسكرية التي كانت الجماعة لا تزال تحتفظ ببعض الصلات القوية معها.

وجاء دخول قوات الأسد لبنان وضربها للحركة الوطنية والفصائل الفلسطينية؛ ليسبب للأسد منغصًا ثالثاً، جاء هذه المرّة من جماعة أبو

نضال الفلسطينية، التي قامت بعملية في قلب دمشق، واحتجزت ٩٠ رهينة في فندق سميراميس على يد أربعة مسلحين، حيث أخرجوا نزلاء الفندق من غرفهم، وجمعوهم في بهو الفندق. وكانت النتيجة مقتل واحد من المسلحين مع أربع من الرهائن. وكانت تلك أوّل ضربة تلقاها الأسد في قلب دمشق.

بدأت يد الأسد تشتدّ في قبضتها على الأمن، وبدأت مساحة الراحة التي شعر بها السوريون خلال سنوات قليلة تتقلّص بدورها. وأخذت الأجهزة الأمنية تستشعر خطراً قادماً من جهة أخرى هذه المرّة. رابطة العمل الشيوعي: مجموعة الشباب الماركسي المتحمّس الذي شكّل للتو تنظيماً يدعو لإسقاط السلطة، من خلال انتفاضة شعبية-عسكرية مشتركة. في مساء 24 آذار/مارس 1977، كنت أجلس في غرفتي التي انتقلت إليها مؤخراً في بيت عائلة دمشقية في منطقة الزبلطاني بدمشق، أقرأ في رواية الأشجار واغتيال مرزوق لعبد الرحمن منيف وأرشف من كأس من الشاي بجانبي، حين – وأذكر ذلك كما لو أنه حدث الليلة الفائتة، طرقت صاحبة البيت باب غرفتي، ومدّت رأسها تقول: "ثمّة صديق لك بالباب." صديق؟ كنت قد انتقلت إلى هذا البيت للتو فأي صديق يمكن أن يكون؟ قمت إلى الباب. كان أحمد جمّول.

"ادخل. ما الذي جاء بك؟"

"اعتقل أمجد ونجود وخلود وجورج ونحو عشرين رفيقاً آخرين."

نظرت إليه نظرة قلق وخوف وتوجّس. ها هي اللعبة تنقلب جدّاً. وقلت لأخفّف من وطأة اللحظة:

"تشرب شاياً؟"

"فيني نام عندك؟

يا الله! بالطبع تستطيع، فأنت الأخ والصديق والرفيق. وغداً سيكون يوم آخر.

***

حين صرت مسيحياً لستّة أشهر

أقام أحمد جمّول عندي بضعة أيام. حين شنّ النظام حملته على الرابطة، كان أحمد الوحيد من لجنة العمل الموجود في دمشق. الأربعة الآخرون كانوا بمهمّة في بيروت. وأحمد، المثقّف الفوضوي الذي يعرف ماركس وكونت ولوكاكش وغارودي وألتوسير جيداً جداً، لم يكن لديه من الخبرة في شؤون التنظيم الكثير، ولم يكن يُعنى بذلك. ولعلّ جهله بقضايا التنظيم والعلاقات الخليوية والخيطية ساهم في إزكاء حملة الاعتقالات، فهو لم يخبر الرفاق بالحملة في الوقت المناسب لكي يتواروا عن الأنظار. وسيشكّل ذلك له في الأيام التالية إشكالاً مع أعضاء لجنة العمل حين يعودون من بيروت. أبو حسين (عبّاس عبّاس) وأبو علي (فاتح جاموس)، ومعهم عضو شاب في الهيئة المركزية هو نهاد نحّاس، سيتولّون لملمة الخيوط بعد تشتتها ورأب الصدوع وتضميد الجروح.

نام أحمد على الكنبة، ولم يكن ثمّة مشكلة، فأم الياس كانت سيّدة طيّبة، لم تمانع في استقبالي لصديق، كما لم تمانع في استقبالي شقيقتي التي كانت تسكن في المدينة الجامعية. لم تكن أختي تماماً. كانت صديقتي، ولكن أم الياس لم تكن توافق على دخول فتيات غريبات إلى غرفتي.

كنت قد انتقلت إلى الغرفة منذ أسابيع فقط، بعد أن طردني في مساء أحد الأيام من شهر شباط/فبراير 1977 مناضل شيوعي بكداشي عنيد من غرفة كنت أستأجرها في بيته على الرغم من أنني لم أقصّر يوماً بدفع

أجرتها. كان المناضل قاصّاً متواضعاً، جعل منه الحزب الشيوعي البكداشي علماً من أعلام الأدب السوري، تماماً كما توّج شاعراً آخر، أيمن أبو شعر، كأهمّ شاعر في سوريا. يتمتّع أبو شعر بالقدرة على التمثيل والخطابة والإلقاء الجميل، ولكن ينقصه الشعر. أما رفيقي الشيوعي، محمود عبد الواحد، فكانت تنقصه الموهبة والحضور معاً. ولكنّه كان يمتلك كلّ ما يؤهله ليحتلّ بعد سنوات منصباً مهمّاً في وزارة الثقافة، المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب. وحين كرّمته وزارة الثقافة في حكومة النظام قبل سنة، أهدى التكريم إلى "أرواح الشهداء من جنود الجيش العربي السوري الذين ضحوا بدمائهم وأرواحهم من أجل أن تواصل بلدهم رسالتها الحضارية ومن أجل أن ينعم أطفالها بحياة كريمة وأن يستمر أدباؤها وفنانوها في رسم لوحاتهم وعزف أنغامهم وتحقيق مسرحياتهم وأفلامهم وكتابة نصوصهم."

ألقى بي رفيقي القديم على قارعة الطريق: حرفياً. جئت ذات يوم إلى البيت، فوجدت كتبي وملابسي وأوراقي على درج البناء، وقد غيّر قفل البيت. لم أدر ما أنا صانع، فتركت كلّ شيء على حاله، ومضيت أهيم على وجهي، حتى وجدت نفسي في مقهاي المفضّل، الإيتوال. هنالك وجدت صديقي العتيق عدنان جرجوس (ما عدت أعرف عن أخباره شيئاً)، وكالعادة جاء لنصرتي.

"ما بك؟" سألني عدنان.

"طردني محمود من غرفتي." قلت له.

"كيف؟" سألني، فشرحت له.

تأملني للحظة، وقال لي: "أعرف عائلة تؤجر غرفة في بيتها، بشرطين اثنين: دفع الإيجار مقدماً وأن تكون مسيحياً."

كان لعدنان القدرة على إخراج الحلول من تحت أظافره، ومن دون كبير جهد. قلت من دون تردد: سأدفع الإيجار وسأصبح مسيحياً. ذهبت برفقته إلى بيت العائلة في الزبلطاني، وقدمني الصديق إليهم: صديقي

وائل طالب جامعي وكاتب قصة من حي الحميدية بحمص. حي الحميدية كان الحيّ المسيحي الرئيسي في حمص. صاحبة البيت أم الياس كانت أرملة في نحو الستين من العمر، تعيش في البيت مع ابنتها العزباء. ابنها البكر كان يعمل في منطقة نائية، مدينة الطبقة، مهندساً أو مساعد مهندس.

"أين بيتكم في الحميدية؟"

"وادي السايح؟"

كنت أعرف المنطقة جيداً فقد كانت هي منطقتي الحزبية في الحزب الشيوعي (البكداشي) وفيها كان أعزّ أصدقائي في المرحلة الثانوية، ماهر باخص، وفيها أيضاً انتخبت (عُيِّنت؟) عضواً في اللجنة الفرعية للحزب، لأنني المسلم الوحيد في المنظمة. ابتسمت أم الياس. لم أعرف لماذا، ولكنني في اليوم التالي نقلت ثيابي وكتبي. علقت ثيابي القليلة ورتبت كتبي وحرصت أن أضع الكتاب المقدس فوق باقي الكتب لتراه أم الياس وابنتها، ثم علقت على الحائط أيقونة صغيرة استعرتها من صديقي عدنان جرجوس، بجوار صورتين كبيرتين لغيفارا وكارل ماركس، ورتبّت أشرطة فيروز والشيخ إمام وكلايدرمان، بجوار جهاز الكاسيت الصغير المتهالك القديم. السيدة وابنتها كانتا شديدتي اللطف، وغالباً ما دعتاني إلى غداء أو عشاء شهي وقدمتا لي الشاي كل يوم. وفي مرات كثيرة كانتا تستضيفان سيدات أخريات من الحارة، فتصل ثرثرتهم إلى أذنيّ، وهنّ يتحدثن عن أزواجهن وأبنائهن والطبخ والمسلسل الأسبوعي. مساء أحد الأيام، سمعت نقراً على باب غرفتي. فتحت. كانت ابنة صاحبة البيت.

"مرحبا.. ماما تقول لو أنك تقرأ لنا بعض آيات الكتاب المقدّس لجاراتنا."

تخيّلت كلّ شيء، إلا تلك اللحظة. ماذا أختار؟ كيف أتلو الآيات؟ أترتيلاً كما نتلو القرآن، أما تعبيرياً كما أقرأ قصصي في الأمسيات الأدبية؟ حملتُ الكتاب المقدّس وخرجت إلى الصالة. قرأت لهم من إنجيل يوحنا، لأنني

كنت أحبه أكثر. " قال لهم يسوع: املأوا الأجران ماء. فملأوها إلى فوق. ثم قال لهم: استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ. فقدموا. فلمّا ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً، ولم يكن يعلم من أين هي، لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا رئيس المتكأ العريس، وقال له: كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً، ومتى سكروا فحينئذ الدون. أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن." وكنت أشعر بالعرق يتصبّب من جبيني، وكانت الجارات يستمعن، وشبح ابتسامة على شفاههن، فيزداد ارتباكي ولا أفهم.

لم يكن لدي مشكلة مع الله. في مراهقتي ألحدت، ثمّ نسيت ذلك. كانت علاقة أبناء جيلي مع الله غريبة ومتناقضة. بعضنا يضع الإلحاد أولوية له، يدافع عنه وينظّر له. بعضنا الآخر كان يضع ذلك كلّه وراء ظهره، ويضع قبله عشرات القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والمعيشية. ومع ذلك، بقي الله رفيقاً دائماً لنا. بالنسبة لي، كنت دائماً أفضّل إله جدتي.

كانت جدتي لأمّي (أم يوسف) تبكي إذا ذكرت الله، ولكنها لم تكن تصلّي دائماً، ولم أرها يوماً تصوم. كانت تقول لي إن الله ليس بحاجة إلى أن نجوع ونركع، فهو أسمى من ذلك بكثير. طلبتْ مني ذات مرّة، وكنت تلميذاً في الصف الرابع، أن أتلو عليها سورة الضحى، ففعلتُ، وانخرطتْ هي في بكاء مرير. وكانت ترتدي ما تلبسه نساء سوريا في مطلع القرن الفائت، فتغطي وجهها بمنديل إذا خرجت إلى الشارع، ولكنها حين يأتي أبناؤها بأصدقائهم، تقبلهم كما تقبل أبناءها، وهي مدركة أن الله يستطيع أن يميز بين قبلة وقبلة. وكان والدي حجّة في الفقه الحنفي في حمص، بينما كانت زوجته (أمي) وابنته (أختي) تمشيان سافرتين، رافعتي الرأس في شوارعها. وكان الرجال يشربون الخمر باعتدال، ثم إذا جاء رمضان، عملوا "تكريزة رمضان،" فشربوا تلك الليلة ما حلا لهم، ثم اغتسلوا وصاموا رمضان من دون كحول، وعادوا إلى الخمر بُعيد رمضان

بيوم أو اثنين. وكانت أجمل خمّارات المدينة الجميلة التي ولدت فيها، حمص، تقابل جامعاً قديماً، وما كان ذلك يسبب أية شكوى، حتى قام إسلاميو التكفير بالطلب إلى السلطات، فأغلقوا الخمارة. وفي هذا التقابل قال شاعر حمص الكبير عبد القادر الحصني:

وحمصُ الهزيـعُ الأخيرُ من اللّيلِ
بعد انغلاق الحواني على الخمرِ
قبل انشقاق الأذان عن الفجرِ
تخبرني أنَّ همّي يزيدُ
وتنقصُ واحدةً أضلعي

بتلك الروح، لم يكن لدي مانع في أن أكون مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً، ليس فقط لأستأجر الغرفة عند أم الياس، ولكن، لأن تلك الروح كانت جزءًا من طبيعتي، من حياتي، ومن إنسانيتي.

جاءت فادية لزيارتي بعد أيام، رأتْ أحمد. لم أكن قد رأيتها منذ بداية الحملة، ولم تكن فادية قد غدت رفيقة بعد، وهي أدركت أن شيئاً لا بدّ أن يكون وقع، ولكنها لم تسأل. وأحمد الفوضوي تنظيمياً، لكن الحريص أمنياً، حزم حقيبته الصغيرة، وترك البيت. وبعد أسابيع حزمت أمتعتي وكتبي وأيقونة صديقي عدنان وصورتي غيفارا وماركس ومضيت أنا أيضاً. ولكن ليس لأسباب أمنية.

في يوم جاء ابن السيدة صاحبة البيت وكان يعمل في الطبقة مهندساً للنفط. وكان في البداية لطيفاً كأمه وشقيقه. تعشينا سوية، وحدثته عن بيتي في الحميدية بحمص وكنيسة أم الزنار القريبة منه، ثم دخلت غرفتي. في اليوم التالي خرجت كالعادة إلى الجامعة. ويبدو أنه دخل غرفتي في غيابي، ورأى الصور والكتب وأشرطة الشيخ إمام. في اليوم التالي جاءتني صاحبة البيت، أم الياس، وقالت لي بصوت متهدّج وهي تحاول مغالبة عصبيّتها: "شوف يا أبني: مسلم ومشّيناها، قلنا آدمي، بس شيوعي كمان؟ هاي كتيرة كتير. معك لآخر الشهر لتسلم الغرفة."

جارتنا أم وليد المسلمة سمعت بالقصة، فصعدت إلى شقة أم الياس ودخلت كالعاصفة، وقالت لي بصوت آمر. "ضب غراضك"! لم أناقشها. انتظرتني حتى حزمت الكتب والملابس، الصور وأشرطة الشيخ إمام، وساعدتني في حمل أشيائي إلى شقتها في الطابق الأسفل، وبقيت هناك أقل من سنة. إسلام أم وليد كان كإسلام جدتي، فهي -في الستين- ترتدي في البيت ثوباً من دون أكمام وتضع مكياجاً رخيصاً، تدخن بشراهة ولا تصّلي إلا في رمضان. في الحارة، ثمّة من همس بأذني أنها كانت تعمل مومساً، وأن زوجها تعرف عليها في بيت مشبوه، وأحبّها وتزوّجها، فتركت الكار، والتزمت البيت. سواء أكانت مومساً أم لا، بالنسبة لي كانت منقذتي التي آوتني وأطعمتني وجبة ساخنة كلّ يوم، وسقتني كأساً من الشاي الصباحي، قبل أن أخرج إلى الجامعة، أو إلى العمل، فيما بعد.

العمل؟ نعم. كانت السنة الدراسية تقترب من نهايتها، ما يعني أنني سأعود في الصيف إلى حمص، توفيراً للنفقات. كانت فكرة أن أترك دمشق، والرفاق وفادية وأميرة ومظفر وعلي الجندي وممدوح عدوان، مريعة. كنت قد بدأت أكتسب بعض الشهرة ككاتب وصحفي. نشرت قصصي في الثورة والبعث والموقف الأدبي، جريدة اتحاد الطلبة، ونشرت مقالات نقدية عن هاني الراهب وحسيب كيالي وعبد الله عبد وصلاح دهني. حدثان سيلازمان ذاكرتي طويلاً جاءا نتاجاً لمقالين كتبتهما في جريدة البعث. الأول كان مقالة طويلة عن قصّة لهاني الراهب، والثاني عن مجموعة قصصية للأطفال للأديب الجميل الساخر حسيب كيالي. مقالتي عن هاني كانت سبباً في صداقة طويلة بيني وبينه. وسمّاني، مداعباً، أحسن ناقد في سوريا.

تعود علاقتي بهاني الراهب إلى الستينات. كنت في مرحلتي الابتدائية؛ الوقت صيف، وقد أنهيت قراءة مجلة سندباد المصوّرة، ولا يزال الوقت ظهراً والضجر مسيطراً. أصخت السمع لأرى إن كان الصبية قد خرجوا من قيلولتهم إلى الحارة ليلعبوا كرة القدم أو لعبة عسكر وحرامية، ولكن

الجميع آثروا البقاء في بيوتهم هرباً من الحرّ. قربي على الطاولة مجلة ما لأحد إخوتي. أفتحها ضجراً وأتصفّحها. تمرّ عيناي على عنوان "المدينة الفاضلة". لا أدري ما الذي جذبني في العنوان. بدأت أقرأ القصة ويتصبّب مني عرق غزير. لا زلت أذكر القصة، ولكن بشيء من الغموض. في مدينة ما يحفر الناس قبورهم في صحن دارهم، انتظاراً للموت، وثمّة فتى مثلي، حائر، لا يعرف لماذا يفعلون ذلك. جاء والدي مساء، فسألته: هل حقاً بعض الناس يحفرون قبورهم في صحن بيوتهم؟ وأعطيته المجلة. ابتسم الرجل الذي نادراً ما يفعل، وحاول أن يشرح لي شيئاً اسمه الرمز في الأدب. بعد ذلك، عرفت هاني أكثر. قرأت له "شرخ في تاريخ طويل" وبعدها "ألف ليلة وليلتان" وفتنت برواية "بلد واحد هو العالم". في بداية السبعينات، عاد هاني من إنكلترا بشهادة دكتوراه نالها من جامعة إكستر وبمعرفة عميقة بآخر تقنيات الأدب العالمي، وبخاصة الإنكليزي والأمريكي. رأيته أول مرّة في مدرّج في كليّة الآداب بجامعة دمشق، حيث كان يدرّسني مادّة الترجمة. مرّة، تقدمت منه بعد المحاضرة، وقلت له بصوت متردد بالإنكليزية إنني أكتب القصّة وأتمنى أن يعطيني رأيه بواحدة منها.

"later on, later on!" أجابني ومضى غير عابئ.

بعد سنوات، سأروي له الحادثة، وسيعلّق بغضب مصطنع، "معقول؟ أنا فعلت ذلك؟" في عام 1979 نشرتُ في جريدة الثورة دراسة لواحدة من قصصه القصيرة على امتداد صفحة كاملة. طُرِب هاني لدراستي، وسأل عني أخي سحبان: "بتعرف واحد اسمه وائل السوّاح." حين عرف أنني أخوه، طلب منه أن يعرّفني إليه. التقينا في مقهى الروضة، ووقعت في غرامه مباشرة.

مقالتي عن حسيب كيالي، على أية حال ولّدت عليّ نقمته. فكتب في زاويته الأسبوعية مقالاً مزلزلاً. أتذكر حتى اللحظة عبارته الافتتاحية:

"جلس الولد الصغير يفكر: ماذا سأكتب اليوم؟ ماذا ستكتب اليوم يا

عين عمّك؟" ثمّ من دون أي شفقة مسح بي الأرض، من دون أن يرفّ له جفن. الغريب أنني أحسست بالغبطة وليس بالاستياء، فأن يتنازل عملاق كحسيب كيالي للرد على ناقد في الواحدة والعشرين كان يعني أن ما أكتبه فيه شيء من الأهمية. قصصت مقالة كيالي، وأريتها بفخر لأخي سحبان وأصدقائي، ورفاق التنظيم.

بعد سنتين أو ثلاثاً، كنت في مكتب سحبان، في مجلّة الحياة المسرحية. دخل رجل مهيب بنظارتين سوداوين سميكتين، سلّم على سحبان ومازحه، ثم طلب قهوة من الحاجب، وجلس. بعد هنيهة التفت إلي.

"مرحبا". قال

"أهلاً أستاذ." أجبت

والتفت الرجل إلى سحبان، وسأله: "ما رح تعرفنا؟"

وسحبان الذي بوغت برهة لذيذة، لم يكن يتوقّع أننا لم نلتقِ من قبل.

"هذا أخي وائل." وللتوكيد، أضاف بلؤم: "وائل السوّاح."

ثمّ إلي: الأستاذ حسيب كيالي."

تمنيت لحظتها لو أن فوهة كبيرة في الأرض تتلقفني وتأخذني بعيداً عن الحياة المسرحية وأخي سحبان وحسيب كيّالي، ولكنّ الرجل المبتسم الجميل، هتف بي: "أهذا أنت"؟ ثّم أغرب في ضحكة مديدة، قبل أن يقول: "تعال هنا"، وأخذني بين ذراعين قويتين في عناق مديد.

***

يألفونكَ فانْفُرْ

بالإضافة إلى خسارة عشرات الرفاق في حملة آذار 1977 على رابطة العمل الشيوعي، خسرت الرابطة مطبعتها التي كانت تفخر بها. الخسارة كانت متعدّدة الطبقات، فباستثناء الجانب المادي والمعاناة في تأمين ثمنها، كانت عملية شرائها مغامرة كبيرة من الصعب أن تتكرّر. نشرت إحدى المطابع إعلاناً لبيع مطبعة مستعملة، واعتقد الشباب في لجنة العمل أن تلك فرصة ذهبية، ولكن كيف السبيل لشرائها من دون أن نلفت انتباه السلطة وعيونها في كلّ مكان؟ فاتح جاموس المغامر دوماً اقترح خطّة. تردّد أعضاء لجنة العمل كثيراً في تنفيذها، ولكنهم أقروها بعد لأي. استخدم فاتح لهجته العلوية في تقمّص دور ضابط في سرايا الدفاع، وكان هيثم العودات جندياً بسيطاً برفقته، ومع الاثنين رفيق ثالث لعب دور السائق. صاحب المطبعة المسكين تلبّسه خوف من أن يطرح أي سؤال على الضابط العلوي، ولعلّه كان سعيداً أن الضابط لم يستولِ على مطبعته بالمجان، بل دفع السعر الذي طلبه من دون مجادلة. جاءت شاحنة فحمّلت الطابعة إلى عنوان محّدد، كان رفيق آخر ينتظرها بشاحنة أخرى، ونقلها إلى بيت للتنظيم في مخيّم اليرموك. وبدأت الراية الحمراء والبيانات تصدر بشكل أنيق وملفت. لم ندرِ وقتها أن رفيقاً آخر كان يسكن في الشارع نفسه. في حملة آذار، اقتحم رجال الأمن بيت الرفيق الآخر، ولكن الفتى تمكّن من الهرب عن السطح، قافزاً

من سطح إلى آخر، ونجا. قائد الدورية الذي أحس بالإهانة، أمر بتفتيش بيوت الحارة كلّها، وبدلاً عن الرفيق الهارب، وجد كنزاً أفضل: الطابعة وأعداداً من الراية الحمراء والبيانات والخط الاستراتيجي.

عاد أصلان عبد الكريم وفاتح جاموس وعبّاس عبّاس من بيروت في صيف 1977، بعد حملة اعتقالات آذار، بينما كان هيثم العودات (منّاع) في رحلة في شمال البلاد. حين عاد، وجد أخاه معن ينتظره في أول الحارة. سلّم عليه، ولكن معن لم يجبه، بل سارع يقول: "اهرب بسرعة! إنهم ينتظرونك في البيت." نظر هيثم في وجه معن لحظة، ثم استدار ومضى ليعيش حياة التخفّي والملاحقة والتشرّد، مثله مثل كلّ الذين طلبهم الفرع الداخلي في مديرية المخابرات العامة. سيقضي معن العودات الذي أنقذ أخاه هيثم بعد إحدى وثلاثين سنة برصاصة من أحد قنّاصي بشار الأسد، وهو يودّع الشهيد محمد الاكراد في منطقة درعا. كان يسمّي نفسه مندسّ حوران، وسيماً، يزين البياض الجميل بعضاً من خصلات شعره وشاربيه، وابتسامة مقيمة لا تزايل شفتيه في أغلب الأحيان.

سارع أبو حسين وفاتح ومعهما نهاد نحاس إلى لملمة خيوط التنظيم واستئناف العمل. وعاد التنظيم يعمل بإيقاع جيد. ودخل إلى ميدان العمل السري مفهوم "المتخفّي" وهو رفيق (أو رفيقة) مطلوب من الأمن، يعيش حياة غير علنية، باسم جديد وهويّة جديدة، وعنوان غير معروف. كان تزوير الهويّة فناً أتقنه بعض الرفاق. وكانت بطاقات الهوية سهلة التزوير. كان هيثم العودات أول من عمل على تزوير الأختام والوثائق، وأتقن هذا الفنّ أكثر من غيره العميد، زياد مشهور. وحين اعتقل، حمل الراية منيف ملحم، الذي أتقن تزوير عشرات الهويات، ولكنه سيعطيني بعد زمن بطاقة هوية سيئة التزوير، ستلقي بي في قبضة رجال أمن الحدود.

ومن الطبيعي أن المتخفي لا يستطيع أن يعمل لينفق على نفسه، فاضطر التنظيم إلى تأمين بيوت لاستيعاب المتخفين وقدّم مرتبّاً شهرياً، كان 150 ليرة سورية لكلّ رفيق متخفّ. فرض ذلك علينا عبئاً إضافياً، ولم تكن اشتراكاتنا الشهرية (10 ليرات للطلاب ونسبة من الراتب للعاملين) تكفي لكلّ ذلك، فاضطررنا لتلقي المساعدات المالية من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكان ذلك موقفاً نبيلاً من الحكيم (جورج حبش) آنذاك. ولكننا سنرد الجميل في 1982، إبان الغزو الإسرائيلي للبنان.

لذلك كان لا بدّ أن أجد عملاً، إذن. كان ثمّة سببان لذلك. الضغوطات المالية بسبب حملة اعتقالات آذار 1977 ورغبتي في البقاء بجانب كل من أحب في دمشق. كان علي الجندي منقذي. في خمّارة مجدولين التقينا، كما كنا نفعل كل يوم تقريباً عند الظهر، شرحت له وضعي، وسألته إن كان يمكن أن يساعدني. ضحك بقهقهته الصاخبة التي يعرفها كل الصحب، وزاد وجهه احمراراً.

"لا تستطيع مفارقتها، ماهيك؟" سأل بصوت سمعه كل من كان في الخمّارة.

في شارع فرعي ضيّق يتسلل بخبث من جانب كنيسة اللاتين، قرب ساحة النجمة إلى شارع الأرجنتين، كانت تختبئ خمّارة مجدولين. في السابق كانت مطعماً مهمّاً، وربما ملهى أحياناً، ولكنّ الحال حطّ بها إلى درجة الخمّارة، تقدم عرقاً وبيرة بردى المحلية ونبيذاً رخيصاً، وتردفه - إذا أردتَ- بحمّص ومتبّلات وسلطة وبطاطا مقلية، بل، وأحياناً، صينية الدجاج بالفرن. في هذا المكان المنزوي، كانت شلّة الشاعر البهيّ علي الجندي تلتقي في ظهيرة كلّ يوم تقريباً. ممدوح عدوان كان ركناً أساسياً. ممدوح وعلي كانا صديقين لدودين، يتنافسان في الشعر والخمر والنساء.

لم يعرف علي الجندي مهنة سوى الشعر. كان يكره العمل والمكاتب والدوام وضبّاط الأمن والعسكر. حين كان مديراً للدعاية والأنباء في الستينات، حوّل المديرية إلى لعبة، وكان ذلك آخر عهده بالمكتب. طفق بعدها يجوب البلاد والمكتبات والمقاهي والبارات، يكتب الشعر كما يعيش، ويحبّ الناس ببساطة وصدق. كان واحداً من أهم الشعراء السوريين ومَعْلماً بارزاً في المشهد الثقافي السوري في الستينات والسبعينات من القرن الفائت، ولكنه لم يطق أن يصوّر نفسه كذلك. بدلاً عن ذلك آثر حياة تشبه حياة التروبادور. مزيج من بودلير وبايرون وأبي العتاهية، مع لمحات من شوبنهاور، تكسوها سخرية تشبه سخرية أوسكار وايلد، من دون أن يكون أياً منهم. كان يقدّر عالياً شيئين اثنين: الجسد الإنساني والموت. وبين هذا وذاك كان يتسلل نحو أسئلة الوطن والحرية والحب. سمّى ابنه البكر لهب، في تحدّ للانغلاق والتعصّب، لا يستطيع أحد سواه أن يقوم به. لم يَخَفْ في حياته أحداً باستثناء زوجته الثانية القاصّة دلال حاتم، وكان يتباهى بخوفه منها.

أكثر ما كان يكرهه هو الشعر الرديء. كنّا في ظهيرة يوم نيساني ناعس نشرب في أحد مطاعم الربوة، حين كانت في الربوة مطاعم تحفّ بجانبي النهر وتقدّم عرقاً ومشويّات. مرّ بنا شاعر له قلب طيّب ودواوين كثيرة من الشعر الرديء.

"علي!! كنت أبحث عنك." قال الشاعر، وأخرج من حقيبة جلدية عتيقة كان يحملها نسخة من ديوانه الأخير، وأخرج قلماً فكتب على الصفحة الأولى إهداء لعلي. شكره علي وطلب إليه أن ينضمّ إلينا، سوى أن الشاعر كان في عجلة ليسلّم النسخ الأخرى التي بحوزته إلى شعراء ونقاد وصحفيين آخرين. ودّعنا ومضى. وعلي، الودود كحمامة، شيّعه بنظره حتى اختفى، ثمّ رمى بالكتاب في نهر بردى. قال لي: "خ. رجل طيب جداً. ليته فقط يتوقف عن كتابة الشعر."

سألته مرّة لماذا لا يكتب قصّة حياته. نظر إليّ بعينيه المحمرّتين: "لا أملك جرأة هنري ميلر." ولكن من يفعل في عالمنا العربي؟ من لديه جرأة هنري ميللر، ربما باستثناء محمد شكري في "الخبز الحافي"؟ لو أنني أمتلك جرأة هنري ميلر أو محمد شكري، لكان ما تقرؤونه ههنا شيئاً مختلفاً تماماً.

ممدوح عدوان يشبه علي الجندي في كثير من النواحي، ولكنه كان يفتقد إلى غلالة الحزن الشفيف التي كانت تحيط بمرح علي وصخبه كهالة مقدسة. وبينما لم يكتب علي سوى الشعر، كتب ممدوح الرواية والمسرحية والمقالة. وسيذكره السوريون كثيراً لشجاعته في العام 1980، في اجتماع اتحاد الكتّاب العرب مع قيادة الجبهة الوطنية التقدمية، حين ألقى بكلمة جريئة جداً، قال فيها: "أنا أشتغل في إعلام أخجل منه، إعلام يكذب حتى في النشرة الجوية، ويتستر على التجار والمرتشين وشركائهم." وأضاف إن السلطة كاذبة وسبب كذبها الخوف من شعبها، وبسبب الخوف تقمع رأي الشعب وحتى سؤاله.

في أحد اللقاءات شبه اليومية بين علي وممدوح، قرأ لنا ممدوح قصيدة جديدة أهداها لعلي، كان مطلعها:

يألَفونَكَ فانْفُر

إلى وطنٍ قد يهاجر فيك

وينسى تغرّبه

ثم تذوي

كأنك شلت الثرى مرضاً

وعلي الذي أسكره مطلع القصيدة، صاح بممدوح، "بتبيعني هالشطرة

بألف ليرة؟"

كان مبلغ الألف ليرة أكبر مبلغ يمكن لعلي أن يتصوّره، وحين كان يريد أن يشير إلى ثراء أحد التجار أو المتنفذين، كان يقول: "معه شي ألف ورقة،" مفخّماً كالعادة حرف القاف الحلقية السلمونية الأصيلة. وضحك ممدوح بفجور. "فشرت!" قال له.

وفي لقاء آخر، كان علي يعبّر عن خوفه من الشيخوخة، فقهقه ممدوح بصوته العميق القوي، وقال: "متْ الآن وسأكتب عنك قصيدة"، فيرد علي بسرعة، "بل مت أنت وسأكتب عنك ديواناً." وعلى أية حال مات الرجلان. رحل ممدوح باكراً جداً، اختطفه منا سرطان خبيث قبيح، وكان لديه الكثير من الشعر والضحك والمسرح والكتابة والشجاعة ليقدّمها لنا، ولكنه، سُحِب منا بقسوة، من دون أن يتمكن من أن يجعل من الشعر مزاحاً مستحبّاً" كما عبّر محمود درويش حين رثاه.

علي انتظر الموت طويلاً. حين خرجت من السجن، عرفت أنه ترك دمشق وسافر إلى اللاذقية صحبة زوجته الثالثة، التي كانت ممرضته أكثر منها زوجته، وقد منع عنه الأطباء العرق والتدخين والنساء. أي علي سيكون إذن من دون هذه الأشياء الثلاثة؟ التقيته في دمشق صدفة، في بهو أحد فنادق البحصة الرخيصة. اقتربت منه باشّاً ضاحكاً، عانقته وقبلته، وعانقني بلطف ووهن، ولكن كان جليّاً أنه لم يتذكر وقتها ذلك الولدَ الذي كان يجالسه في مجدولين أو الربوة أو الإيتوال، أو يزوره وزوجته دلال حاتم في شقتهما الأنيقة النظيفة في دمشق. وحتّى حين ذكرت اسمي، لم يعنِ ذلك له الكثير. حبست بصعوبة دمعات تقافزت إلى عيني، ثمّ حين ودعّته ومضيت، تركتها تنهمر على خدي وتبلل شفتي بملوحة جارحة.

"لا تستطيع مفارقتها، ماهيك؟"

هكذا إذن قال لي علي. ثم أضاف بعد تفكير قصير:

"اذهب إلى وزارة الإعلام وقابل شخصاً اسمه ياسين الشكر. سأحدثه الليلة."

هنالك أشخاص تراهم مرّة واحدة، فيتركون لديك أثراً لا يمحى على مرّ السنين. ياسين الشكر كان واحداً منهم. استقبلني في مكتبه بابتسامة غامرة وأجلسني على كرسي مريح. كان نحيلاً، أقرب إلى الطول بشارين لطيفين ونظارة على أنفه. استقبلني بلطف وحفاوة. سألني عن دراستي وكتاباتي، ثم سألني إذا كنت أحب أن أعمل في الوكالة السورية للأنباء (سانا). لم ينتظر جوابي، بل رفع سمّاعة الهاتف وطلب رقماً.

"دكتور صابر! كيفك يا رجل. أنا ياسين؟"

لم أسمع الطرف الآخر. ولكن مضيفي ضحك ضحكة قصيرة، ثم أضاف.

"سأرسل لك شاباً عزيزاً، قد تحتاج إليه في الوكالة. يجيد الإنكليزية والعربية بطلاقة."

ثم بضع عبارات مجاملة.

وضع السمّاعة، وقال لي:

"دكتور صابر فلحوط بانتظارك الآن في مكتبه. بتعرف وين سانا"

ثمّ شيّعني إلى باب مكتبه. لم أره بعد ذلك مطلقاً. بعد نحو ثلاثين سنة، التقيت ابنته الناقدة المتميّزة والجميلة، ديمة الشكر، وكانت تهيئ لرسالتها في الدكتوراه في علم العَرُوض. التقينا في مطعم في دمشق بدعوة من أصدقاء مشتركين. كان لها نفس حماس أبيها ونفس لطفه ودماثته، وحضوره أيضاً. ولعلّ ديمة أن تكون آخر من يفكّر في دراسة علم شبه

مندثر: العَرُوض.

كان صابر فلحوط آخر رجل أريد فعلاً أن ألتقيه، فهو بالإضافة إلى ارتباط اسمه باسم حزب البعث على مرّ سنوات طوال، فأنت لا تريد فعلاً أن تلتقي شخصاً هذا بعض من شعره:

أنا صوت الجيل رعاد يهز الكون هادر

أنا نور البعث هتاك حجابات الدياجر

أنا شعب يعربي النجر رعاف البواتر

أنا إعصار عظيم الهول من ثورة ناصر

ومع ذلك، استقبلني الرجل بلطف، وأرسلني إلى أحد رؤساء تحرير الفترات الإخبارية لامتحاني. أعطاني لؤي معروف خبراً وطلب مني ترجمته. ترجمته في دقائق، وأعطيته إليه. نظر لؤي فيّ مطولاً، ورأيته يتأمل بشكل خاص لحيتي وقميصي المجعّد، ثمّ مرّ بعينيه على الترجمة.

بدأت العمل كمحرر أخبار أجنبية في اليوم التالي. بعد أشهر تصاحبنا، لؤي وأنا، وفي إحدى الأمسيات، قال لي: "أتعرف لمَ وافقتُ على تعيينك؟"

"لم؟"

"كرهت لحيتك، وقلت في نفسي: "سأعاقبه، وأقبله في هذا الجحر الكريه".

ثمّ أغرب في ضحكة عريضة.

كنت يومها أضع على خدي لحية كثّة وشاربين مكسيكيين رفيعين.

كانت اللحية من متطلّبات الثورة. لا يمكنك أن تكون ثورياً حقيقياً من دون لحية كثة، تكمّل كتابك الذي تحمله في يمناك ومع الجريدة وعلبة السجائر الرخيصة.

رغم أن صابر فلحوط بعثي قديم، إلا أنني سرعان ما اكتشفت أن السلطة الحقيقية في وكالة سانا كانت في يدي رجل أقرب للأمّية والمخابرات، اسمه قاسم ياغي. سوريا عامرة بالصحفيين أشباه الأميين ومساعدي المخبرين، ولكني لم ألتقِ بواحد تنقصه المهارة واللغة والأسلوب واللياقة كقاسم ياغي. ولسوف يطردني الرجل من الوكالة بعد أقل من سنة.

***

لا يزال دويّ صفقة الباب يطنّ في أذني

كان العمل في سانا مملّاً، لولا بعض المسرّات. من هذه المسرّات رئيس الفترة لؤي معروف ورئيس الفترة الآخر صفوان غانم، البعثي الذكي الذي صار مديراً للإذاعة قبل أن يتحوّل إلى دبلوماسي. ومن المسرّات أيضاً أن مبنى الوكالة (القديم في السبع بحرات) كان قريباً جداً من بيت أميرة شيحا حيث كنت أهرب من العمل أحياناً لأزور تلك العائلة النبيلة، فأجد لديها على الدوام صدراً مفتوحا وطعاماً طيباً وحناناً لا يُحدّ. ومسّرة صغيرة أخرى كان يضيفها بائع فلافل على عربة، كان يقف قبالة الوكالة في مدخل حديقة الأرسوزي، وكان يقدّم أفضل سندويشة فلافل عربي في كلّ المدينة. ولكنّ التي كانت تضيء الوكالةَ بكلّ أقسامها بحضورها الدافئ وابتسامتها المتخابثة وجمالها السوري الأصيل كانت سيّدة أخطأت الطريق فغدت صحفية في الوكالة، وسأسّميها هنا باسم الدلع الذي كنا نناديها به: هيفونة. كانت هيفونة تفيض أنساً وحبوراً على كلّ الوكالة. حين لم تكن تكتب خبراً (ونادراً ما كانت تفعل) كانت تنتقل من قسم لقسم، حاملة معها روحاً خفيفة تغمر المكان بالألفة والمودّة. زارني مرّة في الوكالة الشاعر الفلسطيني الراحل أحمد دحبور، فوقعت في هواه، ولم تخفِ ذلك على أحد.

أعرف أحمد منذ طفولتي. كان صديقاً لأخي سحبان في مدينتي الجميلة الوادعة حمص. كان أحمد في الثانية من عمره حين حمله أهله، هرباً من

الموت، من مدينة حيفا على الساحل الفلسطيني وجاؤوا به إلى حمص. وقد صار حمصياً أكثر من معظم الحماصنة الذين عرفتهم، ولكن حيفا وفلسطين بقيتا في أعمق نقطة في وجدانه. كان يزور أخي سحبان في بيتنا في قلب المدينة، قادماً من مخيم الفلسطينيين جنوب حمص، محمّلاً بقصائده وقلقه وأسئلته، وكان يقرأ لأخي آخر قصائده، ويسمع منه آخر قصصه، ثم يغوص الفَتَيانِ في نقاش حميم حول الشعر والحداثة والوجودية. كلاهما، أحمد وسحبان، حمل أسئلة أكبر من وعيه، وحاول الإجابة عنها، من دون جدوى. وكنت أجلس في طرف غرفة الضيوف، أستمع إلى الشعر والقصة والنقاش، من دون أن أتنفس، مخافة أن يطلب مني أخي مغادرة الغرفة. عرفت أحمد أكثر في تشرين الثاني / أكتوبر 1973، كان سحبان قد عاد لتوّه من الجبهة مثخناً بجروح حارقة. كنت في زيارة إلى خالتي الجميلة الوحيدة، رجاء، القريبة من بيتنا، حين قرع الجرس. كان أبي وراء الباب. لا بد أن أمراً كبيراً جدّاً قد وقع، لكي يأتي الأب بنفسه، يطلبني في ساعة متأخرة من المساء.

"جاء سحبان"، قال لي. فانخلع قلبي، وسألته:

"به شيء؟"

"إنه حي. هذا هو المهم."

جريت صوب البيت، وقفزت الدرجات وثباً إلى الشقة، ونظرت إليه: كان وجهه وعنقه ويداه سوداء كلّها، ومن وراء السواد، برقت عيناه اللطيفتان، وافترت شفتاه عن ابتسامة متعبة، عانقته، ولكن أمي سحبتني بلطف، لكي لا أزيد في أوجاعه.

بعد أيام زارنا أحمد دحبور، ليطمئن على صديقه. كان وضع سحبان قد تحسّن، وراح يحدّث أحمد عن الحرب وعن إصابته وكامل طاقم الدبابة التي كان يقودها.

كان لسحبان تأثير كبير عليّ في طريقة النظر إلى الأمور وعيش الحياة يوماً بيوم. علّمني كتابة القصة وساعدني في نشر قصصي الأولى. وتعلّمت من قصصه رشاقة العبارة وقوة الكلمة وكيف تتحول الجملة إلى نسمة تدخل روحك من دون استئذان. ساعدتني ابتسامته الدائمة وضحكه العريض على تقبل مصاعب الحياة. وساعدتني شجاعته في ثلاثة حروب على فهم أن لأي قضية ثمناً ينبغي التمتع بدفعه. أصيب سحبان في 1967 عندما ترك الجامعة ليدافع عن العاصمة. أرسله البعثيون من دون تدريب ولا تغطية إلى الجبهة فحلّقت فوقه طائرات إسرائيلية، وهو وصحبه في العراء، وبدأت تصليه بوابل من نار، فأصيب في قدمه. وفي أيلول الأسود (1970)، أرسله البعثيون من جديد ليدافع عن الفلسطينيين. كان وقتها قائد دبابة، ولكن لم يشتبك في القتال مباشرة وعاد هذه المرّة من دون إصابة، ومن دون أن ينصر الفلسطينيين، سوى أنه عاد وفي جعبته حكايات كثيرة أو مشاريع حكايات، وضعها في قصصه التي سيجمعها وينشرها في أول مجموعة قصصية له: "الموت بفرج".

وفي 1973 أصيبت دبابته ورشم كامل جسمه بوشم من الشظايا، لا يزال بعضها في عنقه حتى اليوم. تعلّمت من سحبان الشجاعة: لم يكن أبداً عضواً في أي حزب معارض، ولكنه عارض سلطة البعث في كل كلمة وسلوك له. واستدعي مراراً للتحقيق ثم اضطر إلى الهرب من دمشق في ليلة ليلاء، تاركاً خلفه دار النشر الخاصة به وكتبه وبيته، إلى قبرص ليعيش فيها سنوات. أثناء سجني لم يتخلف مرة واحدة عن زيارتي، وفي كل زيارة كان يبثّ فيّ القوة والأمل والقدرة على الصمود. ولكن سحبان ليس رجل سياسة. هو رجل الحياة: في كل ما يفعله ثمة دفقة حياة. كان أول من صحبني إلى ديسكوتيك وأول من صحبني إلى خمارة فريدي وأول من عرفني على امرأة. وكان مدخلي إلى كوكب من الأصدقاء. عن طريقه تعرفت إلى فاتح المدرس وسعد الله ونوس وناديا خضور ومصطفى الحلاج وصخر فرزات وعائشة أرناؤوط ونزيه أبو عفش وأحمد دحبور

وتوفيق الأسدي ونبيل حفار وكان مدخلي لمعرفة دمشق وقد جئت إليها في السابعة عشرة خائفاً، مرتبكاً، وتائقاً في آن معاً، فصحبني في شوارعها وحاراتها ومكتباتها ومقاهيها وباراتها. ولكن أهم من ذلك، دلني إلى سُبل التقاط الروح في الأشياء. روح الكلمة، وروح المقهى، وروح اللوحة، وروح فنجان القهوة والجريدة والمنضدة التي تضع عليها كتابك بعد أن تنتهي من قراءته ليلاً ثم تأوي إلى النوم.

وقال سحبان لأحمد، "لقد رأيت مياه طبريا. رأيت فلسطين، يا أحمد." وأحمد، الولد الفلسطيني كما يدعو نفسه، وكما دعوناه جميعاً، كان يبتسم بشيء من الحزن وشيء من الفرح، ويقول: "أنت رأيت فلسطين، وأنا ههنا قاعد."

في الخامسة عشرة نشر أحمد أول قصيدة له بعنوان " همسات "في مجلة ثقافية حمصية، أيام كانت حمص تصدر أربع جرائد يومية ومجلات متخصصة في الأدب والثقافة والشعر، وفي الثامنة عشرة نشر أول مجموعة له "الضواري وعيون الأطفال" في حمص أيضاً، ثمّ توالت مجموعاته التي كان في كلّ منها يجرّب عالماً جديداً من اللغة والصورة والتركيب.

أذكر، أن الجبل العظيم كان يمشي

والمطر الذي يروّي القمح لا يبلل الأطفال

أذكر أن جارنا الحمّال

توجّني بكعكة،

وقال لي: كن ملكاً في الحال

وهكذا وجدت نفسي ملكاً... والذكريات جيشي

أذكر أن الجبل العظيم كان يمشي

من شفتيْ أبي إلى خيالي

وكانت الثمار في سلالي.

كم أثرى هذا الرجل حياتي. حين خرجت من السجن، أرسل إليّ من تونس رسالة يهنئني ويدعوني إلى تونس، حيث كان مقر منظمة التحرير الفلسطينية، وحيث عمل أحمد مديراً لدائرة الثقافة الفلسطينية ورئيساً لتحرير مجلة البيادر. لم أذهب بالطبع، ولكن حين مات أحمد في عام 2017، أحسست بالغبطة لأن الرجل الذي لم يستطع الموت في حمص، مات في فلسطين، قريباً من مسقط رأسه حيفا.

شاعر آخر سيلعب دوراً كبيراً في ذائقتي الشعرية تعرفّت إليه أثناء نقاهة سحبان من جروحه وحروقه في الحرب. هو نزيه أبو عفش الذي جاء أيضاً يزور الجريح ويواسيه. كنت قرأت لنزيه مجموعته "حوارية الموت والنخيل" وأغرمت بها. نزيه وأحمد ولدا في نفس السنة 1946: أحمد في حيفا ونزيه في مرمريتا بوادي النصارى بحمص. في دمشق، توطّدت علاقتي بنزيه كثيراً، وصرت أزوره في بيته في جادّة الخطيب مرّة أو مرّتين أسبوعياً، نشرب العرق ونأكل ما تجود به يدا زوجته اللطيفة ناديا. تحتاج إلى صبر غريب، لكي تحبّ نزيه، ولكن ما إن تألفه حتى تتولّع به. قد تجلس إليه سهرة بأكملها لا تنبسأن بأي كلمة، ولولا السماحة التي تضفيها ناديا على الجلسة، فستشعر بأنك ضيف ثقيل. ولكنني كنت أعرف أنني لم أكن ضيفاً ثقيلاً، لسبب واحد: لو كنت كذلك لما خجل نزيه من طردي من منزله، وقد فعل ذلك مراراً مع آخرين. يحبّ نزيه الصيد، ويعزف على العود، ويدندن أحياناً أغنية وديع الصافي "عم حلّفك بالغصن يا عصفور"، ويعتني بعصافيره حين لا يكون صريع الشقيقة، ولكن حين يصاب بها، فهو يحقن نفسه بإبرة فيها مزيج من

الفاليوم ومسكّن نيسيدينا القوي، لكي يهدأ الوجع الصارخ في صدغيه قليلاً. وحين سأله في منزله شاعر ملتزم كيف يقتل العصافير بينما يهتمّ بها في بيته، انفجر في وجهه قائلاً: "إي سيدي، أنا بقتل العصافير بالبرية وبدللها ببيتي. عندك مشكلة؟" والشاعر الذي جرحت كبرياءه ترك كأسه وصحنه المليء بالباذنجان المقلي، وخرج غاضباً. ولم يحاول نزيه منعه.

كان نزيه يسكن بيتا صغيراً جداً (كان أساساً كراجاً خاصّاً في بناية) في جادة الخطيب القريبة من فرع الأمن الداخلي التابع لإدارة المخابرات العامة، وهو الفرع المتخصص بملاحقتنا في رابطة العمل، وفي كلّ مرّة كنت أزوره، كان قلبي ينخلع من مكانه حين أمرّ بجوار الفرع، وأتخيل رفاقي يعانون في داخله.

رافقت نزيه في تحولاته الشعرية من قصيدة الستينات الغنائية التي تُعنى بالجملة أكثر من الصورة والبناء، أكثر من جدّة الفكرة، إلى عالم خاص أوجده شعراء السبعينات، بمن فيهم رياض الصالح الحسين وبشير البكر ومنذر المصري ومرام المصري ومحمد خير علاء الدين وحسان عزّت. ونزيه، الذي كان في طليعة هذه القافلة، أوجد معاني جديدة لله وللعشق وللبلاد وللبشر العاديين، وبعث هذه المعاني في كلمات بسيطة، ولكنها مؤلمة حدّ القبح:

"يكفي...!"

إكراماً "لنا" سأقولُ: "يكفي!"

ليسَ لأنهُ يكفي

بل، فقط، لنرتاحَ مِن حَملِ كلِّ هذه الأسلحةِ وهذه التوابيت

ونتركَ البابَ مفتوحاً لِـما نحن في أَمَسِّ الحاجةِ إليه

مِنْ عقاقيرِ الندمِ، والمغفرةِ، والـ.. نِسيانْ).

مثل معظم أبناء جيله، قرأ نزيه سارتر وكامو وكولن ويلسون، وكان عنده أكثر من غيره أسئلة قلقة لا يجد أجوبة لها، وكسرته من الداخل، كما كسرتنا جميعاً، هزيمة حزيران، بيد أنه لم يلجأ للصراخ الخارجي، انكفأ إلى الداخل. نادراً ما كنت تلتقي نزيه في مقهى أو خمّارة، ولكنك قد تلمحه أحياناً يسير في الليل وحيداً أو برفقة صديق أو صديقة، يتحدّثان أحياناً بالكلمات وأحياناً بالصمت. ونزيه سريـع العطب، وقد كسرته الدماء التي أريقت في بلاده، فارتبك ووقف مع القاتل ضدّ القتيل. ونزيه الذي كنّا نتداول دواوينه كمنشورات للحرية، نزيه الذي وقّع على بيان الـ 99، نزيه الذي كتب مرة "كم من البلاد أيتها الحريّة"، قال قبل أشهر فقط: «قبّح الله الحرية، أنا أخاف من هذه الحرية، أحتاج اليوم نظاماً، أريد ستالين، أريد القيصر إيفان الرهيب." انكسار نزيه كسر فيّ شيئاً ثميناً لا يستطيع أن يعوّضه أحد.

إذن، أحبّتْ هيفونة أحمد دحبور الشاعر الوسيم بعينيه الناعستين وشاربيه الأسودين اللطيفين. كانت هيفونة سيدة سورية من آخر جيل متحرر في سوريا، قبل أن تلفحنا جوائح التعصب والسلفية والتديّن الأجوف والتنافس الرخيص في الله، وهيفونة العاشقة عطّرت بعشقها مبنى الوكالة الكئيب ولوّنته بألوان ربيع دائم. كانت تنتقل من مكتب إلى مكتب، تحمل معها نسائم منعشة وضحكات صادقة، وتبثّ فينا أملاً وردياً فاتحاً. وحين وقعت في الحب ازدادت جمالاً وطلاوة، وتفتحت مسام جسمها ففاضت سعادة وغبطة. ثم، حين لسبب، انتهت العلاقة بينهما، خمدت حرارة وهجها لأيام. جاءتني وقالت لك: "صاحبك طلع ...." وأتبعت عبارتها بكلمة غير محببة. ولكنها عادت بعد أيام تضحك وتداعب وتنثر الفرح كالورد، سوى أن في عينيها، غابت تلك اللمعة الخبيئة واللذيذة التي كانت تكحلهما.

كان عملي في الوكالة محرّر أخبار أجنبية، وهو يعني حرفياً؛ سرقة الأخبار من الوكالات ونسبتها إلى سانا. فخبر زيارة رئيس وزراء الهند إلى اليابان يأتي من طوكيو أو نيودلهي باسم سانا، على الرغم من أن الوكالة لم يكن لديها مراسلون هناك. وكنت آخذ خبر رويترز أو الأسوشييتد برس، فألوي عنقه وأنسبه إلى سانا، مع ذكر اسم الوكالة الأصلية مرّة واحدة عرضاً. وحين كنت أشتكي للؤي معروف، كان يقول لي بكلبيته المحبّبة: "لم تشغل بالك؟ كم تقبض في اليوم الواحد؟ ترجم خبرين أو ثلاثة، فهم لا يستحقون أكثر."

بسبب أفكاري الماركسية ركزت أكثر على أخبار الأنظمة العنصرية في أفريقيا: روديسيا (زمبابوي) وجنوب أفريقيا وناميبيا. وغطيت بحماس أخبار الأسقف ديزموند توتو والزعيم المناضل وقتها روبرت موغابي. لم يخطر ببالي آنذاك أن المناضل اليساري الذي عشقته سوف يدمّر بلاده، بعد طرد العنصريين من زمبابوي، ويقتل ويعذّب مواطنيه ويتشبث في الحكم نحو أربعة قرون، أسوة بكثير من المناضلين اليساريين الذين تقلّدوا مقاليد الحكم في كوريا وكوبا واليمن الجنوبي.

كنت في نوبة مسائية، برفقة لؤي معروف وهيفونة وصحفية شقراء جميلة نسيت اسمها ومخبر مداوم سمين يعرف الإنكليزية أفضل بقليل من معرفتي باليابانية، يجلس إلى مكتبه وبجانبه قاموس المورد، يبحث فيه عن كلمات الخبر كلمة كلمة، ثم يترجم الخبر ويعطيه لرئيس الفترة، الذي يعيد صياغته بصمت قبل أن يرسله. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، حين رنّ الهاتف على مكتب رئيس الفترة. رفع لؤي السماعة، وأصغى للحظات، ثمّ وضع السمّاعة، والتفت إلي، وقال: "الحجّي يطلبك".

الحجي كان رئيس التحرير قاسم ياغي. وهو لم يطلب أياً من المحرّرين لخيرٍ أبداً. التفتت هيفونة إليّ، وقالت نصف ضاحكة نصف قلقة:

"بتضلّك بتشاغب؟ ما رح تنضبّ؟" اغتصبت ابتسامة وارتقيت الدرج إلى مكتب رئيس التحرير، فدخلته راسماً شبح ابتسامة على وجهي. جميعنا كان يعلم أن المخابرات، وليس وزير الإعلام، هي من عيّن الرجل في منصبه. كان الحجّي في بدلة ركض jogging suit (على الرغم من أنه لم يركض في حياته)، وبادرني من دون كلمة ترحيب:

"من الذي حرّر هذا الخبر؟"

وأعطاني ورقة التيليبرنتر. كان الخبر عن أحد انتهاكات حكومة الأرجنتين العسكرية التي جاءت بانقلاب عسكري قاده الجنرال خورخي رافائيل فيديلا قبل سنة. أثناء تحريري للخبر، أضفت عبارة "حكومة الأرجنتين الفاشية". وأجبته: "أنا فعلت"، فسحب الورقة مني من جديد وقال لي:

"أين وردت كلمة فاشية في الخبر؟" لم يكن الحجّي يجيد العربية ناهيك عن الإنكليزية.

"لم تَرِدْ."

فصاح وشرر يتطاير من عينيه وزبد يتقاذف من فمه: "كيف تضيف كلمة غير موجودة في الأصل؟"

قلت له إنني محرر وكالات ولست مترجماً وإن المحرّرين يضيفون أحياناً، كما نفعل حين نبدّل كلمة إسرائيل كلما وردت إلى "الكيان الصهيوني". ولكنه لم يكن يصغي. كان يُزبد. صاح بي:

"أتعرف ماذا فعلتَ الليلة؟ لقد خلقت أزمة دبلوماسية بيننا وبين بلد

صديق. لقد اتصل سفير الأرجنتين بوزير الخارجية محتجاً، واتصل وزير الخارجية بوزير الإعلام، الذي اتصل بي (لسبب ما لمّ يمر الوزير عن طريق المدير العام كما تتطلّب اللياقة)، وسحبني من سريري في منتصف

الليل."

لم تفد حجّتي بشيء. قال:

"كنت أعرف أنك يساري، ولكن أن تكون شيوعياً شيء آخر."

قلت مدافعاً: "إذا تقصد ماركسي فأنا لا أنفي."

"بل أقصد شيوعي. ولا مكان للشيوعيين في سانا."

"ولكن الشيوعيين في الجبهة،" قلت في محاولة أخيرة للدفاع.

حجّة أخرى لم تفد بشيء.

"انزل. خذْ أغراضك وغادر، ولا تعد غداً. تعال آخر الشهر واقبض أجر الأيام التي داومتها."

استدرت لأخرج، مشيت خطوة أو اثنتين. توقفّت عند الباب، واستدرت نحو الرجل الذي بدا لي وكأنه يتشاغل بقراءة شيء ما.

"وكالة أنباء من لون واحد ليست وكالة. إنها مدرسة حزبية،" قلت.

لم أنتظر ردّه، فتحت الباب وخرجت، وصفقت الباب خلفي، فأصدر في سكون الليل دويّاً لا يزال يطنّ في أذني.

***

بينما كنّا نعشق ونغنّي كانت أخواتنا يتحجّبن

خرجت من مبنى وكالة "سانا" متمهّلاً. كانت الساعة تقترب من الأولى صباحاً، وغلالة حزن خريفية تلفّ حديقة الأرسوزي التي كانت مقفلة ككلّ حدائق دمشق التي تُغلق ليلاً في وجه العشاق والمشرّدين والمثليين وكلّ المهمّشين في المدينة. سرت على سور الحديقة باتجاه المصرف المركزي والسبع بحرات. كانت الباصات قد توقفت، ولم أعد أستطيع الحصول على رفاهية "تاكسي" آخر الليل وقد طردني قاسم ياغي من الوكالة. فقرّرت السير على قدمي إلى غرفتي عند أم وليد في الزبلطاني.

سرت في شارع بغداد شبه المقفر، ماراً بجامع لالا مصطفى باشا، متجاوزاً تقاطع شارع الثورة، محاذياً مقبرة الدحداح، ثم حين وصلت إلى ساحة التحرير، راودتني غواية أن أزور جبرا في باب توما بدل أن أذهب مباشرة إلى البيت في الزبلطاني. انعطفت يميناً باتجاه باب توما، عبر جادة أنور العطّار. كان المشوار وهواء الخريف قد خفّفا قليلاً من توتّري، وحين دلفت حارات باب توما القديمة، كنت قد بدأت أسخر من قاسم ياغي ووكالة سانا، ورأيتني أقول بصوت مسموع: "ومع ذلك فإنها فاشية، حكومة الأرجنتين فاشية"، وانتابني إحساس بالبطولة يشبه إحساس غاليليو وهو يصيح في مسرحية بريخت: "ومع ذلك فإن الأرض تدور".

دخلت في عالم باب توما السحري. لم يكن باب توما قد تحوّل بعد إلى تجمّع من مقاه ومطاعم سقيمة لا علاقة لها بروح الحارة القديمة ولا بنمط حياتها اليومي. وانعطفت في شارع رشاد جبري الذي سيعرف بعد سنوات باسم حارة "فينو روسو" (Vino Roso) نسبة إلى أول مطعم سيفتتح في الحارة. سرت خطوات قليلة ووقفت تحت شبّاك جبرا. وكان الضوء مطفأ. جبرا، جبرائيل غربي، كان نائماً. والساعة تجاوزت الثانية صباحاً بقليل.

قبل أشهر، عرّفني جميل حتمل على جبرائيل غربي، الذي عرّفني على عزّام دهبر، وعن طريق الاثنين، انفتح أمامي عالم من السحر والرهافة والألفة: حفنة من طلاب الطب المشاغبين وأصدقائهم، كانوا يأوون في الأمسيات إلى شقّة عزام دهبر الأنيقة في برج الروس.

كان جبرا (لم أسمع أحداً يناديه باسمه الكامل جبرائيل سوى أمه) حمصياً أصيلاً، بلهجته وجمال روحه ورهافته. تحسّ بأنه لا يستطيع أن يكذب حتى إن أراد. سأسمعه كثيراً وهو يتساءل: "وين السبيرتو؟" في تسميته الخاصة للخمر، وسأراه وهو يتأكد من وجود البندورة، عشقه الأبدي، على الطاولة. ومنذ سنته الثالثة في الطب، كنا نعتمده طبيبنا الخاص، نستفتيه في كلّ أمراضنا ولم يخذلنا مرّة. يتمتّع جبرا بتلك الخاصية التي تجعلك ترتاح بمجرّد أن تراه. ولئن كان صديق الجميع، إلا أن كلاً منا كان يحسب أنه صديقه المقرّب. كان إشبين جميل حتمل في عرسه ومكمن أسرار عزام دهبر، أما أنا فكان يطيب لي أن أعتقد أنه أفضل أصدقائي.

عزّام كان ابناً لطبيب (لعلّه أول طبيب) في بلدة يبرود "المتعربشة" كعنزة على الجرد. ولكن دكتور أنيس دهبر لم يكن طبيباً فحسب. كان وجيهاً ومرجعاً اجتماعياً وحلّالاً للمشكلات في أوقات الفراغ في المدينة والمنطقة ككل. حين توفي عام 2004، كان عدد المتحدثين من

المسلمين أكثر من وجهاء الكنيسة في المدينة. عزّام كان مارداً وسيماً، وكان ينشر حوله دائماً جوّاً من الحبور. يتدفّق بالحديث كنهر، وحين تحاول إسكاته، ترتفع مياه النهر كما لو أنها صادفت سدّاً. كان أكثرنا ثقافة، يقرأ الأدب والفلسفة وتاريخ الفن، ولكن روحه كانت تسكن الموسيقى. كان دليلي للموسيقى الكلاسيكية بعد معلّمي الأول في هذا المجال الدكتور الحمصي سمير ضاهر. وهو الذي بيّن لي الفرق بين الموسيقى الخفيفة والموسيقى الصعبة.

"دع جانباً بور أليس (Pour Alice). اسمع فاغنر؛ اسمع رباعيات بيتهوفن المتأخّرة"، قال لي مرّة، ثمّ أسمعني الرباعي الوتري رقم 16 لبيتهوفن. حين يستمع عزّام إلى مقطوعة موسيقية، لا يهدأ. يضجّ جسمه كلّه بالحياة، ويتحرّك بقلق، كأنه يخشى أن تكون هذه آخر مرّة يستمع فيها إلى هذه المقطوعة.

ولكن ليس الموسيقى فحسب. كان لعزّام ولع بالسينما أيضاً، وهو من عرّفني مثلاً إلى أفلام إنغمار بيرغمان. ولا أزال أستشعر حال الشلل الذي انتابني، وأنا أشاهد فيلم "سوناتا الخريف" وأتابع الحوار المخيف بين إيفا (ليف أولمان) وشارلوت (إنغريد بيرغمان). أم وابنتها تعيدان اكتشاف كنه علاقتهما وحدودها وتدخلان في تفسيرات غريبة للحب والحياة والموت والمرض، وقريباً منهما كانت أخت إيفا وهي من ذوي الاحتياجات الخاصة وأمها تسأل "لماذا لا تستطيع أن تموت؟".

في أحد الشوارع التي تصبّ في أو تتفرّع من ساحة برج الروس في القصاع، تقف بناية من طبقتين، وسط صفّ من البنايات اللطيفة الأنيسة. وفي الطبقة الثانية، كانت شقّة عزام. حين فُتح الباب ودخلت إليها أول مرّة، دلفت إلى عالم مختلف عن كلّ العوالم السابقة التي دخلتها، عالم من مودّة وألفة وصخب، عالم من ثقافة وفنّ وفتنة، سرعان ما صار جزءًا من حياتي.

إلى جانب فادية وجبرا وعزام وجميل حتمل ونجوى الحلبية اللطيفة التي ستصبح زوجته، ثم طليقته خلال سنوات، كان بسام شاغوري الشيوعي السابق (المكتب السياسي) الذي نجا من الشيوعية والقومية وحزب البعث حين تخلّى عن كلّ شيء، وغادر إلى باريس وهو يعرف أن لا عودة له إلى دمشق. وفيه تعرّفت إلى ليلى الوفائي، المرأة الفاتنة التي تغزوك لحظة تراها فلا تستطيع منها فكاكاً ما دمت حيّاً، وغادة قندلفت التي تفيض أنوثة ولطفاً وحناناً، والتي كانت تشكّل لنا جميعاً ملجأ آمناً لهمومنا وأحزاننا، لكنّ مشكلتها أنها كانت أبعد منالاً من كلّ أحلامنا. أحسّت بميل إلى أصلان عبد الكريم وأحسّ بميل نحوها، ولكن أياً منهما لم يكسر الصمت أو يقُم بالخطوة الأولى.

شقّة برج الروس كانت مسرحاً للقاءاتنا وحفلاتنا في رأس السنة وأعياد الميلاد وسهرات الخميس والعطل، وفي مساءات الشتاء حين نهرب من برد بيوتنا ومطر الشوارع إلى دفء الشقّة ودفء روّادها، نشرب العرق ونأكل الحمّص ونستمع إلى شوبان أو نغني "بيتي أنا بيتك" لفيروز ونبكي، أو نردد بكلّ العزم الذي يمكن لشباب في أوّل أعمارهم أن يملكوه أغنية "شيّد قصورك عَ المزارع"، وحين نبلغ عبارة "عمال وفلاحين وطلبة؛ دقّت ساعتنا وابتدينا"، يصل صوتنا إلى العرش السماوي فيهزّه، من دون أن يهتز عرش الطاغية في دمشق.

دعاني عزام مع جبرا يوماً إلى شقته، ثم اقترب من جهاز التلفزيون، وأزاح ستارة صغيرة في الخزانة التي تحت الجهاز، فبدا من وراء الستار جهاز آخر يشبه مسجلة "الكاسيت" الكبيرة.

"ما هذا؟" سألته.

ابتسم بمزيج من الفرح والخبث، كعادته حين يريد أن يفاجئنا بشيء جديد: "فيديو".

وكالسحر تماماً، وضع شريطاً يشبه شريط "الكاسيت" إنما أكبر حجماً، في الجهاز، وشغّل التلفزيون، ثمّ كبس زراً أو اثنين. على شاشة التلفزيون، بدأ فيلم لم أعد أذكره الآن، ورحنا، جبرا وأنا ننظر إلى الشاشة بذهول.

"شو يعني؟"

"يعني بعد الآن، ستأتي السينما لعندك في بيتك. ويعني أنك تستطيع أن تأخذ لنفسك شريطاً مصوراً متحركاً، بدل الصور الثابتة وتعرضه هنا".

لا أذكر الآن كيف كان ردّ فعل جبرا، ولكنّ شعوري كان كشعور جدي حين رأى جهاز الراديو أول مرّة. ذهول مطبق. ولم أرَ لردّ الاعتبار لكرامتي سوى أن أهتف بعزّام:

"بورجوازي صغير!"

وشهدت شقّة برج الروس كثيراً من العشق وكثيراً من الصدّ وكثيراً من الضحك وكثيراً من البكاء. فيها شهدنا علاقات تنشأ وأخرى تهدّم، وفيها شهدنا تطور العلاقة الدرامية بين جميل حتمل ونجوى، وبين جبرا وليلى، وبين عزّام وريم، وفيها أيضاً تركتني فاديا بعد ثلاث سنوات أوّل مرة. أخذتني من يدي، بعد ظهر يوم حزيراني، إلى الغرفة الداخلية، وقالت لي "في شي لازم نحكي فيه". أحسست بقبضة تسحق قلبي، وتسحبه إلى أسفل، ونظرت إليها بتوجّس. وقالت لي إنها تعرف أنها لن تجد شخصاً أفضل مني وأنها تقامر بكل شيء، ولكنها لا تستطيع الاستمرار معي. شيء قويّ في داخلها يبعدها مني. كانت 4 سنوات بالتمام قد مرّت منذ بدء علاقتنا وسنتان منذ زواجنا الغريب.

"ولكننا لا يمكن أن نطلّق. لا أستطيع أن أعود إلى بيت أهلي، ليس قبل التخرّج،" أضافت. كانت قد أنهتْ سنتها الرابعة في كليّة الطب. وكنت في سنتي الثانية من التخفي والملاحقة. وأحسست بحفرة كبيرة تفتح

تحت قدمي. كنت غاضباً ومذهولاً وحزيناً. لم يكن بيننا خلاف أو شجار أو سوء فهم. سوى أن فاديا كانت شديدة القلق والملل، لا تحبّ التعوّد على حال، تريد أن يكون في كلّ يوم ما يفاجئها. وأنا بعد سنتين من الملاحقة والتخفّي، ما عاد لدي ما أفاجئها به.

شقّة عزام، على الرغم من كلّ فضلها علينا، كانت دليل قوقعتنا وانفصالنا عمّا حولنا. مجرّد زمرة طلاب يقرأون لوركا ونيرودا ويشاهدون أفلام السينما الفرنسية الجديدة، يذهبون إلى المسرح، ويستمعون لفاغنر وشوبرت، ويحلمون بالثورة، وتمرّ الأيام من قربهم كأنها تتحاشاهم أو كأنهم يأبون الانغماس فيها. وبينما نحن نعشق ونغنّي ونحلم، كان الشارع يتأسلم شيئاً فشيئاً، وأخواتنا يتحجّبن بينما أمهاتنا سافرات، والانقسام المجتمعي يتعمّق شيئاً فشيئاً، والمشاعر الطائفية تتأصّل شيئاً فشيئاً، وعلاقتنا بالناس تتهمّش شيئاً فشيئاً. سافر السوريون إلى السعودية وعادوا يرتدون الدشداشة القصيرة، ووراءهم نساء مبرقعات، وبدأت ظاهرة الدروس الدينية في الجوامع والبيوت، ومدّ الإسلاميون، بموافقة ضمنية من نظام حافظ الأسد أصابعهم ببطء، لكن بثبات إلى شتّى نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية.

لم يخطر في بالي مطلقاً أن أعمل على تنظيم شباب شلّة برج الروس في رابطة العمل، ولعلّ في ذلك شيئاً من الأنانية، لقد كنت أحبهم لدرجة لم أشأ معها أن أرى أياً منهم يتأذّى، وكنت أريد أن يكون عالمهم في منأى من السياسية، ليكون لي واحة استراحة محارب. سوى أن جميل حتمل فعل، ونظّم جبرا وعزّام في الرابطة، من دون أن يعلمني. وبشكل أو آخر، ستدور هذه الحلقة حول الرابطة. فاديا وأنا، نجوى باعتبارها زوجة جميل، جبرا وصديقته التي تخترق القلب كرصاصة، وعزام وصبيته الصغيرة التي تنشر حولها غنجاً فتاكاً وعطرَ كلووي الآسر. جميعنا كنا ندور في مدار الرابطة، وجميعاً، نعرف ذلك ولكن لا نقوله، إلى أن انفرط

العقد. في صباح نيساني من عام 1979، قرّرت لجنة العمل توجيه رسالة إلى اللاذقية. لم يكن في الرسالة ما هو مهمّ وملح، وحاولت أن أمنعها. "يمكن تأجيلها،" قلت، "فلماذا نعرّض رفيقاً للخطر، ولكن الرفاق أصرّوا، واختاروا لإيصالها جبرا. سافر جبرا إلى اللاذقية، وفي الموعد المحدّد رأى شاباً يقف وبيده جريدة تشرين وبيده الأخرى ليرتان معدنيتان، يلعب بهما بأصابعه. تلك كانت علامة الأمان. اقترب منه وسأله: "من وين طريق الشام؟" وأعطاه الشاب الجواب المطلوب، فسلّم عليه بحرارة، ولكن الشاب سرعان ما أزم يده، وخلال ثوان انقض عليه جيش من الرجال فطوقوه وكبّلوه وساقوه في سيارة مغلقة إلى الفرع العسكري في اللاذقية. في اجتماع لجنة العمل، أخبرتهم عن اعتقال الرفيق المراسل. وكان ردّ الفعل محايداً، وقال أصلان شيئاً مفاده أن هنالك دوماً ثمناً ندفعه. ولكن حين أخبرته -بنوع من التشفّي- باسم الرفيق المراسل: جبرا، امتدّت غيمة من الحزن على وجه أصلان عبد الكريم، الذي نادراً ما كان يظهر انفعالاته، وشفى حزنه بعض حزني.

كان عيد ميلاد جبرا في 5 شباط/ فبراير، بعد يوم واحد من عيد ميلادي. كنت قرّرت أن لا أحتفل بعيد ميلادي عام 1980 وأن أؤجلّه إلى الغد لنحتفل بعيد ميلاد الرفيق الغائب. ولكنّ جبرا فاجأنا جميعاً وحضر عيد ميلاده. في 4 شباط، أفرج حافظ الأسد عن جميع رفاقنا باستثناء العسكريين. كان يوماً بهيجاً جداً وحزيناً جدّاً بالنسبة إلى جبرا. ففي أثناء الاحتفال، كان عليّ أن أنتحي به ركناً في غرفة ثانية، بينما يشرب الصحب في الغرفة الأولى ويبتهجون. في الغرفة المنعزلة، أخبرتُه بصوت منخفض حاولت أن يكون هادئاً ما استطعت، أن حبيبته قد هجرته. لم يستوعب الحكاية:

"ليش؟" قال بدهشة.

"ما في ليش يا صديقي. ما فيه لوم عليها".

لعقود أربعة، سيصير عزّام وجبرا أفضل أصدقائي، وستستمرّ صدقاتنا على الرغم من البعد الجغرافي وعلى الرغم من فترة سجني. وحين التقيت بهما وبجميل حتمل أول مرّة في مطار أورلي بباريس بعد خروجي من السجن استأنفنا مباشرة حديثاً كنّا علقناه قبل 10 سنوات، ولا يزال الحديث مستمرّاً.

نظرت إلى شبّاك جبرا المغلق المظلم. على الأرجح أنه قد نام. فكّرت أن ألتقط حصاة صغيرة، فأضرب بها زجاج النافذة كما كنّا نفعل، لكي لا نزعج صاحب البيت أبو إسكندر، ولكنّني عدلت عن ذلك. دعه! قلت لنفسي، ثمّ استدرت وسرت ثانية نحو بيتي بالزبلطاني.

***

عن الفاتن علي الشهابي وكومونة اليرموك 1978

لم يكن جبرا إذن في بيته، فغذذت السير نحو غرفتي عند أمّ وليد، وغرقت مباشرة في نوم عميق. في اليوم التالي، كنت أجالس صديقاً في قهوة الإيتوال، حين دخل القهوة شاب مديد وسيم، في عينيه دماثة ومودّة. سلّم الوارد على جليسي بحرارة، ونظر إلي، مادّاً يده:

"آدم متوّج،" عرّف عن نفسه.

"وائل السوّاح،" أجبت.

"وائل السوّاح؟ قرأت بعض قصصك." قال بلهجة ساحلية مخفّفة، وجلس معنا. سألني عن أحوالي، فتبرّع صديقي وقال له إنني قد فصلت قبل ليلة من عملي في وكالة سانا.

"ماذا؟" سأل آدم بلهجة المستنكر، ثم غرق في التفكير لثوانٍ، وسألني: "يعني هلق بدون شغل؟" هززت برأسي، قال: "ما رأيك أن تعمل في مؤسسة الإسكان العسكرية؟"

بدا الأمر لي برمّته نكتة سوريالية.

"مؤسسة الإسكان؟" سألت: "ماذا أفعل هناك."

"لا تهتم. أقول لك لاحقاً." ثم سأل؟ "أين تسكن؟" وأجبته، فقال مسرعاً: "انتظرني غداً عند مفرق القابون في ساحة العبّاسيين. الساعة السادسة والنصف صباحاً."

ماذا يمكن أن يعمل طالب في قسم اللغة الإنكليزية أو قاصّ أو صحفي في مؤسسة الإسكان العسكرية؟ أفقت صباح اليوم التالي أبكرَ من عادتي، وسألتني أم وليد: "خير انشا الله؟" ابتسمت وقلت لها: "ادعي لي!" وسرت نحو ساحة العباسيين، متشكّكاً. كنت أرجّح أن الرجل لن يأتي. وصلت الساحة وتوقفّت عند مفرق القابون متململاً. خلال دقائق وقفتْ بجانبي سيارة تويوتا جيب، ومدّ آدم يده من شباك السيارة ملوحاً.

"وائل! تعال! اركب!"

وركبت. نهبتْ بنا السيارة الأرضَ نحو المنطقة الصناعية التابعة لمؤسسة الإسكان العسكرية بعدرا، وترجّلنا قرب بناء مسبق الصنع أشبه بالبرّاكة العسكرية. ارتقينا سلماً مرتَجَلاً إلى الطابق الثاني، ودخلنا مكتباً فيه طاولتان.

"هذا مكتبك." قال وهو يشير إلى طاولة معدنية فارغة.

"وهذا الأخ ربيع، زميلك. أنت الآن مدير مكتب المبيعات."

كان ذلك أشبه بالمهزلة. طالب في كلية الآداب، يكتب القصة والشعر والمقالة، يغدو، بعد أقل من ثماني عشرة ساعة من فصله من عمله كصحفي، رئيساً لمكتب مبيعات المنطقة الصناعية التي تنتج كلّ شيء لمؤسسة الإسكان العسكرية. كانت معرفتي في الحسابات والتجارة

أفضل قليلاً من معرفتي بالذرّة واللغة الهيروغليفية. شرح لي آدم ما كان عليّ أن أفعل، وقال لي إن "الأخ ربيع" سيشرح لي الباقي. ولكن الأخ ربيع لم يفعل، لأنه كان يريد الطاولة الفارغة لنفسه، ولا يريد رئيساً له يصغره بسنوات ويبدو كهيبي خارج من ثورات 1968 لتوّه أكثر ما يشبه مدير مكتب للمبيعات.

لا يمكنك أن تخفي الأمور في مدينة كدمشق. بشكل أو بآخر، يعرف الجميع كلّ شيء تقريباً عن كلّ شخص. كان آدم قريباً من جوّ اليسار السوري، ولعلّ له قريباً كان في إطار رابطة العمل، والمرجّح أنه كان يعرف أو يحدِس أنني في الإطار نفسه، فأراد أن يقوم بتصرّف بطولي ما. كان آدم يراوح في مكان ما بين الطيبة والخبث، بين النظام والمعارضة، بين المدينة والريف، وبين الذكاء وضيق الأفق. تغْلِب عليه ريفيته وطيبه أحياناً، ثمّ سرعان ما يستردّ وجهه السلطوي ويتذكّر أنه ابن النظام وليس ابن المعارضة، فيتصلّب ويتشدّد.

في مكتب المبيعات، كانت النقود تسيل بين يدّي كمياه النهر. يأتي المشترون إلى مكتبي فأكتب لهم إيصالاً بطنٍّ من الحديد، أو متر من الخشب، أو بلاطاً أو دهاناً، وأقبض الثمن، ثمّ أودعه مساءً في خزينة المحاسب. لقاء ذلك كنت أقبض خمسمائة ليرة سورية كمرتّب شهري وفوقه مائتا ليرة تعويض اختصاص. سبعمائة ليرة كان مبلغاً ضخماً في نهاية السبعينات. ولذلك، حين عرض عليّ صديقي الجديد فاروق العلي أن نستأجر بيتاً في مخيّم اليرموك، وافقت على الفور.

تعرّفت إلى فاروق العلي عن طريق فاديا. كان زميلها في كليّة الطب. شاب أسمر بشعر أسود أجعد ولحية سوداء جعداء وعينين جميلتين فيهما قلق دائم لا يهدأ. جاء فاروق من قرية الطيبة في سهول حوران ليقتحم دمشق وكلية الطب والسياسة والسجون وقلوبنا جميعاً في غضون سنوات. ككلّ أبناء جيلنا، جرّب الشعر والعشق والسياسة، ولكن الأخيرة

هي من استغرقته أكثر. عرّفني فاروق على أخيه محمود، الشاب الودود الذي في عينيه بحر من الود والدفء، وعلى برهان الزعبي، رجل يختزل الشهامة في شخصه، وأحمد الرشيدات، طالب الطب الذي كان يجيد الدراسة والمزاح. أربعة حوارنة وحمصي واحد. تركيبة غريبة أسّست مشاعيّة اليرموك الأولى في نهاية السبعينات. بيت أرضي مستقلٌ في حارة فرعية تصل ما بين شارعي اليرموك وفلسطين في مخيم اليرموك، وتصبّ في ساحة النجوم، التي احتلّها باعة الخضار والملابس الرخيصة وأحذية البلاستيك، وفي طرفها تقبع سينما النجوم، التي توقّفت عن عرض الأفلام مع قيام الحركة التصحيحية، وتحوّلت إلى ملجأ تقصده الجرذان والقطط على حدّ سواء.

ودّعْتُ أم وليد بأسى، فهي لم تكن صاحبة بيت تؤجّر فيه غرفة، بل كانت منقذتي حين كاد أن يُرمَى بي على قارعة الطريق بسبب صورة لغيفارا على الجدار، وكانت أيضاً أمّاً وصديقة، لطالما نبّهتني إلى ضرورة الاهتمام بصحتي وعدم التأخر في السهر. وحين كنت أعود آخر الليل ووجهي يضجّ دماً من الخمر، كانت تهتف بي: "خفّف، خفّف، يا ابني. منشان صحتك." حملْتُ حقيبتي وكتبي، وبمساعدة فاروق، أخذنا شاحنة سوزوكي صغيرة إلى المخيّم. كان في البيت أربع غرف وصالة. أعطاني الشباب الغرفة التي كانت مخصّصة أساساً لتكون غرفة الضيوف (الاستقبال)، لها باب على ردهة البناء وباب آخر على الصالة. فاروق احتلّ الغرفة الصغيرة المطلّة على الصالة أيضاً، بينما لسبب لا أعرفه آثر برهان ومحمود وأحمد التشارك في غرفة النوم الكبيرة، وبقيت غرفة نوم أخرى فارغة. ليس تماماً، فنادراً ما كانت تمرّ ليلة لا يشغل الغرفة فيها شاغل. رتّبت أشيائي وكتبي، وأخفيت كراريس رابطة العمل في أحد الدروج، ولكنني أبقيت الدرج منفرجاً قليلاً، بحيث يستطيع الفضولي أن يرميَ نظرة فيجد الكراريس ونسخاً من جريدة الراية الحمراء. ولم أفاجأ تماماً حين رأيت الكراريس نفسها تتلصّص علينا من رفّ ما في

مكتبة فاروق، وقد ألقيت فوقها جرائد قديمة، في محاولة لإخفائها، ولكن من دون جديّة فعلية في الأمر، وكأننا تواطأنا على إظهار المشترك المخفي بيننا. كان يلذّ لنا أن يشكّ الآخرون في انتمائنا السياسي، أن يخمنّوا أن هذا الشاب هو من يوزّع البيانات في الحارات ويسبّب الأرق للسلطة. وكان الأجمل أن يظلّ الشك والتخمين في دائرة الشكّ والتخمين، تماماً كفاتنة تكشف قليلاً فقط عن جزء من جسدها، مرخية فوقه غلالة رقيقة، تستر العيوب إن وُجدت، وتترك للخيال أن يكمل الصورة. لذلك، على الرغم من أننا كنا نحدس جميعاً أننا بشكل أو بآخر ندور في الدائرة نفسها، فلم نتحدّث مباشرة عن قضايا التنظيم إلا لاحقاً، حين جرت اعتقالات أيار 1978، وتكشّفت الكثير من خيوط التنظيم.

خلال أيام تحوّلت الشقّة إلى خلية موّارة بالحركة والنشاط. صنعنا نسخاً من المفاتيح بعدد الأصدقاء، وكثيراً ما كنت أدخل البيت فأجد جميل حتمل أو فرج بيرقدار أو خالد درويش أو جمال سعد الدين أو علي الشهابي أو ياسين أبو خضور في البيت وربما أحضروا معهم أصدقاء آخرين لا نعرفهم، وقد صنعوا شاياً أو قهوة، أو اشتروا بيرة باردة، وغرقوا في نقاش حام حول موضوع سياسي ما، من دون أن يكون بينهم أيَ منا، نحن أصحاب البيت.

"كومونة اليرموك"، هكذا سميّنا بيتنا في المخيم، تيمّنا بكومونة باريس. ولم يكن في التسمية تجنٍّ كبير، ففي تلك الشقّة كان الجميع متساوين وفوضويين وأحراراً. أسّسنا جريدة حائط لا محرّر لها. يستطيع أي ساكن أو زائر كتابة موضوع وتعليقه على الجريدة إذا كان فيها مساحة فارغة، كما يستطيع أن يزيل أي مقال مرّ عليه أسبوع، ويعلّق مادته مكانه. وعلى صفحة تلك الجريدة، كنّا ننقد أفكار بعضنا بعضاً بحماس وعاطفة قويين.

على صفحات هذه الجريدة، نشر فرج قصائده ونشرتُ وجميل قصصنا.

وعلى صفحة الجريدة العريضة تناولنا قضايا سياسية ونظرية حسّاسة، من تلك مثلاً قضية دلال مغربي، الفدائية الفلسطينية التي قادت عملية "كمال العدوان في آذار 1978،"وهي في سن العشرين، حيث استولت مجموعتها على باص إسرائيلي، واتجهت صوب تل أبيب لتحرير الأسرى الفلسطينيين. قام جنود إسرائيليون بقيادة إيهود باراك بالتصدي لدلال ومجموعتها، ففجّرت دلال الباص وقاتلت حتى قُتلت هي وكلّ من معها. وعلى الرغم من كلّ عواطفي الثورية، كنت، ومعي فاروق ضدّ مثل هذه العمليات التي تستهدف مدنيين، بما في ذلك اختطاف الطائرات. على المنقلب الآخر كان شريكنا في السكن اليساري الأبدي برهان الزعبي، الذي أسمى خليته في الرابطة "خلية دلال مغربي"، والشاب التروتسكي المتحمّس نور الدين بدران، ومعهما الشاب الفلسطيني الذي سيمضي بعد ذلك ما يقرب من نصف حياته في سجون الأسد: علي الشهابي.

من بيننا جميعاً، كان علي الشهابي متفرّداً في كلّ شيء. لم يكن عليّ جسداً. كان جُموحاً وتمرّدًا وقلقاً. لم يكن يجيد الجلوس المستوي على الكرسي، بل كان يميل يمنة ويسرة وينحني إلى الأمام ليقترب منك أكثر لكي تصل إليك أفكاره بسرعة أكبر، وهو يتدفّق في الكلام حتى تتراكب الجمل بعضها فوق بعض. وباستثناء سلامة كيلة وعلي الكردي لم أعرف فلسطينياً سورياً طغت سوريته على فلسطينيته كما فعلت سوريّةُ علي. سيُعتقل علي كثيراً جداً وطويلاً جداً. ولدتُ وعليّاً في نفس السنة، ولكنني دائماً أشعر بالضآلة أمام تضحياته وقوّة حجته وفصاحة لسانه وتهدّج صوته وهو يحكي روحَه مع الكلمات. لم أعدْ أذكر عدد المرّات التي اعتقل فيها نظام الأسدين عليّاً. لعلّ أول مرة كانت في 1975، حين كان دون العشرين، وأمضى في المعتقل حوالي العام، ثم اعتقل مرة ثانية في العام 1982 في الحملة الشرسة على حزب العمل الشيوعي، على الرغم من أنه كان قد ترك صفوف الحزب. في السجن، راح يعلّم السجناء اللغة الإنكليزية، ويداري فجيعته بابنته الصغرى ليديا، التي

قضت وهو في السجن. بعد تسع سنوات أفرج عن علي وخرج مع جملة من رفاقه سنة 1991، وكنت أنا بينهم. وفي حين آثرتُ ومعي كثير من الناجين السقف المنخفض، كان علي يرفع سقفه وصوته دوماً، ويدور بين منظمات حقوق الإنسان الدولية ليوصل أصواتَ المعتقلين الذين نسيهم العالم، فتمّ استدعاؤه مراراً إلى الأجهزة الأمنيّة وتوقيفه بضعة أيام، إلى أن اعتقل ثالثة عام 2006 بسبب توقيعه على إعلان دمشق- بيروت ومحاولته تشكيل تيار سياسي سوري جديد تحت اسم "سوريا للجميع"، وكان بين الذين تمّ تعذيبهم بوحشية على غير ما عومل به الموقّعون الآخرون على البيان، وكأن السجّان كان يقول له "وما شأنك أنت بسوريا؟" في 19 كانون الثاني/ديسمبر 2012، داهم جنود النظام السوري منزل علي الشهابي، واقتادوه فجراً إلى فرع فلسطين، ولا يزال منذ تلك اللحظة مختفياً قسرياً لا ندري عنه شيئاً. وفي الحرب الشرسة التي شنها النظام على مخيّم اليرموك، تعرّض بيت أسرة علي، كما غيره من بيوت المخيم، للدمار، فهجره ساكنوه، وماتت أم علي، التي كانت أمّاً لنا جميعاً، حسرة على ابنها وأحفادها وبيتها ومخيّمها، وعلى فلسطين وسوريا، التي كانت تعتبرها وطناً ثانياً، أما أخته الصديقة لطيفة الشهابي فلا تزال بين باريس ودمشق تحاول كلّ جهدها الحصول على "شقفة خبر" عن أخيها الفاتن علي. ولا خبر!

***

كان يشرب المسرح مع قهوة الصباح، ويتنفسه مع الهواء

على أن الجدل والحوار والنقاش المرتفع النبرة لم تكن كلّ حياتنا في الكومونة. فالكومونة كانت أيضاً مرتعاً للشعر والمسرح والجمال. من بين زوار الكومونة الدائمين كان فرج بيرقدار وجميل حتمل وبشير البكر وخالد درويش. ومن بينهم أيضاً كانت الدفعة الأولى من طلاب المعهد العالي للفنون المسرحية. تعرّفت على هذه الدفعة عن طريق الصديق والفنان الحمصي الأصيل غسّان سلمان، الذي سيفجعنا برحيله المبكر في التسعينات. تعرّفت إلى غسّان في فرقة فرحان بلبل، أستاذ جيلنا الأول في حمص. كنت وغسّان عضوين في فرقة فرحان المسرحية، وكان للرجل تأثير جارف علينا. تعرفت عليه عندما كنت في الخامسة عشرة في نادي دوحة الميماس الحمصي، حين كنت أعدّ نفسي لأغدو ممثلاً مسرحياً باهراً. غير أنني لم أقف على خشبة المسرح أبداً، فالمسرحية الوحيدة التي تدربت عليها، وكان لي دور صغير فيها، لم تظهر على الخشبة. علّمني فرحان أن الثقافة جهد وتعب وحفر في الصخر، وأن المسرح حياة والحياة مسرح. عنه أخذت ستانسلافسكي وتذوقت إبسن وأحببت جيرودو وآنوي وكاسونا ولوركا. تعلّمت منه الحوار والإصغاء، وتأمّلت نبله ووسامته وأخلاقه وترفعه. تأثرت باحترامه العميق للمرأة وانتمائه الحقيقي للعاديين من البشر ورفضه الدائم للسوبرمان. فرحان

ليس شخصاً بل عالماً كاملاً، ومن "معطفه" تخرج كثيرون: فطمة ضميراوي ونجاح سفكوني وأحمد منصور وصباح ضميراوي وعمر قندقجي ومنصور قندقجي وعبد القادر الحبال وعفراء بلبل وزينب سواح وغيرهم كثير. ولا تزال رائحة "العيون ذات الاتساع الضيق" في أنفي، وذائقة "الممثلون يتراشقون الحجارة" تحت لساني. لا تزال "لا تنظر من ثقب الباب" و"لا ترهب حدّ السيف" تراوداني كلما رجعتْ إليّ حمص أو رجعتُ إليها. في السجن، استرجعت "الممثلون يتراشقون الحجارة" وأخرجتها، في مهجع مساحته 24 متراً مربعاً، يقبع فيه أربعون رفيقاً. ويومها أخرجنا فرحان من الزنزانة إلى عالم من نور وبهجة.

غسّان سلمان كان يشرب المسرح مع قهوة الصباح، ويتنفسه مع الهواء. كان يتحدث بجسده وبروحه وبعينيه. وحين يكون على خشبة المسرح كان يحتلّ الخشبة بأكملها، على الرغم من أنه لم يلعب دور البطولة إلا نادراً. لكي ينضمّ إلى المعهد العالي للفنون المسرحية الذي افتتح في عام 1977، كان عليه أن يزوّر تاريخ ميلاده، فالعقل الفذّ للبيروقراطي الذي أنشأ المعهد وضع حداً أعلى لعمر الطلاب المتقدمين، وكان غسّان أكبر من تلك السن بسنة أو اثنتين.

في مساء يوم صيفي بحمص، جاءني مرّة يقول: "إن لم أُقبَل ستنتهي حياتي المسرحية."

"وماذا ستفعل؟" سألت بتعاطف وقلق.

"لا خيار لدي: سأزوّر سنة الولادة."

وفعل! لا أدري كيف، ولم أسأل. ولكن غسّان كان بين الدفعة الأولى لطلاب المعهد العالي التي تخرجت سنة 1981. لكي أحضر مشروع تخرجه، غامرت مرّة أخرى بالظهور في مكان علني كان يعجّ بالفنانين ورجال المخابرات، وكنت متخفياً ومحظوراً عليّ ذلك. كانت المسرحية

"سهرة مع أبي خليل القباني" تأليف الراحل سعد الله ونوس وإخراج الراحل فوّاز الساجر. وحين دلفنا إلى كواليس المسرح نهنئ الطلاب المتخرجين، صاح بي غسّان بقلق، "شو عم تعمل هون؟ واحد من كل تنين هوني مخابرات. روح! روح!" نشوة العرض والانتصار والتخرج وتحقيق الحلم لم تمنعه من القلق عليّ. حين خرجت من السجن، كان غسّان ككل أصدقاء دفعته قد تحوّلوا، لكي يشتروا الخبز، عن المسرح إلى التلفزيون. وغسّان الذي لم يحب التلفزيون أبداً، أصيب باكتئاب وقلّ إنتاجه الفني. تحوّل إلى الإخراج والقراءة والطعام اللذيذ الذي كانت زوجته تجيده. ولكنه في النهاية لم يعد يحتمل، فرحل في نوبة قلبية، وترك خلفه المسرح وزوجته وأطفالاً ثلاثة وجيشاً لا نهاية له من المحبّين.

عرفني غسّان على جمال سليمان وعبد الحكيم قطيفان ووفاء موصللي وأمانة والي وأيمن زيدان وطلال نصر الدين. كلّهم كانوا أصحاب بيت في كومونة اليرموك. أقربهم إليّ كان جمال سليمان. لاحقاً سيصبح الممثل الأبرز في الدراما السورية. كان جمال يمرّ بنا بدماثته وأناقته وذرابة لسانه، فيترك في البيت بعد ذهابه عطراً خفيفاً وإحساساً بالبهجة. أيمن زيدان كان يعصف بالبيت عصفاً، رامياً بنكاته يمنة ويسرة، وهو يقلّد أستاذه ومعبوده المخرج الراحل فوّاز الساجر، أو يحكي لنا عن مغامراته في بعض القرى النائية أثناء عمله ممثلاً في فرقة سعد الدين بقدونس، وكيف هرب والفرقة في آخر لحظة من جمهور كاد أن يبطش بهم. يستطيع أيمن أن يحوّل أيّ مأساة إلى مهزلة، وهو في الحياة اليومية أمهر منه على خشبة المسرح أو التلفزيون. كانت أمانة والي تصحب أيمن أحياناً فتخفّف من غلوائه وتنشر عبقاً من أنوثة لطيفة ومودّة أصيلة.

يلعب الحظّ أحياناً دوراً أكبر من الموهبة. ومن حسن حظّ خرّيجي الدفعة الأولى من المعهد العالي للفنون المسرحية أن كان أستاذهم الأول

فوّاز الساجر، الذي ألهب خشبات مسرح دمشق والمدن السورية الأخرى بعروض لم يعرف المسرح السوري مثيلاً لها من قبل أو من بعد. غادر فوّاز الساجر قريته النائية في ريف منبج شرقي حلب، ابناً لبدوي أعطاه الصلابة وقوّة البأس وشركسية أعطته البشرة الفاتحة والعينين العسليتين الجميلتين والقدرة على التحمّل. وعاد من موسكو إلى دمشق في مطلع السبعينات كفاتح للمدينة. كان يحمل في داخله ناراً مشتعلة بالفن والحب والثورة. قدّم في منتصف السبعينات مع فرقة المسرح الجامعي مسرحية "رسول من قرية تميرة للبحث عن قضية الحرب والسلم"، فأذهل السوريين بمسرح لم يكونوا يعرفونه، وتعامل مع مجموعة من طلاب الجامعة الذين سيتحوّلون جميعاً إلى ممثلين من الصف الأول: عباس النوري وبسام كوسا وسلوم حدّاد. وفي عام 1977 أسّس مع سعد الله ونوس المسرح التجريبي وقدّم مسرحية "يوميات مجنون" عن نصٍّ لنيكولاي غوغول، وقد حوّل الساجر ممثلاً رتيباً مملاً كأسعد فضة إلى وهج متحرّك على خشبة متحرّكة في صالة متحرّكة. على أن الثورة المشتعلة دائماً في قلب فوّاز لم تجد لها مساحة كافية في مدينة دمشق، وفي ظلّ مؤسسات كانت تقمع كلّ محاولة حقيقية للتجريب أو التغيير، ففجأنا جميعاً في ساعة مبكرة من صباح أيّاري حزين، حين انفجر ذلك القلب الذي كان أكبر من مدينة. جاءني خبر وفاته وأنا في سجن صيدنايا، فانتظرت حلول الليل، لآوي إلى فراشي وأنتحب بصمت، ألّا أزعج الرفاق من حولي.

بعد إطلاق سراحي التقيت بجمال سليمان وأيمن زيدان. كان جمال محافظاً على ودّه القديم وجمال روحه وثقافته. جلسنا مطوّلاً في قهوة فندق الشام، نشرب البيرة ونراجع أنفسنا وذكرياتنا ونحكي عن المسرح والتلفزيون والأخلاق التي تغيّرت. أيمن في المقابل، نظر إليّ وكأنه لم يعرفني. كان وأمانة والي يعرضان على مسرح الحمراء، وقد ذهبت إليهما خلف الكواليس لأهنئهما. وحين ذكّرته بنفسي، نظر مرّة أخرى، وقال

مجاملاً: "آه، طبعاً.. طبعاً.. شو أخبارك؟". وسرعان ما انشغل عني بمن هو أهم. أما أمانة فعانقتني مطولاً بضحكتها المجلجلة، على الرغم من أنني لم أكن واثقاً أنها تذكّرتني بالفعل. لم أرَ أيمن بعد ذاك. لقد صار صاحب شركة عملاقة للإنتاج التلفزيوني، ولكنه لم يرتقِ أبداً عن مرحلة سعد الدين بقدونس. جمال بالمقابل، استمرّ بالارتقاء وبتثقيف نفسه، وحين اندلعت الثورة، وقف مع السوريين، بينما اختار أيمن من كان يقمعهم على مرّ العقود. ويظلّ عبد الحكيم قطيفان أصدق الجميع. دفع سبع سنوات من حياته في سجون الأسد، ولم يفقد يوماً ابتسامته ولا تألّقه ولا مودّته لمن حوله.

شهدت الكومونة كثيراً من قصص الحب والانفصال والهجر. في الكومونة تعرّف فاروق على هند قهوجي، ليصيرا زوجين لسنوات، قبل أن ينفصلا، بسبب خلاف في الطباع. فجأة وجدت هند نفسها في جوّ عاصف لم تألفه، ولكنّها أحبته وانغمست فيه بكلّ كيانها، ودفعت ثمناً كبيراً لذلك: سنوات في السجن. وفي الكومونة، تعرّف محمود على صبيته العربينية اللطيفة التي ستغدو زوجته، قبل أن ينفصلا بسبب السجن. وفي الكومونة أيضاً أشرقت، كشمس الربيع، صبية نحيلة ولطيفة في سنتها الجامعية الأولى، جاءت من مدينة قرب دمشق، تفوح منها رائحة نظافة لم تكن مألوفة في وسط طلاب الجامعة. لم تكن حنان جميلة بالمعنى الحقيقي للكلمة. كانت نحيلة أقل بقليل من اللازم، بثديين صغيرين وتقاطيع غير أنثوية. في عينيها الصغيرتين الضيّقتين اللتين تتسعان بفعل نظارة طبية حزن شفيف مقيم، ولكنّ فيهما أيضاً طغياناً لا يقاوم، سحراً هادئاً مسيطراً، كان يجعلها قادرة على أن تلوّن أي مكان بحضورها. وقع أكثر من مقيم أو زائر في هواها، ولكنها رفضتهم جميعاً، بلطف وحزم، من دون أن يجعل أياً من طلابها يغضب أو يعاديها.

"لا أحب الجنس،" كانت تقول، وتضيف: "صدّقوني!"

وصدّقناها، ولكننا لمناها حين كانت تقول إنها تكره أغنية "يا حلو شو بخاف إني ضيّعك" لفيروز، لأنها تقول فيها "اعملني متل خاتم دهب في اصبعك". "لا أريد أن أكون خاتماً بيد أي شاب،" قالت لنا، "وخاصة خاتم دهب"، أضافت. ونحن فتحنا أفواهنا فاغرين. كانت حنان تنشر نوعاً من الدفء والراحة المشوبة بقلق لذيذ في كلّ مكان توجد فيه. وأحببناها جميعنا بالتساوي، ولكنها فجأة بعد ذلك وقعت في غرام أحد زوّار الكومونة، وعلى موقف الباص، حين كانت وأحدَ طلّابها السابقين ينتظران، أمسكت بيد الشاب، وكتبت على راحة يده حرفي H و A في رمز لاسمها واسم حبيبها الجديد. وشعرنا جميعاً بالغيرة من هذا الفاتح البوهيمي الذي قنص قلب أميرة الكومونة. لم تَطُل علاقتهما، على أي حال. حين انفصلنا، فاديا وأنا، دخلتُ وحنان في علاقة عنود جامحة، علاقة كانت تحاذي دوماً حافّة الهاوية. نهوي فيها ثمّ نحلّق ثانية من جديد. ومعها تعرفّت على أسرار مدهشة في الجسد البشري الباذخ لم أكن أدركها من قبل. ولطالما أسرتني أكثر من أي شيء آخر رائحة النظافة المنبعثة دائماً من جسدها اللدن اللطيف.

ومن الكومونة، خرجت ذات مساء آذاري ماطر من عام 1978، وأنا أرتدي بدلة جديدة أنيقة وقميصاً أبيض منشّئ وربطة عنق، وبيدي باقة من أزهار عصافير الجنّة، وأخذت سيّارة أجرة، متجهاً إلى طلعة شورى في المهاجرين لأطلب يد فاديا. كانت ظروف فاديا في البيت تزداد تعقيداً ويزداد التضييق على حرية حركتها. وكانت الخطبة وعقد القران الحلّ الوحيد المتاح أمامنا. كان الرفاق قد ساعدوني في لبس البدلة وعقد الربطة التي عقدناها وحللناها عشرات المرّات قبل أن ترضي الجميع، ثمّ شيّعوني إلى الباب في مظاهرة تشبه زفّة العريس. التقيت بأخوتي فراس ومها وسحبان في بيت فراس، ثم ذهبنا جميعاً إلى بيت فاديا. بعد

ساعتين خرجنا، يضغط على إصبعي مَحْبَسٌ (خاتم)، فيترك لدي شعوراً مستفزّاً ولذيذاً. لا أدري كيف وافق إخوتي على مرافقتي للخطبة. كنت شاباً في الثالثة العشرين، بلا بيت ولا عمل مستقر ولا مستقبل واضح. ولست أدري كيف وافقت أسرة فاديا على الخطوبة. ضبطنا أخوها عبد الرحيم، وكان شاباً دمثاً شديد التديّن، سيعدم بعد سنوات على يد حافظ الأسد، ونحن نفترش "بُرطاشاً" حجرياً على مدخل بائع سندويش، نلتهم شطيرتين ونتضاحك، ففقد أعصابه وافتعل معي شجاراً، وبدأ يضيّق على فاديا، ولم يكن من حلّ سوى الخطوبة.

"خطبة وكتب كتاب، بس!" هكذا قالت لي فاديا. وهكذا قلت لإخوتي. فمضينا نطلب يدها ونقرأ الفاتحة ونتفق على المهر (عشرة آلاف معجّلة، ولكن غير مقبوضة، وخمسة عشرة ألف مؤجّلة).

أسفل نزلة شورى، افترقنا إخوتي وأنا. ولم يكن قد بقي معي أي نقود بعد أن دفعت ثمن الخاتمين وطاقة أزهار عصافير الجنة والبدلة، فقررت أن أركب في سرفيس "سوزوكي" عائداً إلى المخيّم. وكانت شاحنات السوزوكي وقتها تعمل كسيارات للنقل العام، فتحشر في صندوقها الخلفي عشرة أشخاص يجلسون في حضن بعضهم بعضاً. وصلت موقف الساحة، حيث مفرق الكومونة، ونزلت من الشاحنة، بيد أن السائق لم ينتظرني لأكمل نزولي الأنيق، وسار قبل أن أضع قدمي الثانية على الأرض، فسقطت على الأرض الموحلة، وتلوّثت بدلتي الجديدة، الوحيدة، الأنيقة بوحل المخيم. مشيت صوب البيت، في عيني خجل وغضب. كان الرفاق ينتظرون بترقّب. حين دخلت، شهقوا جميعاً، وصاح بي برهان وهو ينظر إلى بدلتي المتّسخة:

"شو عملوا فيك بيت اللاذقاني؟ قلّعوك؟"

عرفت كثيراً جداً من الأصدقاء، ولكني لم أعرف أحداً بطيبة برهان

الزعبي وصدقه وإخلاصه. اتفقنا كثيراً واختلفنا كثيراً، ولكنه يبقى دائماً الرجل الذي عرفته في أواخر 1977، وعشت معه نحو سنة، ثمّ اعتقل نحو عقد ونصف. لم نكن متفقين سياسياً. كان أمْيَلَ دائماً إلى النقاء الثوري، وكنت أمزج هذا النقاء بشيء من البراغماتية. وحين خرج من السجن، زرته في درعا عدة مرات. شربنا عرقاً وتذكرنا الكومونة والبيانات والنقاشات، وهو يضحك تلك الضحكة التي سمعتها منه أول مرّة قبل أربعة عقود، وفُتنت بها منذئذ. هنالك أشخاص لا تحتاج حقّاً لأن تراهم كلّ يوم لتعرف كم أنت قريب منهم. برهان واحد من هؤلاء.

حين أعود اليوم إلى أربعة عقود خلت، أشعر بشيء من السخرية من جيلنا وأوهامه ومآلاته، ولكنني أشعر أكثر بشيء من الغبطة الداخلية الخفية، شيء، ربما، من الفخر. فبينما كان الجنس والخمر والشعر والفن يستغرقان جزءًا من حياتنا، فإن جزءًا كبيراً آخر كان منغمساً بقضايا الثورة والوطن والفقراء. من بين كلّ سكان المخيم وزواره، لم يبق في سوريا إلا برهان ومحمود. مات ياسين الراضي وياسين أبو خضّور ونور الدين بدران وعدنان محفوض، وأُخفِي علي الشهابي قسراً، وسافر فاروق وأحمد وحنان وفاديا وخالد درويش وفرج بيرقدار.

***

في أمسية باردة نادرة، خَلَتْ فيها الكومونة من كثير من أهلها وروّادها. كنت أقرأ في سريري، ومن مسجّلة كاسيت عتيقة، كانت تتناهى، وكأنْ من بعيد جداً، "بوليرو" موريس رافيل، التي تتصاعد من دون توقّف من الجواب الهادئ إلى القرار الهادر، حين رنّ جرس الباب، رنات طويلة. قفزت من سريري كملسوع، وكان أوّل ما تبادر لذهني أن الأمن يداهم البيت. حمدت الله أن البيت كان خالياً وفي الوقت نفسه تمنيت لو أنّ معي أحداً من الرفاق يشدّ أزري. فتحت باب الشقة الداخلي وارتقيت الدرجات إلى السطح. اقتربت من الإفريز بتلصص، ومددت طرفاً من

رأسي لأرى من الطارق. لم يكونوا رجال الأمن. كانت فاديا. وكان معها حقيبتان كبيرتان.

انحدرت سلّم الدرج ثلاثاً، ثلاثاً. وفتحت الباب:

"فاديا!" هتفت.

"خلص، ما بقى فيني. تركت البيت. جئت لأقيم معك"

لم تُفِد الخطبة ولا المحبس ولا أزهار عصافير الجنة ولا عقد القران في تخفيف ضغط الأخ عليها. وفي الداخل كانت دوّامة البوليرو توالي تصاعدها نحو اللانهاية.

***

أحصنة يوسف عبدلكي والأحصنة المضادّة

ولكن ذلك كلّه لم يكن بلا ثمن. لم يكن في الكومونة هاتف طبعاً، فجاءنا من أقصى المدينة جميل حتمل في مساء يوم أياري دافئ. دخل علينا البيت اقتحاماً، وقال لنا قبل أن يرمي السلام:

"أخذوا يوسف." ثم تهالك على أقرب كرسي وهو يلهث، ألماً وحزناً وغضباً. كان وضع جميل الصحي يتدهور شيئاً فشيئاً، ويؤثر عليه بشكل كبير أي انفعال، ولكن الانفعالات كانت تلاحقه كالقطط الضالّة.

يوسف بالطبع، كان يوسف عبدلكي. هنالك أشخاص لا بدّ أن تذكر كنيتهم مع اسمهم ليدرك المستمع من تقصد، ولكن ثمّة من يكفي أن تذكر اسمه فقط ليدرك الجميع من تريد بذلك الاسم. يوسف عبدلكي كان من هؤلاء. ران صمت قاتل، وجميل ما زال يلهث وينظر إلينا ليرى ردة الفعل. سرت بي رعدة خفيفة، تلاها نوع من الخدر تملّك كامل جسدي. لم يقوَ أي منا على السؤال: كيف؟ متى؟ ومن سواه؟

قبل أشهر، عرض يوسف عبدلكي لوحاته في معرضه الأول في صالة الشعب في قلب دمشق. الصالة تحوّلت إلى محجّ لليسار السوري والفنانين والمثقفين ومحبي الفن والمخبرين. ويوسف الذي أسر الناس

بأحصنته الجميلة الفاتنة القوية الثائرة، ثم شبيهات الأحصنة، أو الأحصنة المضادة، كما كان يدعوها، أسر الناس أيضاً بضحكته المجلجلة ونكتته الحاضرة. كان صعباً أن تقرّر من تحب أكثر: يوسف أم لوحاته. كانت لوحات يوسف دائماً توازناً حرجاً بين الفكرة والشكل، بين المكنون والتكوين، و -لاحقاً- بين اللون والرسالة. في تلك السنة، 1978، كانت لوحاته أحصنة تناضل من أجل الانطلاق، الانعتاق، التحرر، بمواجهة حيوانات كريهة تقيّدها، وتكبتها. أجمل أعمال المعرض كانت عملاً هائلاً يتألّف من ثلاث لوحات، رسمت بقلم الرصاص، بعنوان "أيلول الأسود"، تحكي تغريبة الفلسطينيين وآلامهم في سوريا والأردن وفلسطين، وأماكن أخرى كثيرة. اشترت اللوحةَ منظّمةُ التحرير الفلسطينية، وعرضتها في معرض للفنون الفلسطينية في بيروت، وحين اجتاحت القوّات الإسرائيلية المدينة، كانت لوحة يوسف من بين ما اغتنمته تلك القوّات.

بيد أن أجمل الأحصنة، مع ذلك، كان يوسف نفسه، الذي ملأ لوحاته وصالة العرض وبيوت أصدقائه وقلوبهم، بشاربين كثّين وعينين وادعتين، نافذتين، وشعر طويل يربطه كذيل حصان وابتسامة دائمة الحضور على ثغره وصوت فيه دفء وجرْس أليف. مرسمه في باب توما كان محجّاً للأصدقاء، ومكاناً لاجتماع الرفاق. منه ننطلق لتوزيع البيانات، وإليه نعود حين ننتهي. نشرب الشاي الذي كان يوسف يجيد إعداده، ونستمع إلى تعليقاته ونكاته، ثم نُغْرِب في ضحك مديد.

جميل هو الذي عرّفني على يوسف. وقد سُحِرت به منذ اللحظة الأولى. كان وجميل صديقين حميمين، ويوسف سيظلّ أقرب الناس إلى جميل في منفاهما في باريس. وحين سيمرض جميل ويجوع وتهجره حبيبته سيكون يوسف وهالة دوماً بجانب سريره. ولكن صداقته تلك هي التي كانت تحول بين جميل وبين الدخول في رابطة العمل، فقد كان يوسف

يهتمّ بجميل لدرجة أنه لم يكن يريد أن يعرّضه للخطر وهو يعرف مرضه. وكان عليّ أن أتدخل لأقنع يوسف أن ضمّ جميل إلى التنظيم سيكون دواء له وليس علّة.

مرسمه في باب توما لم يكن فقط مرسماً. كان ملتقى ثقافياً ومنتدى سياسياً، ومحطاً للرفاق القادمين من المحافظات البعيدة. في مرسمه كنا نوزع المهام ونتقاسم الحارات لتوزيع البيانات، وإلى مرسمه كنا نعود نتذاكر ما حدث ونتحدث عن المستقبل.

ولكنه كان مرسماً أيضاً، وفيه أبدع كل أحصنته الجميلة التي فتن بها الجمهور والنقاد والفنانين عندما عرضها. في مرسمه أيضاً عقدنا حلقات للنقاش الفني وتعلمنا الفرق بين المدارس الفنية. في مرسمه أيضاً عقدنا بعضاً من لقاءاتنا في الحلقات الماركسية ورابطة العمل الشيوعي. وفي مرسمه احتفلنا بانتصاراتنا الصغيرة وهزائمنا الصغيرة، واحتفينا بالقهوة السوداء، وبالنبيذ الوطني، وبالحمص والخبز المحمّص والمخلل البلدي.

ويوسف لم يكن فناناً وثائراً وصديقاً رائعاً فحسب. كان أيضاً عاشقاً جميلاً. كان وهالة (أبو العز وأم العز، كما كنا نسميهما) نموذجاً للعلاقة الجميلة والجامحة والواثقة التي يمكن أن تجمع صبياً وصبية من جيلنا. وأمّ العزّ أيضاً كانت مثالاً لفتاة أحلام أي شاب من جيلنا. كانت صبيّة فاتنة ملؤها الحياة والمودّة والحركة، ولكنها لم تكتفِ بذلك: كانت مثقّفة ومتذّوقة للفن و... أنيقة على عكس كثير من رفيقاتنا آنذاك. ستعتقل هالة أيضاً بعد أشهر، وسيعذبها بشخصه أبو وائل (المقدّم وقتها محمد ناصيف، الذي سيتحول إلى وحش مخابراتي ويحتل منصب مساعد بشار الأسد للشؤون الأمنية. كان محمد ناصيف يمسك بشعر هالة الأشقر الناعم ويضرب برأسها الحائط وهو يصرخ بتشفّ: " قالو لي هالراس عنيد. بدّي كسره لهالراس." ستتخرج من السجن في

شباط 1980. تسافر مع يوسف إلى باريس، تدرس العلوم، ثمّ تدرك أن ذلك ليس لها فتتحول إلى السينما وتُخرج جملة أفلام وثائقية، تدفع بها نحو مكانة فنية مرموقة. بين أجمل أفلامها "هيه، لا تنسي الكمّون!" التي تحكي فيه اللحظات الصعبة في الأيام الأخيرة لجميل حتمل، وتسرد جزءًا من حكاية الفنانة السورية - اللبنانية دارينا الجندي التي أدخلتها أسرتها مستشفى الأمراض العقلية بسبب تحرّرها، والأديبة البريطانية سارة كين التي انتحرت في ذروة عطائها، وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها.

"مين غير يوسف؟" سألتُ جميل، بقلق.

"روزيت ورنا وإبراهيم ومنقذ وسليم." قال. كان الألم يعتصر روحه وقلبه. بينما جلسنا نحن واجمين، لا نحري حركة ولا نفكّر في شيء.

لم تكن الحملة مفاجأة تماماً، قبل أسابيع اعتقل ناشطو الفصيل الشيوعي واتحاد الشغيلة وحزب العمال الفلسطيني، وبينهم فايز سارة، الذي سيلعب بعد ذلك بعقود دوراً كبيراً في ربيع دمشق ويغدو أحد قادة المعارضة السورية. ولسوف ينجح النظام في تلك الآونة في اقتلاع التنظيمات اليسارية الأصغر، فزال من الوجود الفصيل الشيوعي وجماعة النهوض واتحاد الشغيلة، وفرّ بقايا حزب العمال الفلسطيني إلى لبنان. أما رابطة العمل الشيوعي فسيقيّض لها أن تنتظر ردحاً آخر من الزمن.

كان نجم اعتقالات أيار 1978 النقيب تركي علم الدين رئيس القسم السياسي في الفرع الداخلي 251 (فرع الخطيب، نسبة لجادّة الخطيب التي كان يقع الفرع المشؤوم فيه). كان تركي يوزّع نفسه بين قيادة فرق مداهمة بيوت الرفاق واعتقالهم واقتيادهم إلى الفرع ورميهم مباشرة في إحدى الزنازين التي بنيت أيام الوحدة مع مصر ولم ترَ النور أبداً منذ

بنائها، أو يجرّك إلى غرفة التحقيق ليبدأ بتعذيبك مباشرة. تركي حقق بنفسه مع المعتقلين من رابطة العمل الشيوعي والفصيل الشيوعي واتحاد الشغيلة وجماعة النهوض وحزب العمال الشيوعي الفلسطيني، وكان التعذيب بالنسبة له لذّة وفناً وتصوّفاً، يساعده في ذلك جزّاران برتبة مساعد، أبو رمزت وأبو أحمد. حين كان يحصل على اعتراف، كان يكافئ نفسه بسيجارة، ويترك السجين لمساعديه يتسلوا به، بينما يصعد هو إلى مكتب معلّمه، محمد ناصيف، ليخبره بإنجازه. سيظلّ تركي علم الدين في هذا الجحر إلى أن يتقاعد بتربة عميد. لم يصعد في سلّم الوظيفة البربرية أكثر من ذلك، بسبب انتمائه إلى الطائفة الدرزية التي لم يكن حافظ الأسد يثق بها، على جري عادة البعثيين منذ مقتل سليم حاطوم في 1967.

سأعلم بعد ذلك أن الحملة بدأت باعتقال الباسل الحوراني، الرفيق الجميل والشجاع ومسؤول التنظيم في منطقية دمشق، الذي اعتقل، إثر وشاية عميل صغير كان مدسوساً في الفصيل الشيوعي. الحملة شملت أعضاء فاعلين في القيادة: عبد الملك عسّاف وعبّاس عبّاس. أصلان عبد الكريم سيؤجّل اعتقاله بضع سنوات أخرى بسبب شجاعته وبنيته وبداهة رد فعله على دورية الأمن التي جاءت لاعتقاله. وسيسارع أصلان إلى لقاء فاتح جاموس ليتجه الرجلان إلى قرية حزّة في ريف دمشق لإنقاذ بيت المطبعة. وبجرأة تشبه التهوّر دخل أهم شخصين في الرابطة البيت وأحرقا كلّ الآثار الموجودة في التنّور القديم في باحة البيت، وحملا المطبعة وغادرا بسرعة. بعد سنوات سيروي لي فاتح انطباعه عمّا جرى. "بدون شك كانت حصة أصلان في حمل المطبعة والجري بها إلى الطريق العام أكبر من حصتي."

سأتذكر فاتح دائماً بصوته الخافت وعينيه البرّاقتين وسرعة استجابته لأي تطور. بعد أسابيع من الحملة كنت التقيت به في الطريق في إحدى

حواري باب توما التي لسبب ما كنا نعتقد أنها أكثر أماناً. كان يبدو مهموماً وقلقاً وحزيناً. البريق الدائم الذي كان في عينيه خفت، ولم يكن على شفتيه ابتسامته المطمئنة التي أراها في كلّ أزمة كان يمرّ بها التنظيم. سرنا في محاذاة حديقة باب توما التي كان فيها حفنة من السيدات والأطفال. الطلاب كانوا لا يزالون يحضّرون لامتحانات الشهادة. ساد صمت للحظة، كسره بعدها بقنبلة:

"لدي ما أخبرك به؟"

"خيراً؟" قلت وأنا أرمقه بترقّب.

"أحمد وهيثم تركا التنظيم."

"شو؟؟"

أحمد كان أحمد جمّول، معلمي ومرشدي والرجل الذي أخرجني من البكدشة إلى اليسار الجديد. مشكلة أحمد أنه لم يكن يعرف البراغماتية ولا العمل التنظيمي. كان مثالاً للمثقّف الذي لا يجيد استخدام ثقافته في أي مجال عملي. في حملة آذار 1977 لم يحسن التصرّف، ولم يستطع استيعاب أعداد الرفاق الذين سيقوا إلى السجن. واضطر لحياة التخفي والملاحقة الأمنية. انتقل من بيت لبيت من دون أن يشعر بالأمن الذي يحتاجه ليكون ما هو عليه. وفي حملة تشرين الثاني رأى أيضاً الرفاق يساقون من جامعاتهم ووظائفهم وبيوتهم إلى فرع الخطيب. حملة أيار كانت الحدّ الفاصل بين رغبته وإمكاناته على التحمّل. بعد أن لملم التنظيم جراح الحملة، عقدت لجنة العمل اجتماعاً لتقييم الوضع. في الاجتماع، طالب أحمد بحلّ الرابطة والعودة إلى العمل الدعاوي كحلقات ماركسية. كان يعتقد أن النظام لن يترك الظاهرة تنمو، وأن التنظيم غير مؤهّل للصمود طويلاً، وأن الحاضنة الاجتماعية غير قادرة على حماية التنظيم.

"الحل إذن،" قال أحمد في الاجتماع، "نعود خطوة تكتيكية إلى الوراء. نحلّ الرابطة. نداوي جروحنا. نعيد سيرتنا الأولى كحلقات ماركسية دعاوية، ننشر الوعي ونتواصل مع كلّ الشيوعيين، ثم ننتظر ظروفاً موضوعية أفضل."

"أحمد رفيق ممتاز، ولكنه ليس أهلاً للعمل السرّي." قال فاتح. من جانب كان يعرف العلاقة بين أحمد وبيني، وكان حريصاً على أن لا يسيء إليه ولو بكلمة.

"ترك بشكل ودّي،" أضاف ليطمئنني أكثر.

"أين هو الآن؟"

"ترك البلد إلى بيروت."

سألتقيه كثيراً في بيروت، وسأشعر بالغربة أننا لم نعد في تنظيم واحد. سيحكي لي أحمد عن رحلته من دمشق إلى بيروت مشياً على الأقدام. كان عليه أن يسير ساعات طويلة، وبحذاء غير مريح، قبل أن يصل إلى برّ الأمان اللبناني.

"لا جدوى يا وائل،" قال لي في أول لقاء بيننا بعد أشهر من سفره، "نحن لسنا حزباً لينيناً. لسنا جريدة وحفنة من المحترفين الثوريين."

وصمت قليلاً، ينتقي كلماته كالعادة، ليضيف: "نحن لسنا حزباً أساساً. وجودنا مبرره العمل على وحدة الشيوعيين في حزب. صح؟"

لا أجيب. يدخل رجلان، أحدهما متوسط القامة بشعر كثيف وجبين واسع وعينين ثاقبتين. الآخر بشاربين أسودين كثّين وصلعة كبيرة وعينين وادعتين تحيط بهما نظارتان مستديرتان. يعرفني أحمد عليهما: حازم صاغية وجوزيف سماحة. وعني: رفيقنا وائل السوّاح من سوريا. ودار

الحديث عن تطوّر الأحداث في إيران ودور الخميني في قيادة الثورة ضدّ الشاه. كان الدافع للحديث حادثة إحراق سينما ريكس في مدينة عبدان بإيران الذي أسفر عن مقتل 422 شخصاً حرقاً، واتهم السافاك بافتعال تلك المجزرة. كان الثلاثة مؤيدين بشكل ساحق للخميني، وقد راحوا يتساءلون عن وجود قوّة ثورية جديدة تحلّ محل الطبقة العاملة كرافعة للثورة. وحين تدخّلت لأسجّل اعتراضاً، قال لي أحمد:

اسمع يا وائل: شحاطة الخميني أشرف من أكبر حزب شيوعي اليوم."
خلال السنوات التي ستلي، سأتابع مسيرة الرجلين عن كثب، من خلال كتاباتهما. سيتحوّل حازم بشجاعة من مواقفه الخمينية إلى الحيّز الليبرالي الديمقراطي، ويصبح أحد أهم كتّاب العمود في العالم العربي. جوزيف، على المنقلب الآخر، سيظل في خندق اليسار الكئيب، وسيغرق -ويا للأسف- في وهم خندق المقاومة، فيؤسّس -من مال حزب الله- جريدة الأخبار، ثم يموت في نوبة قلبية. لم أرَ جوزيف سماحة أبداً بعد ذلك اليوم، أما حازم فالتقيته مراراً في إستنبول وبيروت بعد ذلك بخمس وثلاثين سنة. ولم يكن يتذكر لقائي به في بيت أحمد ببيروت أبداً.

تابعنا، فاتح وأنا، سيرنا العشوائي حول الحديقة، ولكن فاتح بحسّه الأمني انتبه إلى سيارة تمرّ قربنا وتبطئ قليلاً. انعطفنا في حارة ضيقة قادتنا إلى شارع ابن عساكر.

"وهيثم؟" سألت.

ترك هيثم قبل حملة أيار. رأى أن لا مستقبل لرابطة العمل الشيوعي، وقدّم حلّاً للمعضلة. طلب من لجنة العمل إعطاءه خمسة عشر يوماً لكتابة وجهة نظره في تقرير أسماه "إلى أين نتّجه"؟ ليوزع التقرير على مجموع الرفاق لتقييمه وإبداء رأيهم فيه. فكرة التقرير الأساسية كانت

أن سوريا لا تتحمل التعددية الشيوعية ولا بد من تنظيم يكون بمثابة مركز استقطاب، ولأن الرابطة جريحة ومنكوبة تنظيمياً فهي لا يمكنها أن تشكّل هذا المركز. ويقترح التقرير أن ترتقي الرابطة في حوارها مع الحزب الشيوعي – المكتب السياسي إلى فكرة الوحدة في حزب متعدد الأجنحة وحديث وديمقراطي.

لم يكن المكتب السياسي بقيادة رياض الترك متحمّساً جداً لفكرة ضمّ ثلّة من الشباب المتحمّس على يساره. ويبدو أن "ابن العم"، كما عبّر أحد القياديين البارزين في الحزب، كان يفكّر في تحويل الحزب إلى حزب اشتراكي ديمقراطي، ولا يرغب في قبول مجموعة من اليساريين المندفعين عاطفياً و"الأغرار" سياسياً. تمّت محاولات لإقناع قادة المكتب السياسي، وبينهم ذوقان قرقوط وجان نسطة، بالاندماج، مع حقّ الحصول على إدارة نشرة داخلية فقط، ولكن الفكرة لم ترق لابن العمّ، الذي لم يكن على أية حال يثق كثيراً باليسار الجديد عموماً. لجنة العمل اجتمعت بغياب هيثم وأحمد، وقررت أن يسافر من بقي من أعضائها إلى المحافظات لإعلام التنظيم بوجهة نظر أحمد جمول وهي حلّ الرابطة والعودة للحلقات وفكرة هيثم التي اختُصرت بحلّ الرابطة والانضمام فردياً إلى المكتب السياسي. لن أعرف مطلقاً حقيقة ما جرى بدقّة. سيقول لي هيثم بعد ذلك بأربعة عقود: "الحقيقة شعرت أنني وأحمد قد طُعنّا في الظهر ولم نُعطَ الحقّ في شرح وجهة نظرنا". حاول هيثم التواصل مع رياض الترك، بيد أن الأخير لم يبدِ حماساً كبيراً لفكرة ضمّ ثلّة من الشباب ستدفع حزبه يساراً، بينما كان سعى هو لدفعه باتجاه الاشتراكية الديمقراطية. واقترح على هيثم أن يكون صوت اليسار السوري في الخارج. فكرة سفر هيثم أيدها أيضاً أحمد جمّول الذي نصحه بالسفر ونقل قضية المعتقلين السوريين للخارج. وسهّل عالم الاجتماع الفرنسي ميشيل سورا، الذي سيختطفه حزب الله ويغتاله بعد سنوات، سفر هيثم إلى باريس، التي ستغدو وطنه الثاني. أما فاتح

فسيقول لي إن موقف هيثم كان باختصار "دفاعاً هجومياً ضدّ عقوبة فرِضت عليه من قبل لجنة العمل بسبب تضخّم الأنا لديه".

"عليك أن تتخفى،" قلت لجميل.

"لماذا؟" سألني.

"أنت تعرف.." قلت.

"لا.. يوسف لن يعترف عليّ." ولم يتخفَّ جميل. ولم يعترف يوسف عليه، أو على غيره.

***

في 4 شباط 1980، خرج يوسف ورفاقه من السجن. وكان لا يزال مديداً وجميلاً وساحراً. كبر خلال العامين قليلاً، وفاجأنا أنه كان أكثر حكمة وتوقداً وحماساً. لم يتباهَ بسنتي حبسه كما فعل آخرون. لم يحدثنا عن التعذيب والوحدة والوحشة. حدثنا عن الحياة والاستمرار والمستقبل. وكان مقسماً بين البقاء في الوطن والسفر إلى باريس لإكمال دراساته العليا.

كنا في الهيئة المركزية نحاول ترميم الهيئة بإضافة رفاق جدد إليها. وكان يوسف واحداً من الأسماء المطروحة. كلفني الرفاق بنقل الرسالة إليه. قابلته في بيته. نقلت رغبة الرفاق إليه، ثم سألته:

"وصلت الرسالة؟"

"وصلت."

"ذلك رأي الرفاق أوصلته بأمانة؛ أما أنا فأرى أن تسافر إلى باريس وتعود إلينا فناناً عالمياً. نحن لدينا الكثير من المناضلين، ولكن لدينا فنانين

أقل."

لا أدري إن كان رأيي لعب يومها دوراً في قراره؛ ولكنه قرر السفر. في باريس احتل مكاناً مرموقاً في عالم الفن هناك. ومكاناً حاراً بين السوريين. كان بيته مفتوحاً لأي سوري معارض في باريس، بغض النظر عن انتمائه الحزبي أو الإديولوجي. ورفض الجنسية الفرنسية لأنه كان يعرف دائماً أن فرنسا وطن مؤقت. وحين صارت العودة متاحة، في إحدى النوافذ الصغيرة التي أتاحها النظام للمعارضين، بعد عزلته الخانقة وخروجه من لبنان، عاد يوسف إلى دمشق. في المطار استقبلناه، نحن أصدقاؤه القدامى ورفاقه ومعنا عشرات من الشبان الذين يعرفون فنه واسمه ولا يعرفونه شخصياً. وفي قاعة المطار الرئيسية غنينا له "طلعنا على الضو... طلعنا على الريح...

طلعنا على الشمس.. طلعنا على الحرية..

يا حرية.. يا زهرة نارية..

يا طفلة وحشية يا حرية."

أحاط بنا رجال الأمن، فاصطحبنا يوسف وجئنا به إلى دمشق في مهرجان صغير.

***

مرسمه الجديد في حارة الورد (لاحظوا الاسم) تحول إلى موئل للمثقفين والفنانين والسياسيين والناشطين المدنيين. وحين اندلعت الثورة، وقف معها، وشارك بحماس في تأسيس هيئة التنسيق الوطنية، وكان جزءًا من قيادتها. لم يؤيد يوماً العنف، وأكد مراراً على السلمية واللاعنف. وكان يسعى إلى إيجاد حل سياسي للأزمة السورية. كان ورفيقه عبد العزيز

الخيّر أكثر وجوه معارضة الداخل احتراماً وتقديراً في أوساط السوريين في الداخل والخارج. بيد أن النظام الذي يفضل الإرهابيين الإسلاميين على المناضلين المدنيين اعتقل الرجلين ومعهما عدد من الناشطين الذين يؤمنون بسوريا مدنية ديمقراطية.

***

حين خرج أكرم البني ولم يعد

حمّلتني اعتقالات أيار عبئاً أسروياً وأخلاقياً كبيراً. لم تكتفِ السلطة باعتقال الرفاق في حملة أيار، بل تعدّتها إلى الأصدقاء. أحد الأخطاء السخيفة والتي لا مبرر لها التي ارتكبناها في الرابطة كان احتفاظ اللجنة المنطقية بسجل فيه أسماء أصدقاء الرابطة الذين كنا نوصل لهم جريدة "الراية الحمراء". وبين هذه السماء كان اسم أخي الأكبر فراس سوّاح.

لم يتسنّ لي معرفة فراس جيداً في طفولتي، فقد غادر بيتنا في حمص إلى الجامعة في دمشق حين كنت طفلاً صغيراً. وليس لي في ذاكرتي أي صورة له وهو مقيم بيننا، سوى صورة باهتة عنه وهو يضرب كيس الملاكمة المعلّق من سقف الغرفة أو يمرّن عضلات ذراعيه مستخدماً الأثقال الخفيفة التي كانت تصطفّ إلى جانب كتبه في غرفته التي نادراً ما كانت أمي تسمح لي بدخولها. ولكنني أتذكّره حين كان يزورنا في حمص، في الإجازات والعطل، حين كان نظام البيت بأكمله يتغيّر. كان فراس يحظى باحترام أبويّ وإخوتي، وكان قادراً على فرض مزاجه على البيت، فتختفي أصواتنا، سحبان وبشّار وأنا، ويحتلّ الغرفة الداخلية وحيداً، بينما نتوزّع نحن على باقي الغرف.

أذكر أيضاً سؤاله لي في كلّ زيارة وهو يحاول مجاملتي: "بأي صفّ

صرت؟" وكنت أشعر في كلّ مرّة بالخيبة لأنه نسي جوابي في المرّة السابقة، أو لأنه فشل في عملية الحساب: السنة الماضية كنت في الصفّ الخامس، إذن أنا الآن في الصفّ السادس، كما كان المنطق يقول.

كنت أعرف فراس من غيره أكثر من معرفتي المباشرة به. كنت أرى اسمه يرد في جرائد ومجلات سورية ولبنانية، حيث كان ينشر قصصه الأولى، بعد أن رفض والدي، وهو رئيس تحرير إحدى أكبر صحيفتين في حمص في الخمسينات ومطلع الستينات، أن ينشر له في جريدته. "اثبت نفسك في مكان آخر قبل أن أنشر لك،" قال له أبي الذي لا رادّ لقضائه. بما يشبه التحدّي للأب، أرسل فراس قصصه إلى جريدة دمشقية اسمها "دمشق المساء،" قبل أن يتحوّل إلى الدراسات النقدية في مجلّة الآداب البيروتية التي كان يرأس تحريرها سهيل إدريس، فيترافق اسمه مع أسماء خليل حاوي ونازك الملائكة.

ولكنني سأعرف فراس بشكل أفضل حين سأسافر إلى دمشق، أنا أيضاً، للدراسة في الجامعة هناك مطلع السبعينات. سوف أزوره كثيراً في بيته في المزّة الغربية لأتناول وجبة دسمة، تختلف عن وجبات المطعم الشعبي في الشعلان، ولأستلم منه مساعدته الشهرية: عشر ليرات سورية، كانت تقيني من عثرتي بعد منتصف الشهر، حين كان مصروفي الشهري الذي كان والدي يعطيني إياه ينفد.

جرّب فراس كلّ شيء تقريباً، بما في ذلك الفكر السياسي، ولكنه لم يلتزم تنظيميا بحزب أو جماعة. كان قريباً من فكر السوريين القوميين، وله علاقات قوية مع القوميين كأفراد، ولكنه لم ينتسب رسمياً إلى صفوفهم، على عكس والدي الذي كان مقرّباً من أنطون سعادة، واحتلّ موقع منفّذ مدينة حمص، قبل أن ينتقل إلى مواقع اليسار.

حين يُسأل فراس عن علاقته بالسوريين القوميين، تجده يردّد عبارة أثيرة

لديه: "أنا قومي قطاع خاص". أما أنا، فلا يخطر الحزب القومي السوري على بالي من دون أن أتذكر حازم صاغية الذي تنقل في كلّ أصقاع الفكر والسياسة، فلم يشعر بخجل إلا من الفترة التي كان فيها قريباً من القوميين السوريين.

ومع ذلك، سيؤثّر الفكر السوري القومي على فراس إيجابياً فيما بعد، فيبحث في تاريخ سوريا القديم، وسيقوده ذلك بالمصادفة إلى الميثولوجيا السورية، التي ستفتنه فيقع أسيراً لها، ويكرّس لها كلّ حياته على مدى أربعة عقود ونيّف. عام 1976 سيكون علامة فارقة، فمع صدور كتابه الأول "مغامرة العقل الأولى" سيقفز اسم فراس سوّاح؛ ليحتل مكانة مرموقة في الفكر السوري لدى شتّى فئات السوريين، وبخاصّة الطلاب. وسيظّل الكتاب لأجيال تعقب أجيالاً المدخلَ إلى التفكير النقدي في الدين، فهو أول مؤلّف عربي ربط بين الأديان السورية المتعاقبة من حيث الموضوعات الرئيسية لها وهي التكوين والطوفان والفردوس والإله الميت والإله المخلّص، والتي سيحدّثنا عنها فراس مفصّلاً، وصولاً إلى القرآن. وهو في رحلته، يشبه كما يقول هو "مستكشفاً يرتاد غابة عذراء، ويشق طريقه فيها اعتماداً على الحدس والإلهام".

ستترك مكانة فراس أثرها عليّ أيضاً، ففي كلّ مرّة أتعرف على مثقّف جديد وأقدّم له اسمي، يسارع إلى سؤالي: " بيقربك فراس سوّاح؟" وحين أجيب، "أخي"، غالباً ما يصيح بصوت من لم يصدّق ادعائي: "أخوك؟!"

في صباح أياري دافئ، كان فراس في مكتبه في وزارة الصناعة، حيث كان يعمل كخبير في تطوير الإدارة، حين وصلت إلى الوزارة دورية من الفرع الداخلي، واعتقلته من مكتبه، وساقته -بين ذهول زملائه- إلى فرع الخطيب. أوقفه السجانون قرابة العشر ساعات، وجهه يواجه الجدار،

من دون ماء أو طعام، وهو يسمع أصوات التحقيق والتعذيب. في التاسعة مساء استدعاه النقيب تركي علم الدين، وبدأ التحقيق معه. بعد إطلاق سراحه، سيخبرني فراس أن تركي لم يعذّبه أو يهينه، ولكنه كان يريد منه أسماء. وكان لدى فراس هاجس رئيسي: أن لا يضطر إلى الاعتراف عني. المخرج الذي قدّمه لتركي علم الدين كان أحمد جمّول، فالأخير كان ملاحقاً بالأساس وقد غادر البلاد للتو. في منتصف الليل انتهى التحقيق، وسيق فراس إلى مهجع صغير فيه نحو من عشرين موقوفاً، بينهم يوسف عبدلكي، حيث ستنشأ بين الرجلين صداقة تستمر إلى اليوم.

في الخارج، كنت أعاني تأنيب الضمير، ففراس بالنسبة لي كان أخي الأكبر، ولكنه كان أيضاً مهجة عين أبي وأمي، وكنت أشعر أنني السبب وراء توقيفه، فأنا من أدرج اسمه في قائمة الأصدقاء، وأنا من كان يوصل له الجريدة. وكنوع من التعويض، وجدت نفسي أطرق باب رئيس اتحاد الكتّاب العرب علي عقلة عرسان. استقبلني الرجل الذي كان جلس على كرسي رئاسة الاتحاد قبل سنة فقط ولكنه لصق به أكثر من ثلاثة عقود. كان يجلس وراء مكتبه، يتشاغل بقراءة ورقة ما فوق مكتبه، وبيده قلم، يضع به علامات فوق الورقة. رفع عينيه حين اقتربت من كتبه، وأشار إلي بالجلوس.

"أنا هنا من أجل أحد أعضاء اتحادكم: فراس سوّاح."

"كاتب ممتاز،" قال عرسان بخبث.

"ولكنّه في السجن،" أجبت.

"ليس لأسباب تتعلّق بكتابته."

"ولكن من مسؤوليتك الدفاع عن الكتّاب المعتقلين."

"ليس إذا كانوا قد ارتكبوا جرماً سياسياً."

"ولكن فراس ليس سياسياً ولم يقم بفعل سياسي."

لم أكن أستطيع أن أثبت ذلك، فصمتّ، وعاد علي عقلة عرسان يتشاغل بقراءة الورقة التي على مكتبه، وقفت، ونظرت إليه أتأمله ملياً قبل أن أستدير لأغادر مكتبه من دون تحية. وستظلّ صورته وهو يتشاغل عني بورقته، بجبن وتهرّب، هي الصورة التي ستعلق بذاكرتي إلى الأبد. في مواجهة جبن عرسان، تقدّم لنجدة فراس الأب الياس زحلاوي، الذي استطاع بما له من نفوذ معنوي أن يسهم في إطلاق سراحه، وترافق ذلك مع مقال نشرته اللوموند الفرنسية، تحدّث عن فراس، كما تناولت خبر اعتقاله إذاعات عديدة منها مونت كارلو.

بعد أسبوع أو اثنين، تمّ نقل شباب الرابطة إلى سجن كفر سوسة، ونقل فراس إلى المنفردة، حيث سيمضي ستّة أسابيع أخرى، قبل أن يتم إطلاق سراحه. في الزنزانة لم يكن له من مواسٍ سوى أبو رمزت، عين الجلّاد الذي كان يعذّب المعتقلين. كان قد قرأ كتاب "مغامرة العقل الأولى" وسيمرّ عليه في كلّ ليلة لتبادل الحديث والدردشة. قبل أن يطلق سراحه، سيستقبله في مكتبه محمد ناصيف، ويعطيه محاضرة في الوطنية وحب الوطن. وحين سيعود فراس إلى بيته سيجد أن رئيس الوزراء قد سرّحه من وظيفته تسريحاً تعسفياً وفقاً لمادة في القانون تجيز له ذلك.

***

تركت حملة أيار التنظيم من دون قيادة حقيقية، فمن أصل أحد عشر عضواً في الهيئة المركزية لم يبق خارج المعتقل (بعد سفر أحمد جمّول وهيثم العودات) سوى ثلاثة أعضاء هم أصلان عبد الكريم وفاتح جاموس ونهاد نحّاس. كان لا بدّ إذن من ترميم الهيئة. وكان عقد مؤتمر

جديد للرابطة أشبه بالخيال. كان النظام الداخلي للرابطة يقضي بعقد مؤتمر سنوي للرابطة (وهو بحدّ ذاته دليل على طوباويتنا وعدم معرفتنا بطبيعة النظام الدكتاتوري وعدم قدرتنا على التنبؤ المسبق بردّة فعله)، ولكن بطش النظام دفعنا باتجاه النظرية اللينينية في قيام الحزب على أساس حفنة من المحترفين الثوريين. لذلك قرّر الرفاق الثلاثة ترميم الهيئة من خلال التعيين.

مرّة أخرى، في حديقة السبكي هذه المرّة، في قلب دمشق، التقيت بفاتح جاموس. كان الحزن والقلق اللذين بديا في عينيه المرّة السابقة قد تراجعا وحلّ محلّهما عزم جديد.

"جهز نفسك للسفر قريباً؟"

"بيروت؟" سألتُ، فقد كنت مراسلاً بين دمشق وبيروت على مدى شهور منذ نهاية العام 1977.

"ستعرف لاحق،" أجاب باقتضاب.

وعرفت بعد أيام. أوائل شهر أيلول، جاءني الأمر للسفر إلى حلب. بعد اعتقالات أيار، اتخذت لجنة العمل قراراً بنقل مركز نشاط التنظيم المركزي إلى مدينة حلب، التي بقيت فيها البنية التنظيمية آمنة نسبياً. وكردّ على قمع السلطة، قرّرت لجنة العمل أمرين اثنين: التحضير لمدرسة كادرية لتخريج قادة جدد للمنظمة يحلّون محلّ القادة المعتقلين، من خلال تمكين المشاركين من الخط النظري ومن طرائق التحليل وكتابة المقالة، وأيضاً من خلال نقل ما تراكم من خبرات تنظيمية وأمنية لهم؛ وإصدار جريدة "الراية الحمراء" طباعة وليس نسخاً على ورق النسخ (الجستتنر).

في حلب، وجدت نفسي محشوراً مع مجموعة من الرفاق في شقّة في حيّ

السريان، كان مصطفى خليفة وأكرم البني قد استأجراها قبل عشرة أيام، وبذكاء عملي، اختارا الشقّة، التي تبعد شارعين اثنين فقط عن مقرّ الأمن السياسي في حلب. أقلّ من عشرين رفيقاً تجمّعوا في شقّة بالكاد تتّسع لهم، ولم يسمح لنا الخروج أو الدخول لعدم لفت الأنظار، فلم تكن حركة نحو عشرين شخصاً ذكراً في العشرينات وأوائل الثلاثينات من عمرهم في شقّة في حلب أمراً مألوفاً، ولسوف يثير انتباهاً لا مبرّر له. كان مصطفى وأكرم الوحيدين اللذين يستطيعان الخروج، بينما بقينا جميعاً محبوسين في المكان، نعمل نحو عشر ساعات يومياً. كانت تلك مدرسة الكادر التي ستخرّج الأعضاء الجدد للهيئة المركزية. كان العمل يبدأ بعد الإفطار مباشرة، ويتوقّف قبل العشاء، مع استراحة غداء وبعض استراحات التدخين وشرب الشاي. نقاشات للخط الاستراتيجي للرابطة كانت محور الجلسات. كنا قد نشرنا الخطّ الاستراتيجي قبل عام ونيّف: أحد عشر كرّاساً من الحجم الصغير، حملت رأينا في الثورة العالمية والوحدة العربية والقضية الفلسطينية والنظام السوري والطبقة العاملة السورية والحزب الشيوعي الموحّد والجبهة الشعبية المتحدّة التي يقودها هذا الحزب الثوري. كان نشر هذه الكرّاسات التي طبعناها في لبنان وأحضرناها تهريباً على ظهور البغال إلى سوريا أحد أسباب شراسة النظام ضدّ التنظيم. إذا نظرت خلفاً الآن، فسأنظر بعين الشفقة إلى تلك الكرّاسات التي وضع فيها المؤسسون عصارة فكرهم ورؤيتهم، ولكنها كتبت بشكل تبسيطي وموجز، وكانت أحياناً ذات طابع تحريضي. ففي القضية الفلسطينية لم يكن ثمّة حلّ إلا من خلال إسقاط أحد أنظمة الطوق (سوريا على الأرجح)، وفي كرّاسة طبيعة السلطة في سوريا، استحسن الرفاق وصف السلطة السورية بـ "العاهرة" التي "تتغنّى بعذريتها، قبل أن تسقط عنها ورقة التوت."

تعرّفت في مدرسة الكادر على جملة من الأشخاص الاستثنائيين الذين جعلوني أحسن الظنّ بنفسي وبالتنظيم وأحسّ أن الأمور لا تزال بخير.

وسيكون لاثنين بينهم أثر كبير عليّ: مصطفى خليفة وأكرم البني.

سيعرف العالم جميعاً فيما بعد مصطفى خليفة من خلال روايته "القوقعة" التي وصف فيها حال المعتقلين في سجن تدمر المرعب أثناء حكم حافظ الأسد، من خلال قصة شاب مسيحي اعتقل بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين، وشهد من خلال قوقعته الرعب السوريالي الذي يستحيل تخيّله أو وصفه إلا من خلال من عايشه. وعلى الرغم من أنني شخصياً عايشت جزءًا من هذا الرعب، إلا أنني لم أستطع ضبط تسارع خفقات قلبي وأنا اقرأ الرواية في صيف 2007. أعطتني إياها سيّدة كانت تفكّر بنشرها، ثمّ تخلّت عنها لصالح دار الآداب. أخذتها إلى البيت وأنا أتذكر الشاب الطويل النحيل ذا الشاربين السوداوين والعينين الواسعتين الهادئتين الذي قابلته أول مرّة في حلب، ثم عشت معه في سنوات في السجن. وحين بدأت القراءة راعني أن المرء لا يستطيع أبداً أن يألف الخوف والموت والعزلة مهما طالت وتطاولت.

كان مصطفى مناضلاً سياسياً بامتياز، ولم نكن نعرف أن لديه رغبة دفينة في الكتابة مذ كان ولداً يلعب في شوارع بلدته المشلوحة على الحدود التركية: جرابلس، التي غادرها إلى حلب وعاش التجربة الحلبية بكلّ أبعادها.

سيعتقل مصطفى مرتين، الأولى بعد أشهر من لقائنا؛ والثانية في الثمانينات حيث سيمضي خمس عشرة سنة، بعضها في سجن تدمر الذي سيكتب عنه أنصع وثيقة عن أحلك فترة في التاريخ السوري. بعد الاعتقال الأول خرج ليتابع النضال مباشرة، بينما بعد اعتقاله الثاني كان، حسب تعبيره، "مشروعنا قد تهاوى وفشل، ليس على مستوى الذات أو سوريا أو الوطن العربي فقط، إنما على مستوى العالم، وهكذا كانت معاودة النضال على الأرضية ذاتها، كمن يناطح الصخر." وستكون

الكتابة هي التعويض عن انهيار الحلم السياسي.

سألتقي بمصطفى من جديد في باريس بعد نيّف وعشرين سنة، ولسوف نتابع مباشرة ما بدا لنا حديثاً أوقفناه قبل دقائق لتحضير الشاي مثلاً. سيعطيني نسخة من روايته الثانية "رقصة القبور" التي لم تحظَ بمثل حظّ القوقعة على الرغم من أهميتها. باستثناء شعرات بيضاء في رأسه، لن يلحظ من لم يره عشرين سنة كبير فرق في تقاسيم وجهه وصوته العميق ونبرته الهادئة وعينيه المتّقدتين.

أكرم البني كان شخصاً مختلفاً. كان أصغر الموجودين سناً، شديد الحيوية، ينطلق من عينيه دوماً ألق يشتعل حماساً وذكاء. سيعتقل أكرم مرات عديدة تحت حكم الأسدين، ولن يتعلّم أبداً درسه، بل سيعود في كلّ مرّة أكثر حماساً ولكن أكثر عمقاً أيضاً. وبعد سنوات سيغدو كاتب رأي متميّز في أهم الصحف العربية، وسيعطي أكثر التحليلات السياسية قوّة وموضوعية.

حين قدمت إلى حلب، كان أكرم ومصطفى يشكلان عصب اللجنة المنطقية، وقد تولّى أكرم مسؤولية المطبعة الحديثة، فتدرّب لعدة أسابيع في إحدى مطابع حلب على صفّ الأحرف الرصاصية، ثمّ بدأ يعمل على جهاز بدائي للطباعة حصلت عليه الرابطة عن طريق أصدقاء، يتألف من قاعدة حديدية مع الأسطوانة الثقيلة التي تمرر فوق الصفحة المرصوصة والمبللة بالحبر لإتمام الطباعة. وصدر العدد الجديد (العدد 17) من الراية الحمراء يحمل شعاراً جديداً صمّمه الفنان المتألق منير شعراني الذي كان وقتها يقوم بخدمته العسكرية في حلب. وللالتفاف على صاحب محل الزنكوغراف والرقابة الأمنية اللصيقة عليه، قام منير بتصميم شعار باسم "سناك الزاوية الحمراء"، وبعدها تمّ قص الحواشي وإزالة حرف الواو ونقطة الزاي وتقريب الأحرف لتصبح "الراية الحمراء". لن يعرف قرّاء الألفية ولا الجيل الذي قبلهم

معنى هذا الكلام، وهم يستطيعون استخدام الفوتوشوب لتصميم أي شعار، دونما رقابة أمنية ودونما حاجة لمحلات الزنكوغراف. أمضينا في مدرسة الكادر ثلاثة أيام بلياليها، من أصل أيام سبعة كنا من المفترض أن نمضيها هنالك لتخريج كادر جديد يحلّ محلّ الكادر الذي اقتنصه منا تركي علم الدين ومحمد ناصيف. في اليوم الرابع، العاشر من أيلول/سبتمبر 1978، خرج أكرم البني كالعادة لمقابلة بعض الرفاق، ولكنّه لم يعد. الذي عاد كان مصطفى الذي أخبرنا باعتقال أكرم، ثمّ علمنا أن حليم رومية وبعض الرفاق الآخرين قد اعتقلوا أيضاً في دمشق. وبدأت حملة جديدة.

***

راقبها وهي تخرج بصحبة رجال الأمن وتختفي في سيارتهم

دخل مصطفى خليفة الشقّة التي كنا نتكوّم فيها، بوجه كئيب وعينين تقطران أسىً. توجهّنا إليه بعيوننا نستقصي الأمر.

"اعتقلوا أكرم."

هبط علينا غمّ ثقيل، كما يهبط الضباب على المدينة فجأة. أكثرنا حزناً كان أصلان عبد الكريم، فهو كان بمثابة الراعي لأكرم الفتيّ الممتلئ حياة وحركة وذكاء وكان يرى فيه مستقبل الرابطة.

مصطفى وفاتح كانا أكثرنا هدوءًا واتزاناً.

"يجب أن نخلي الشقّة فوراً." قال مصطفى.

"نخلي الشقّة ونتفرّق، ثم نتواصل لاحقاً." قال فاتح، وهو يتحرّك في الشقّة مثل لولب لجمع الأوراق والوثائق.

خلال ساعة كنا جميعاً خارج البيت، متبعثرين في شوارع المدينة كقطيع من الجداء الشاردة. في جيوبنا بضع ليرات أخذناها من صندوق المنظّمة، وفي قلوبنا خوف غامض. أكان خوفاً من الاعتقال؟ أم خوفاً

على نهاية التجربة التي كانت كلّ شيء بالنسبة لنا؟ أم أنه الخوف من ذاك الشيء الذي ننتظره ولا ندرك كنهه. لم أكن أعرف حلب من قبل، ولن أزورها بعد ذلك إلا في التسعينات. وحين كتبت روايتي "قالت إيمان" في السجن سنة 1989، وكانت أحداثها تدور في حلب، استعرت من قراءاتي ووصف أصدقائي ما جعلني أبني الرواية وكأنني عشت في حلب سنيناً طوالاً. تفرّقنا مجموعات من اثنين، وكان صاحبي في تشرّدي وتسكّعي علي الكردي، الشاب الدمث اللطيف الذي يحب أن يدفع الآخرين إلى الأمام من دون أن يأبه بجزاء أو ثناء أو مكان أو منصب. كان مسؤولي في أول خلية في التنظيم، ونشأت بيننا منذ تلك الفترة مودّة لم تنقطع مطلقاً على الرغم من السجن والبعد والاختلافات الكبيرة أحياناً في السياسة والفكر.

من حسن حظي أن عليّاً كان يعرف المدينة بشكل جيد، فلم نضطر إلى التيه على غير هدىً. كانت الخطّة أن نبقى جميعنا في حلب يومين أو ثلاثة لنرى حجم الاعتقالات والخسائر، وأنفقنا على طريقة تواصل ومواعيد يومية للاطمئنان على بعضنا البعض. ولكن ربما لم يكن للمواعيد ضرورة، إذ أننا في كلّ حديقة تمشّينا فيها وفي كلّ مقهى في قلب البلد جلسنا فيه طلباً للظلّ، كنا نجد رفيقاً أو اثنين يتسكعان، فينظر بعضنا إلى بعض من دون أن نقترب أو نسلّم أو نومئ بعضنا لبعض إلا في المواعيد المتفّق عليها.

وأخذني علي إلى الحديقة العامّة، التي أدهشني حجمها واتساعها وتنسيق الأشجار فيها، وحديقة السبيل العتيقة التي تعود إلى نهايات القرن التاسع عشر في عهد الوالي المصلح رائف باشا، والتي جعلتني أحس بالراحة وبعثت بي طمأنينة ونوعاً من الاستسلام والخدر الجميل. وتغدينا في مطعم آغوب في بستان كليب الذي قدّم لنا ألذّ كباب حلبي بقروش زهيدة.

وفي الليل أوينا إلى فندق رخيص، ليس فقط من حيث الأجرة، ولكن من حيث الخدمة والنظافة أيضاً. ولم تكن الفنادق تطلب البطاقات الشخصية وقتها، فلم يكن في الأمر مغامرة كبيرة. صعدنا سلّماً ضيّقاً بدرجات عالية أفضى بنا إلى بهو الفندق، واستقبلنا رجل كان آخر همّه أن يقبل زبوناً جديداً. كان الفندق مزدحماً، فعرض علينا الرجل بصوت ملول فرشتين على السطح، ونظراته تقول: إما القبول وإما الحديقة العامة. وقبلنا، وافترشنا السطح مع عدد من النزلاء الآخرين الذين قدموا على الأرجح من قرى حلب الشرقية لأمر من الأمور، وتأخر الوقت فاضطروا لقضاء ليلة في المدينة. لم أنم من الليل إلا أقلّه، كانت الليلة حارّة والبعوض يحلّق فوق رؤوسنا قبل أن يحطّ على وجوهنا أو سواعدنا المكشوفة. كنت أغالب البعوض والحرّ وأنا أرقب سماء أيلول الصافية وأرصد نجومها، وأقلّب الأمر فيما يمكن أن يكون عليه الحال غداً.

في الغد علمت أن فاروق العلي، صديقي ورفيقي وشريكي في الكومونة في مخيم اليرموك، كان ربّما أوّل المعتقلين. كان برفقة صديقنا الشاعر رياض الصالح الحسين وابن عمّ له في مقهى القنديل وسط دمشق، وحين خرج الثلاثة وسارا في قلب المدينة، توقّفت سيارة أمن بجوارهم، ونزل منها عدّة عناصر وراحوا يفتشون ما معهم من أوراق. في جريدة كان يحملها فاروق، وجدوا منشورات لأحزاب سياسية لبنانية وفلسطينية، وربما نسخة أو اثنتين من الراية الحمراء. أخذوا الثلاثة إلى فرع الأمن السياسي في الجسر الأبيض ومن ثمّ إلى فرع الخطيب سيء الذكر. رياض وابن عمّ فاروق سيخرجان بعد أيام، أما فاروق فسيتعيّن عليه أن يبقى حتى خروج كافة الرفاق في شباط 1980.

كان الخبر صاعقاً. لم يكن فاروق رفيقاً فقط، ولم يكن صديقاً فقط. هنالك أشخاص لا يمكنك أن تصف علاقتك بهم؛ تحسّ أن العلاقة

بينكما تُحَسُّ وتعاش ولكن لا توصف. فاروق كان أحد هؤلاء الأشخاص الذين تعيشهم وتستمتع بوجودهم في حياتك. ومع ذلك، لم يكن الأمر مجرّد خسارة لشخص قريب منك كظلّك، بل كان أيضاً أن حياتك كلّها سوف تتغيّر، ستنقلب رأساً على عقب. سيتعيّن عليك أن تتخفّى وتعيش تحت الأرض، تغيّر اسمك ومظهرك، تترك جامعتك وعملك، وتنتقل من بيت إلى بيت من دون أن تشعر أن أيّاً منها هو فعلاً بيتك. ولكن الأسوأ ربما أن امرأتك ستعيش غريبة عنك، لن تعيشا سويّة بعد اليوم، ولن تلتقيا كلّ يوم، بل ستسرقان الوقت خلسة بين الفينة والأخرى، كمراهقين يلتقيان خفية عن أعين الأهل والجيران.

قال لي الرفاق أن عليّ أن أعود إلى دمشق، وأن لا أذهب إلى بيتي أو أي بيت لأخوتي، وأن أتخفّى، حتى يأتيني خبر جديد. ودّعت عليّاً وتمنيت له حظّاً موفقاً وتوجّهت نحو كراج الباصات لأسافر إلى دمشق. سوف تعمل دعواتي مؤقتاً، فيتأجل اعتقال علي حتى صيف 1979.

لم تكن البطاقة ضرورية للسفر داخل سوريا. ركبت باص الهوب هوب، وجلست في مقعد خلف السائق، أراقب الطريق المديد الذي لا ينتهي بين المدينتين. في منتصف الطريق، توقّف الباص للاستراحة في مدينتي، حمص. نزلنا جميعاً من الباص. كانت الاستراحة تبعد شارعين فقط عن بيت أهلي. ستكون أمي الآن تطبخ فاصوليا باللحم من دون بندورة كما يفضّلها والدي، وتقطّع بجانبها شرحات البندورة الخضراء اليانعة، وسيكون أبي في طريقه إلى البيت عائداً من الجامع القريب. وسألت نفسي، متى كانت آخر مرّة زرت فيها العجوزين؟ وخجلت. طلبت سندويشتي المفضّلة في استراحة حمص: سندويشة صفيحة. ليس في العالم كله من يضع اللحم بالعجين في قلب رغيف خبز مرقّد، ويلفها كسندويشة سوى الحماصنة. ابتسمتُ وأنا أتبلّغ برشفات من اللبن العيران، وأفكر أنني سأحرم على الأغلب من زيارة أهلي بسبب التخفّي.

كنت أرشف آخر رشفة لبن، حين صاح بي صوت:

"أهلاً وائل!"

التفتّ. كان رامي، صديقي من المرحلة الابتدائية.

"كيفك يا رجل؟" أضاف وهو يعانقني.

لم يكمل رامي دراسته بعد رسوبه مرتين في الشهادة الإعدادية، وفضّل الالتحاق بالأمن السياسي، وقد صار الآن مساعداً له صولة وجولة.

"أهلاً رامي. اشتقت لك." كذبت بصوت مرتجف.

"زيارة؟"

كان صوته عادياً، لم يشِ بأي خبث أو تصيّد. كنت أحسب أن أجهزة أمن العالم بأسره قد عرفت باسمي وأنها تسعى ورائي مسخّرة كل عنصر من عناصرها.

"إي والله،" فضلّت أن أكذب. "بقيان كم يوم."

"نراك إذن. نحن جيران."

"بالتأكيد!" قلت مراوغاً. سأمرّ لشرب القهوة مساء.

ودّعني ومضى. وراقبته وهو يغذّ الخطو حتى اختفى، فصعدت الباص وهتفت بالسائق: "متأخرين، معلّم"

"بس دقيقة." قال، ثمّ صعد وأدار المحرّك، فهدر بصوت مرتفع، ثمّ قرقع الباص، وراح يبتعد ببطء عن المدينة الفاتنة التي ستسكُن فيّ طوال حياتي، ولن ينازعها في العالم مكان آخر.

تهادى الباص أخيراً حتى سكن المحرّك في محطّة القابون. نزلت، حملت حقيبتي الصغيرة، وسرت خارج المحطّة. وقفت فجأة. "طيب وهلق لوين؟" لم يكن لدي بيت آوي إليه، وما كان بمستطاعي أن أذهب إلى بيت أي من أخوي فراس أو سحبان. فكّرت في صديق الحالات الصعبة عدنان جرجوس، ولكنني فضّلت ألا أشركه في الأمر. ثم سطع في سماء العقل اسم آخر: منير بريك، الحوراني الأصيل، الممتلئ رجولة ونخوة ومودّة. ثمّة أشخاص تأخذ الصداقة معهم وقتاً طويلاً لتنمو وتتحدّد ملامحها وتقوى. آخرون يحتاجون فقط إلى "كليك" (click)، تسمع الطقّة بأذنك وتشعر أنك تعرف هذا الشخص منذ سنين. كان منير واحداً من هؤلاء. حين طردني محمود عبد الواحد من بيته (حيث كنت أستأجر غرفة عنده)، اقتحم منير بيت الرجل بالقوّة ليعيدني. وحين كنا نسير سوية بعد مرحلة التخفي، كان يقول لي: "إن رأتنا دورية مخابرات، اركض أنت، ودعني أتفاهم معهم." كان قوياً بجسده وروحه، لم يأبه لشيء تقريباً، ترك بيته في مدينة درعا (شمال الخط) وجاء يدرس ويعمل ويحب. مثلنا جميعاً كتب الشعر، ولكنّه تميّز عنا بصوت جميل، كان يزيّن به سهراتنا. أجمل الأغنيات التي كان يردّدها أغنية ناتالي، التي لا تفتأ تراودني بصوته الدافئ وإيقاعه الخاص الجميل الذي لم يأبه كثيراً بإيقاع اللحن الأصلي. ولكن الصوت الجميل لم يكن وحده ما يميّزه عنا، بل وسامته الخاصة التي تجعل النساء يتقاطرن حوله، ومن بينهن جميعاً، واحدة فقط سرقت قلبه وعقله، وأنجبت له ثلاثة أولاد أصحاء وجميلين: روز.

كان بيت منير في الدويلعة، أحد أحياء منطقة الطبّالة، وأحد أفقر أحياء دمشق آنذاك، يتشارك فيه الحوارنة والعلويون بالتساوي. لكي تزور منير كان عليك أن تبدّل باصين وأحياناً ثلاثة، ثم عليك أن تسير في الزواريب الضيّقة طويلاً قبل أن تصل إليه. ويستحسن أن لا تزوره شتاءً إلا مضطراً، أما في الصيف فعليك أن تسلّم على النساء اللواتي كنّ يجلسن

على فرش صغيرة أمام بيوتهن، قبيل الغروب.

"تفضل عيني!" غالباً ما تقول لك سيدة قابعة مع جاراتها أمام بيتها، وهن يشربن الشاي أو يقطعن الفاصولياء.

"عامر خالتي." ستقول لها وعيناك مطرقتان في الأرض.

على الرغم من الفقر، ستشعر بالنظافة واللطف يحيطان بالبيوت والشوارع، وستشعر بكرم البشر هنالك في كلّ لحظة.

إلى هنالك، حملت حقيبتي، وتوجّهت، أحلم بحمّام دافئ ووجبة طيبة. فتح لي منير الباب، وقد أفاق من قيلولته للتو. كان شعره أشعث وعيناه الصغيرتين اللطيفتين متثاقلتين من أثر الاستيقاظ. لم يصدّق عينيه حين رآني، منهكاً وقلقاً.

"وائل!" صاح بصوت عال، سرعان ما كتمه، وعانقني بقوة طويلاً.

"الحمد لله ما كنت بالبيت حين اقتحموه،" قال وهو يشدّني داخلاً.

من منير عرفت الخسائر الأخرى. بعد اعتقال فاروق العلي، ترك الشباب الكومونة، وتفرّقوا أشتاتاً. برهان الزعبي، المغامر الفاتن والذي يؤجّل اهتمامه بنفسه حتّى يهتم بكل الناس، غامر بالدخول إلى البيت وأخرج منه كلّ الأوراق التي ظنّ أنها تحمل أدلّة ضدّنا. نسي برهان إخراج كرّاسات الخط الاستراتيجي التي وضعناها على السقيفة. ذهب ثانية مع فاديا ليخرجا الكرّاسات، وأصرّت فاديا على الدخول وحيدة، بينما بقي برهان ينتظرها خارجاً. لم تطلْ البقاء في الداخل. خرجت بعد دقائق. لم تكن وحيدة؛ كانت بصحبة ثلّة من رجال الأمن. وضعوها في سيارة بيضاء صغيرة، وساقوها إلى أمن الدولة. وكان برهان يرقبها وهي تغوص في السيارة، وهو يشعر بالشلل والقهر والعجز عن فعل أي شيء.

أكان البرد أم الجمال أم الجوع ما جعله يتداعى؟

ولم تكن فاديا الوحيدة التي اعتقلت من بيت الكومونة في المخيّم. سيعتقل برهان الزعبي وأحمد الرشيدات ومحمود العلي من بيوتهم في درعا. وسيطلق سراح برهان ومحمود بعد أشهر قليلة، بينما سينتظر كلّ من فاروق وأحمد حتى شباط 1980، ليخرجوا مع الجميع.

على أن حملة الاعتقالات لم تتوقّف عند رابطة العمل الشيوعي. كان حافظ الأسد قد قرّر إنهاء كلّ معارضة لحكمه من أي طرف جاءت. ولئن كانت مجابهة اليمين تبدو أسهل للنظام، بسبب التباين الفكري واختلاف القاعدة الاجتماعية بين الطرفين، فإن التحدّي الذي كان يجابه النظام "الاشتراكي-العلماني-اليساري، إلخ" كان يأتي من جهة اليسار، لأنه يشاركه في خلفيته الفكرية ويتقاسم معه الطبقات الشعبية ذاتها. كان ببساطة يكشف زيف الكثير من ادعاءاته اليسارية والقومية، والعلمانية طبعاً. لذلك قرّر الأسد إنهاء المعارضة اليسارية بشكل كامل، وقد نجح في ذلك إلى حدّ كبير، حين استطاع أن ينهي الفصائل اليسارية الصغيرة، بدءًا من اتحاد الشغيلة إلى حزب العمّال الفلسطيني مروراً بالفصيل الشيوعي وجماعة النهوض. واعتُقل في حملة أيلول عدد من أصدقائنا ورفاقنا، بينهم زياد وطفة وسعيد عبد اللطيف وخلف

الزرزور، وسبقهم فايز سارة، القيادي الأبرز في جماعة النهوض وحزب العمّال الفلسطيني.

بيد أن ما آلمني أكثر كان اعتقال الأصدقاء الذين أُخِذوا من بيت الكومونة في كمائن أمنية. كان بينهم أصدقاء شخصيون، كصديقي السلموني الجميل وسام عوّاد. لم يكن وسام سياسياً، رغم أنه من مدينة السلمية التي ترضع نساؤها السياسة مع حليبهن. كان شاباً حييّاً نحيلاً، طويل القامة، محبّاً للشراب والثقافة والتاريخ الذي كان يدرسه في الجامعة. كان يضحك لأي طرفة ويحوّل أي حادثة عادية إلى قصّة درامية مشوّقة. ولكنه كان يأخذ كلّ الأمور ببساطة وعلى مهل. حتّى في سيره، كان يسير متمهّلاً كأنه يغبّ الشوارع والدكاكين والصبايا، وحين نسير معاً، كان يسارع من خطواته ليماشيني، وهو يصرخ: "ولك طولك متر ونص وبدي أركض وراك ركض!!" سيعتقل وسام في كمين في بيت الكومونة، وسيمضي أيضاً أشهراً في فرع الخطيب. حين خروجه، سيسافر إلى باريس لاجئاً، حيث سيفتح الطريق أمام كثير من رفاقنا للسفر إلى فرنسا، وسيغدو عوناً لكلّ سوري يحطّ رحاله في عاصمة النور. التقيت به في 1992، في مدينة بواتييه، كان لديه بيت فرنسي جميل في الريف وزوجة فرنسية لطيفة، لم تستطع في النهاية الاستمرار معه، فانفصلا وعاد إلى سوريا.

لن تطيل فاديا وبرهان ومحمود ووسام مكوثهم في سجن جادة الخطيب، سيخرجون بعد أسابيع أو أشهر. ولكن الأشهر التالية ستكون حاسمة في مسيرة حياتي ومسار الوطن. على الرغم من أن مدرسة الكادر في حلب لم تكمل مشوارها فقد تمّ توسيع اللجنة المركزية لرابطة العمل وعادت إلى الرقم الأصلي المقدّس: أحد عشر. وإلى جانب من تبقى من الهيئة القديمة وهم أصلان عبد الكريم وفاتح جاموس ونهاد نحّاس، سينضم علي الكردي ومصطفى خليفة وكامل عباس ومنيف ملحم

وحسام علّوش وزياد مشهور وأحمد رزق والعبد الفقير. في أوّل جلسة للهيئة المركزية، تناوبني أحساس متناقض، فمن جانب لا أحبّ أن أقول للآخرين ماذا يفعلون، ولم أحبّ في حياتي أن أكون قائداً في أي مجال. أوّل منصب قيادي في حياتي شغلته في الصف العاشر، عندما انتخب الفصل لجنة لتمثيله مع الإدارة مؤلفة من خمسة أشخاص. لم أرشّح نفسي، ولكن أسماء طلاب الفصل الأربعين كانت مدرجة، وجاء اسمي بين الخمسة الفائزين. شعرت بالغبطة والخوف: الغبطة من أنك فجأة صرت في مكان أعلى، يشرف على الآخرين من علٍ، والغبطة من أن رفاقك في الفصل اختاروك أنت من بينهم؛ والخوف من أن لا تقوم بواجبك كما ينبغي، أن لا تكون على قدر المسؤولية، أن تفشل. المرّة الثانية كانت حين انتخبت عضواً في اللجنة الفرعية للحزب الشيوعي السوري في حيّ الحميدية بحمص. كان ذلك الانتخاب مهزلة، فتقريباً فرضت القيادة اسمي على الناخبين في مؤتمر الفرعية، لسبب واحد: لقد كان تنظيمي في حيّ مسيحي، وكنت المسلم الوحيد. كنت لا أزال في السابعة عشر، وفي فرق الحي الذي كنت "أقوده" كان ثمّة رجال محنّكون ونساء مثقّفات، وكان ينتابني خجل شديد وأنا أحضر اجتماعاً لإحدى الفرق الحزبية بصفتي ممثلاً للجنة الفرعية.

في رابطة العمل، كان الوضع يختلف، فقد رافقت نشوء التنظيم منذ أيام الحلقات الماركسية، وكنت عضواً في أولى تشكيلاته، وعرفت قيادته عن كثب، ربمّا بسبب صداقتي الشخصية مع أحمد جمّول. ومن جديد انتابني سرور داخلي بالمسؤولية الجديدة، ولكن سؤالاً قلقاً كان يؤرّقني: إذا كنت أنا، بخبرتي القليلة، سأشغل هذا المكان، فهل يعني ذلك أن المنظمّة باتت بأيدٍ غير مؤهلة للقيادة؟ بيد أنني لم أمتلك ترف الوقت الكافي للتفكير، فعقدنا أول اجتماع للمركزية في مدينتي حمص، التي زرتها متخفياً لأول مرّة. حلقت لحيتي وأبقيت شاربين مكسيكيين بليدين فوق شفتي ووضعت على عينيّ نظارة شمسية نهاراً، وفي الليل

استبدلت بها نظارة طبية بعدسات نمرة زيرو. وسرت في شوارع المدينة كالغريب، وفي جيبي بطاقة هوية مزورة بإتقان عجيب باسم "وليد ل." كانت بطاقة حقيقية لشخص حقيقي كنت أعرف عنه كلّ شيء، قام الرفاق فقط باستبدال الصورة بحرفية مذهلة. سأضيّع هذه البطاقة الرائعة بحماقة وأستبدل بها بطاقة سيئة التزوير ستؤدّي بعد سنوات إلى اعتقالي على الحدود قادماً من بيروت.

في اجتماع الهيئة المركزية بحمص، انتخبنا لجنة عمل جديدة وهيئة لتحرير الراية الحمراء والشيوعي وأخرى لتحرير "النداء الشعبي". كانت الراية الحمراء الجريدة الرسمية والناطق بلسان الرابطة، ننشر فيها الرؤى السياسية والبرنامجية والتحليلات السياسية محلياً وإقليمياً. بالمقابل، كانت "الشيوعي" المجلة النظرية للرابطة، وفيها ننشر مقالاتٍ وأبحاثاً ذات طابع نظري وأحياناً تأسيسي. أما "النداء الشعبي فكانت جريدة تحريضية كنا نوزعها على نطاق واسع بين الطلبة والعمال والفلاحين وأصحاب الدكاكين، وننشر فيها مقالات بلغة صاخبة وتحريضية، تحض على التمرد على النظام وتبشر بالثورة الشعبية-العسكرية المشتركة. طوال سنين سأقف ضدّ فكرة جريدة "النداء الشعبي"، فقد كانت نتائجها السيئة أكثر من خيراتها، وبينما فشلنا في تأليب جماهير العمال والفلاحين من وراء جريدة النداء الشعبي، فقط نجحنا في تأليب أجهزة الأمن وجلبنا ويلات الاعتقال من النظام الذي ساءته الجريدة أكثر من كلّ نشاطاتنا الأخرى.

سيضع الرفاق على كتفيّ عدة أحمال. إلى جانب عضوية الهيئة المركزية، انتخبت عضواً في هيئة تحرير الراية الحمراء ومجلة الشيوعي. وتسلّمت مهامّ اللجنة المنطقية في مدينة دمشق، فصرت مسؤولاً عن عدد من الخلايا والرفاق ومشاريع الرفاق (كلمة طالما مقتُها، إذ كيف يمكن لإنسان أن يكون مشروعاً؟). وسأتعرف في هذا السياق على عدد متزايد

من الرفاق الجدد. كان العمل الحزبي يبدو لي أحياناً كلعبة "ضيفة وضيوف" التي كما نلعبها ونحن صغار. نأخذ زاوية في غرفة الجلوس، ويمثّل بعضنا دور أهل الدار وبعضنا الآخر دور الضيوف، فنقدم الماء في فناجين القهوة، ونروح ننمّق كلماتنا كما تفعل أمهاتنا آن يستقبلن ضيوفهن. زاد هذا الشعور حين صرت أتلقّى بريد الخلايا وتقاريرها، ومن بين الرفاق والرفيقات أصدقائي الذين أسهر معهم مساءً. أعرف خطهم، وأعرف أسلوبهم في الكتابة، وأعرف كيف يتنفسون. فهذا خط فاديا، وذاك خطّ برهان، وتلك الرسالة من حنان أو حسيبة.

ستسحرني حسيبة عبد الرحمن بشكل خاص بحضورها الطاغي. كانت تمثّل كلّ ما يحبّه الفتى الثوري في الفتاة الثورية: تدخّن السجائر الوطنية بشراهة، تغب العرق البلدي ولا تسكر، تناقش في السياسة والفكر، مغرمة بروزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت وتروتسكي، تقرأ بمتعة كتاب "استمع أيها الصغير" لفيلهلم رايش، وتحب بابلو نيرودا ولوركا ومحمود درويش. وكانت جميلة. أسرتني بشكل خاص يداها الرشيقتان وأصابعها النحيلة، التي تشبه أصابع عازفة بيانو أكثر مما تشبه أصابع مناضلة ثورية، ولذلك تحديداً، اخترتُ لها اسماً تنظيمياً رشيقاً: رشا، ستحمله طويلاً، وسيلذّ لي ذلك. في كلّ مرّة تعود فيها من الضيعة، قرب مصياف، كانت تحضر معها مونة تكفي قبيلة، فتطبخ لنا برغلاً بالحمّص. أزورها في بيتها المتهالك في حيّ كفر سوسة القديم، الذي نجا بمعجزة من الاستملاك والانضمام إلى جنّة الأثرياء الجدد الذين أتى بهم حافظ الأسد إلى ساحة المجتمع والاقتصاد. أحضر معي نبيذاً وطنياً رخيصاً، ونبدأ معاركنا السياسية، فوراً، ومن دون مجاملات. كانت حسيبة تعتقد أن الرابطة ليست ثورية بما فيه الكفاية. وهي لم تكنْ تُكِنّ احتراماً كبيراً للقياديين في الرابطة كما كان يفعل معظم الرفاق. كانت تراهم بشراً، تعرف معظمهم، وبينما كان ولاؤها للرابطة لا يتزعزع، فقط كانت لا ترى لماذا عليها أن تطيع هؤلاء الأفراد. وكنت أكثر منها إدراكاً بذلك، ولكن

كان يلذّ لي أحياناً أن أناكدها، لأراها وهي تنفعل، فترخّ الكلمات من بين شفتيها كحبّات بَرَدٍ صلبة وقوية وجميلة. ستُعتقل حسيبة مرات كثيرة. فقدت القدرة على عدّ المرّات التي اعتقلت فيها أو استدعيت إلى فروع الأمن. ولسوف تنال قسطاً وافراً من التعذيب، وسيكون مردّ ذلك ثلاثة أمور: كونها من أسرة علوية، ولكن ليس لديها أي قريب في السلطة؛ رفضها الاعتراف بما يطلبه منه المحقّقون؛ و"وقاحتها" الجميلة في الرد على إهاناتهم بإهانات مماثلة. بعد خروجها من أحد الاعتقالات، ستكتب حسيبة رواية جميلة بعنوان "الشرنقة"، تحكي فيها عن تجربة السجن الأولى، وتفتح أوراق السجن ورقة، ورقة. لم يحبّ البعض روايتها، واعتبرها "استعراضاً للغسيل الوسخ"، أما حسيبة، فكعادتها، ابتسمت بسخرية، وتركت الأمور وراءها، وبحثت عن شيء جديد. سترتبط بعلاقة فاتنة مع صديقي جبرا بعد خروجه من السجن في 4 شباط 1980، علاقة غريبة ولكن مدهشة. كان في الاثنين من الطيبة ما يكفي عشرة أشخاص ومن الجمال ونقاء الروح ما يكفي عشرين، ولكنّ لهما طبعين مختلفين: جبرا بهدوئه وسكونه الداخلي وحسيبة بتمردّها الذي لا يقف عند حد أبداً. حين خرجت من السجن عرفت أن علاقتهما انتهت منذ زمان. كانت حسيبة تستعدّ للسفر إلى جبرا في باريس. حصلت على الفيزا، واشترت البطاقة، وكانت تنتظر موعد السفر، حين اتصل بها جبرا، وأخبرها أن كل شيء بينهما انتهى،

وبينما تشردنا نحن في كلّ أصقاع الأرض، ستظل حسيبة في دمشق، تقاوم التهجير والاستملاك ورجال الأمن والثوريين الجدد المحترفين على فيسبوك، تتشبث ببيتها وتطالب بمعرفة مصير رفيقها المغيّب عبد العزيز الخيّر، وتعدّ من تبقّى في المدينة من رفاق وأصدقاء. ولا تزال تنتمي إلى حيّ كفر سوسة الدمشقي القديم، الذي اقتلع الفاسدون توته الشامي، وغرسوا مكانه طوابق الحجر. "أنا صامدة في قلعتي،" تقول المرأة التي لا تزال تحتفظ بسحر الصبية ذاتها، "لن أغادر طفولتي ومدرستي

وذكرياتي، لن أغادر منزلي إلا إذا انتصر الموت".

كانت حسيبة أيضاً من القلّة التي دافعت عني حين كنت أتعرض لهجوم الرفاق بسبب سلوكي "البورجوازي" وأخلاقي "الغربية". بين هذه القلّة أيضاً الذين لم تزعجهم بورجوازيتي، سيسحرني فتى آخر، جاء إلى دمشق من قريته الجميلة "كفرية" ليدرس البكالوريا في دمشق، ومن ثمّ في جامعة دمشق. كان يرتبط تنظيمياً بيوسف عبدلكي، وحين اعتقل يوسف انقطع عن التنظيم حتى وصله بي كامل عبّاس ونحن نعيد لملمة خيوط التنظيم. بعد اعتقالات أيلول، أمره الرفاق بالتخفي، ولكنّهم لم يعطوه ما يعيش عليه، فعاش على مساعدة الرفاق والأهل الأصدقاء: جمال سعيد. سيدفعني ذلك إلى أول خلاف حادّ بيني وبين رفاق لجنة العمل، وبينهم أصلان عبد الكريم. "نحن مسؤولون عنه،" قلت ومعي من الرفاق أقلية بينهم أجمل أعضاء المركزية أبو فريد (كامل عباس). ولكن الأغلبية قرّرت أنه ليس لدينا موارد لإعانة كلّ رفيق. انضمّ جمال إلى خلية مثقفين كانت تضمّ أيضاً جميل حتمل ونصّار يحيى، وكنت ألتقيه غالباً في شوارع دمشق القديمة، نسرح بين القيميرية وباب توما والعمارة، حيث تناولنا ذات مرّة صحنين من "الكنافة المدلوقة"، وكانت تلك أوّل مرّة يتعرف فيها على هذه الحلوى. راقبت وجهه وهو يتلذّذ بالطعم الدمشقي الأصيل، ويردّد: "يا إلهي!"

في الحواري الشامية، كان جمال يقرأ لي بعض قصائده. كانت قصائد بسيطة ورقراقة كالماء العذب. ولكنني أحببت قصصه أكثر. وأكثر من الاثنين كانت تروق لي نقاشاتنا المتحمسّة حول الشعر والأدب والثقافة والرسم. بسبب شعره البسيط، عرّفته على "إيماءات" يانيس ريتسوس و"أوراق العشب" لوالت ويتمان، وكانا نشرا للتوّ بترجمة متألّقة لسعدي يوسف. وبسبب علاقاته مع المثقفين والأدباء، كلّفته بتوزيع "الراية الحمراء" عليهم. وكان يعود لي بقصص ممتعة عن كيف يتلقّى المثقفون

جريدتنا.

بندر عبد الحميد وسهيل إبراهيم وعادل محمود كانوا يبتسمون، ويخبئون الظرف الذي يناولهم إياه جمال في الحال. نزيه أبو عفش اعتقد أن الفتى اللطيف مخبر للأجهزة الأمنية يريد الإيقاع به. سعد الله ونّوس كان الاكثر جدية، يحاور ويدلي برأيه ونصائحه. أستاذ الفلسفة نايف بلّوز كان يستقبله في بيته في القصّاع، ويذهب معه في التفاصيل الدقيقة لمقالات العدد السابق. خالد أبو خالد وأحمد دحبور كانا يعملان في وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا). رغب أحمد بالحوار مع جمال، بينما صاح به أبو خالد: "لا. لا أريد أن أحاورك!"، وانتهى به الحال مؤثراً الجلاد على الضحية، أما زكريا تامر فكان يشتم الشيوعيين، ولكنّه في كلّ مرة يدخل يده في جيبه ويخرجها بمبلغ ما يتبرّع به للمنظمة. ومنه تقاضى جمال أكبر تبرّع في ذلك الوقت: ٢٥ ليرة سورية. كان بوسع جمال أن يشتري بها طعاماً لأسبوعين لو احتفظ بها، ولكنه طبعاً لم يفعل.

لم يكن جمال رفيقاً أمضي معه دقائق في الطريق وأمضي لشأني، كحالي مع معظم الرفاق الآخرين. كان الوقت الذي أمضيه معه ينزلق بيسر وليونة، حاملاً معه رهافة وحسّاً وحضوراً أثيرياً لطيفاً. لعيني جمال عمق ودفء غريبان. أردت أن أعرّفه إلى صبية تشبهه في الرهافة والحضور: رنا، شقيقة صديقتنا الجميلة غادة. كانت رنا جميلة بشكل يؤلم أحياناً، لا يخفّف من استبداد جمالها سوى لطفها ودِعَتها، والبراءة الطفلية التي تطلّ من شرفتي عينيها. في أمسية أيلولية لطيفة، صحبت الاثنين إلى مطعم "أبو شفيق" في الربوة. كانت الربوة وقتها في أواخر أيامها الجميلة، ولا تزال المياه تسيل في الوادي الذي يشرف عليه المطعم. تسلّقنا الدرج الذي يحتفظ بحكايات أقدام الملايين الذين صعدوا عليه قبلنا، وجلسنا إلى طاولة منزوية. طلبت نبيذاً أحمر، ورحنا نشرب. كانت رنا تثرثر في كلّ

موضوع بانطلاقها المحبّب الجميل، بينما كان جمال يسهب في الحديث عن الشعر، بنفس الروية والهدوء اللذين سيحافظ عليهما طيلة حياته. لست واثقاً الآن، أكان الهواء الخريفي الذي تسلل إلى قميص جمال الرقيق، أم الجمال الأثيري الذي كان يفيض من رنا، أم لعلّه الجوع، فلست أعرف متى تناول آخر وجبة قبل النبيذ، ولكنني أتذكر كما لو كان بالأمس، كيف شحب لون جمال، وبدأ يتداعى من الحمّى. ورنا الرقيقة أخذت يديه، تضغط عليهما بحنان وتشعره أننا معه، كما تفعل الأمهات عموماً. طلبت تاكسي، وعدنا إلى المدينة. أوصلت رنا أولاً، ثم نقّدت السائق أجره وتركته يأخذ جمال وحيداً. فما كان عليّ أن أعرف أين يقيم.

سيعتقل جمال بعد شهور. كان قد غادر كفرية النائمة في جبال اللاذقية، عائداً إلى دمشق، بعد قرار لجنة العمل عودة الرفاق غير القياديين المتخفين إلى العلن، بعد إفراجات شباط 1980. وجمال الذي كان يطالب هو نفسه بذلك في فترة الإفراج الأولى صار يراه نوعاً من رمي النفس في النار بعد اعتقال قياديين مثل نهاد نحاس وزياد مشهور. سيتعرّض لضغط شديد من الرفاق ليعود إلى العلن، فيوافق ويعود إلى دمشق ليحتفل برأس سنة 1981، ولكنه لم يحتفل برأس السنة، ولا بكثير من السنوات بعدها. قبل يومين، أوقف حاجز للأمن العسكري، على مدخل المدينة، الميكروباص الذي كان يقلّ أكثر من عشرين راكباً. صعد ثلاثة عناصر إلى الباص وأجالوا الطرف في الركاب، ثم بسرعة أشار أحدم إلى جمال:

"أنت، أبو الترانشكوت البني، شرّف معنا."

ثمّ إلى السائق: "نزّل له أغراضه."

نزل جمال، وكما علّمه الرفاق، أراد أن يخلق ضجّة حول اعتقاله، فطلب من عناصر الأمن هوياتهم وأمر الاعتقال. كان يريد، كما سيقول لي لاحقاً،

أن يلفت انتباه "الشعب"، ولكنّ الباص الذي كان يقلّه أخذ "الشعب" معه وأسرع في المغادرة، وبقي جمال مع عناصر مفرزة الأمن "وحارس كهل لبوابة معمل الجرّارات القريب يمشي متثاقلاً بعد أن انتهت نوبة حراسته."

***

بيت وادع جميل

حياة التخفّي مختلفة في كلّ شيء تقريباً عن حياتك العادية. فأنت موجود وغير موجود. تسكن بيتاً لا يعرفه أحد سواك أو يعرفه فقط قلّة من رفاقك الثقاة، وتغيّر قليلاً أو كثيراً من شكلك وملابسك، ولا تتردّد على الأماكن التي كنت تتردّد عليها قبل التخفّي، ويشمل ذلك بيت أهلك وبيوت أصدقائك وأقاربك جميعاً. تلتقي بحبيبتك أو زوجتك خلسة في الحدائق العامة أو في بيوت أصدقاء أو تتراسلان عبر أوراق صغيرة يهربها لك رفاق آخرون. تعيش في حال من فقدان التوازن النفسي وعدم الانتماء وحاجة دائمة إلى الألفة القديمة التي كنت تستشعرها مع أهلك وأصدقائك، في بيتك ومقهاك اليومي وخمّارتك المفضّلة.

ومع ذلك لم يكن التخفّي بالنسبة لي بمثل القسوة التي عانى منها معظم المتخفّين من الرابطة وسواها من القوى السياسية الأخرى. فأنا لم أتقيد كثيراً بلوائح التعليمات الصارمة التي كان التنظيم يفرضها على أعضائه، وكنت دائماً أفاجِئ أصدقائي المجتمعين في سهرة أو حفل عيد ميلاد وأنا أطرق الباب عليهم، وأدخل لأشاركهم ما يحتفلون به. ولم يكن الرفاق في لجنة العمل يحبّون ذلك.

أول بيت سكنته بعد التخفّي كان في بلدة دمّر القريبة من دمشق، التي كانت وقتذاك بعيدة عن المدينة، ولم تكن الضاحية التي ستزدهر بعد

ذلك بعقد أو عقدين قد وجدت بعد. لم أعد أدري كيف عثرنا عليه ولكنّه كان بيتاً ساحراً، بيتاً عربياً من طابقين، سكن صاحب البيت في الطابق العلوي، وأجّرنا الطابق الأرضي وفيه غرفتان متلاصقتان يفصل بينهما باب ومطبخ صغير وحمام وحوش عربي. انفرد بيتنا عن العمار قليلاً. تسير خطوات قليلة فقط خارج باب الدار لتجد نفسك عند جدول ماء صغير يجري كنهير فاتن ليسقي الأرض المحيطة. حين يكون الجو صحواً، سآخذ كتاباً وكوباً كبيراً من الشاي، وأجلس عند حافة النهر، أقرأ وأصغي إلى السكون العميق الذي كان يحيط بي بجلال وحكمة.

شاركني في سُكْنى البيت ثلاثة رفاق ممن انضمّوا معي إلى الهيئة المركزية: علي الكردي وكامل عبّاس وأحمد رزق. كان علي الكردي أحد معلميّ وناصحيّ في مسائل التنظيم، وقد كان مسؤولي في أوّل خلية حزبية ضمتني ونصّار يحيى. يتمتّع علي بقدرة عجيبة على التواصل مع الآخرين وبصبر وأناة شديدين وابتسامة آسرة نادراً ما تفارق وجهه، ولكنك لا تريد فعلاً أن تستفزّه، فهو إن وصلت الأمور عنده إلى غايتها انفجر في غضب شديد بلهجته الفلسطينية المحبّبة، وإن كان ذلك نادراً جداً، ليس معي على أية حال. لن يطيل علي البقاء بيننا؛ سيعتقل في شهر آب 1979 لبضعة أشهر، ليخرج مع بقية الرفاق في شباط التالي. ولكن الأمن السوري لن يتركه، سيضغط عليه لكي يتعامل معهم، وسيرفض بالطبع، فيعيدون اعتقاله في ربيع 1982 لتسع سنوات، ثمّ سيعاد توقيفه لشهر واحد في 1995 في أسوأ فروع المخابرات: الجوية. لا الاعتقال ولا التعذيب ولا الحرمان سيجعل الابتسامة الهادئة اللطيفة تختفي من عيني الفلسطيني النبيل الذي حمل سوريا في قلبه إلى أن اضطر لمغادرتها وعائلته إلى مدينة فايمار في ألمانيا، المدينة التي عاش فيها يوهان جوتة وفريدريش شيلر وفريدريش نيتشه والمعماري البلجيكي هنري فان دي فيلده مؤسس طراز الباوهاوس.

كان كامل عباس أكبرنا عمراً وأكثرنا خبرة وثقافة. تخرّج من كلية العلوم وعمل مدرّساً للمادّة في مدارس اللاذقية قبل أن تضطرّه حملة الاعتقالات إلى التخفّي في آذار 1977. غير أنه لم ينسَ العلوم مطلقاً، ففي كلّ نقاشاته كان يستند إلى تحليل علمي منطقي وتسلسل للأمور يبدأ دوماً من العام إلى الخاص، من الصورة الكبيرة إلى التفصيل الجزئي. كان لطيفاً، كريماً، ولكنه شديد الحساسية، وسترافقه حساسيته حتى يومنا الراهن، وهو يقود اليوم تنظيم إعلان دمشق في اللاذقية، من دون أن يخفي خلافه مع المركز في دمشق. سيعتقل كامل تسع سنوات، ومثلنا جميعاً سيتعرّض لتحولات سياسية وفكرية عميقة، وحين سيخرج، سترفض السلطة إعادته إلى عمله كمدرّس كما أعادت معظم من كان موظفاً قبل الاعتقال.

ثالث الثلاثة، أحمد رزق، كان شاباً غضّاً فاتح البشرة بعينين عسليتين طيّبتين، جاء من مدينة سلمية، حيث الجميع مسيّسون ومثقّفون وشعراء. كان يدرس الطبّ في جامعة دمشق، ويحاول أن يتعلّم الحياة في رابطة العمل. كان يقرأ كثيراً، ويناقش كثيراً. وبينما كنت أنسى نصف ما أقرأ بعد ساعات، كان أحمد يخزّن المعرفة ويستخدمها دائماً عند الضرورة. لم أره في يوم غاضباً، وعلى الرغم من أنه كان أصغرنا سنّاً، فقد كان دوماً قادراً على استيعاب خلافاتنا الصغيرة. في السجن، سيلعب الدور نفسه، وحين يفشل سينكفئ على ذاته مع كتاب أو جريدة. وبينما رأيت الجميع من دون استثناء في حالة غضب وعنف لفظي أو جسدي، كان أحمد الوحيد الذي لم أره غاضباً أو منفعلاً. كان طيّب السريرة، طيّب الحديث، وطيّب الحضور. حين خرجنا من السجن، تابع دراسته وتخرّج طبيباً، وفتح عيادة في قرية قرب مدينته، سلمية، ثمّ اختفى عن الرادار، لا تويتر ولا فيسبوك ولا إنستغرام، ولا حتّى إيميل: فشلت كلّ محاولاتي في التواصل معه، وبقيت منه ذكرى جميلة: فتى وسيم يداعب بإبهامه وسبابته شاربه الأيسر وهو يصغي إلى النقاش بصبر وأناة قبل أن

يدلي في الحديث بدلوه.

حين تبتعد عن الحدث أربعين سنة، تبدو تلك الأحداث صغيرة كأنك تنظر إليها من أعلى برج شاهق، ويحلو لي اليوم أن أشبّه بعض تصرفاتنا بلعب أطفال أكثر منه عملاً سياسياً ناضجاً. إضافة إلى عضويتنا في الهيئة المركزية، كنت مع علي نشكّل اللجنة المنطقية لدمشق، فكنا ننعزل عن أحمد وكامل في الغرفة الداخلية لنقرأ رسائل الخلايا وتقاريرها ونردّ عليها. أشعر الآن بالخجل لذلك الشعور بالخيلاء الداخلي الذي كان يجتاح جسدي كالنمل ونحن نعتزل الرفيقين الآخرين، فكأننا نقول لهما إننا نعلم ما لا يعلمان، أو حين تصلنا رسالة من فاديا أو حنان حسيبة، فأكتب الردّ بخطّي الذي يعرفنه جميعاً، ثم نتصرّف، إذ نلتقي بعد ذاك، كأننا لم نتراسل في الأمس أو اليوم الذي قبله.

كان صاحب البيت من دمّر نفسها، يعمل موظّفاً صغيراً في مطار دمشق، لطيفاً، دائم الابتسام، كثير المجاملة، بينما كانت زوجته الحامل أقرب إلى الصرامة والجدّ، وقد بدا واضحاً منذ اليوم الأول أن الزوجة هي من يقرر في البيت، فرحنا نتودّد إليها، لنكسب عطفها.

وكانت المواصلات بين دمشق ودمّر قليلة: مجموعة من الميكرو باصات التي تزحف من جسر فيكتوريا إلى البناء الذي مكث فيه لسنوات المعهد العالي للفنون المسرحية، حيث كنت أتوقف فيه أحياناً لدقائق لأسلّم على فوّاز الساجر أو أشرب الشاي مع جمال سليمان أو عبد الحكيم قطيفان. كانت الرحلة بين المدينة والقرية تستغرق نحو عشرين دقيقة من الجمال قاطعة منطقة الربوة التي تفصل بين المدينة والضاحية، على امتداد نهر بردى الذي كان لا يزال الماء يجري فيه آنذاك. تركت البيت مرّة في طريقي إلى موعد حزبي، وفي جيبي رسالة إلى الخلية المعنية، مطوية كالعادة عدّة مرات وملصقة بلاصق شفّاف، كتب تحته اسم الخلية. نزلت الطريق الملتوية من أعلى دمّر إلى السكّة

الرئيسية لأستقلّ الميكرو باص، وحين وصلت إلى السكّة غاب فجأة كلّ شيء عن ناظري. أذكر أنني استفقت في سيّارة سيدان صغيرة، وفيها ثلاثة شباب يافعين. كأن أحدهم يقود السيارة والآخران ينظران إليّ بما يشبه القلق.

"الحمد لله على سلامتك" قال أحدهم.

"وين أنا؟ شو صار معي؟" سألت وأنا أستعيد وعيي تدريجياً من هؤلاء؟ ولم أنا معهم؟

"ضربتك سيّارة وهربت. نحن ننقلك إلى المستشفى."

أصبت بهلع شديد. المستشفى يعني سؤال عن الهوية وتحقيق شرطة ومعرفة من أنا. رفعت رأسي بسرعة وقلت: "لا. لا ضرورة للمستشفى." تذكّرت الرسالة، فمددت يدي ببطء وحذر أتحسّس جيب بنطال الجينز الذي كنت أرتديه. كانت الرسالة تستقر هناك، بأمان ودعة. وكأن الشباب أحسّوا براحة وفرج يأتيانهما منّي، فهم أيضاً لا يريدون سؤالاً وجواباً، وتحقيقاً. وسألني أحدهم لرفع العتب فقط: "ليش؟"

"ما في ضرورة. عن جد. أنا منيح." قلت بسرعة، وأثبتت أنني بخير بأن جلست من مضجعي في السيارة. وكرّرت: "أنا منيح. قليل من الصداع فقط. حبة أسبرين ستكفي. أنزلوني عند أي صيدلية من فضلكم." وشعرت بالامتنان أولاً لأن الثلاثة ليسوا رجال أمن ولأن الرسالة لا تزال في جيبي سليمة، ولأن الشباب (وربّما هم من ضربوني بالسيارة) اقتنعوا بسهولة ألا يأخذوني إلى المستشفى، وأنزلوني عند أقرب صيدلية، ابتسموا في وجهي. قال قائلهم: "معافى!" وشكرته بابتسامة ضعيفة، وترجّلت. اشتريت علبة أسبرين من الصيدلية وابتعلت حبتين من دون ماء، وخرجت. بيد أن الأسبرين لم يجدِ. سأعرف حين أسافر إلى بيت أختي في حماة للاستشفاء من الطبيب صديق العائلة أنني مصاب

بارتجاج في الدماغ وأنني سأحتاج إلى أسابيع لأتعافى ربما. وفي لجنة العمل، كانوا يتساءلون: أكان ذلك حادثاً مفتعلاً؟ العميد، بعقليته الأمنية، كان يعتقد أن كلّ أمر مدبّر وأن الأمن هم من كان وراء الحادثة. قال لي ذلك حين عدت إلى دمشق. ابتسمت في وجهه، وقلت: "سوريا ليست تشيلي، يا رفيق!" كان علينا أن ننتظر سنوات لتصل سوريا على حالة من التردي تتفوّق فيها على تشيلي والأرجنتين وكلّ الدول الدكتاتورية في المعمورة.

حين عدت إلى البيت، زارنا صاحب البيت للاطمئنان، باشّاً مستبشراً.

"سلامتك، شغلتنا عليك،" قال لي وهو يبتسم، كأنه يريد أن يقول شيئاً. وما أن سألته عن حال زوجته حتى سارع للقول بفرح:

"ولدت. جابت بنت. سميناها سلافة".

وصمت لحظة قبل أن يضيف: "على وزن زرافة."

وأغرق في ضحك مديد.

***

في ليلة الأول من شباط 1979، أقلعت طائرة تابعة لشركة "إير فرانس" من مطار رُوَاسي في ضواحي باريس متوجّهة إلى طهران، في رحلة خاصة. على متنها كان الرجل الذي كان العالم بأسره يحتفي به باعتباره مؤسس الديمقراطية الجديدة في إيران: آية الله الخميني. كان شاه إيران قد غادر طهران قبل أيام، واحتفل اليسار العالمي والليبراليون والديمقراطيون ودعاة حقوق الإنسان بالعجوز الذي كان يعود وفي جيبه تسعة عشر مبدأً وعد بتحقيقها، بما في ذلك الاستقلال والحرية والديمقراطية وحرية المعتقد والسيادة الشعبية وحقوق الإنسان وفصل المؤسسات

الدينية عن الدولة. حفنة قليلة من اليساريين كانوا ينظرون بريبة إلى كل ما يحدث. من هذه القلّة كانت هيئة تحرير الراية الحمراء التي عقدت اجتماعاتها في بيتنا بدمّر لمناقشة رأي الرابطة. ليس لديّ الكثير عموماً لأتباهى به، ولكن من بين القليل الذي لديّ موقفي من الثورة الإيرانية والافتتاحية النارية التي كتبتها في شباط 1979، وقلت فيها بوضوح إن هيمنة رجال الدين على الثورة سوف تعيد إيران إلى القرون الوسطى، وربطتُ بين هيمنة الدين على الدولة والفاشية، وتوقّعتُ أن الخميني لن يتباطأ في التنكّر لكلّ وعوده حال تمكّنه من الحكم في طهران. لم تعد إيران إلى القرون الوسطى وهي اليوم تطوّر أسلحة نووية، ولكنها تحوّلت إلى ما هو أسوأ. وبغض الطرف عن تقييمنا اليوم لظاهرة رابطة العمل الشيوعي ومظاهر الطفولة اليسارية والسذاجة السياسية التي كانت تسيطر عليها، فسأظل دوماً أحترم ما يشبه الإشراقات السياسية في مواقفها الخارجية، ومنها موقفها من سرقة الملالي لثورة النساء والرجال الإيرانيين. أثار موقفنا من الخميني انتقادات عديدة بين اليساريين السوريين، وسيقول لي أحمد جمّول حين ألتقيه في بيروت: "اسمع يا وائل: شحاطة الخميني تساوي أكبر حزب شيوعي اليوم".

ثمّ جاء نيسان. انفجرت شقائق النعمان حول بيتنا بفجور فاتن. كنت أسير على حافة النهر الصغير خارج بيتنا، أتأمل الفتنة من حولي، وأفكر في أبيات إليوت في قصيدة الأرض الخراب:

نيسان أقسى الشهور، يُخرج

الليلكَ من الأرض الموات، يمزج

الذكرى بالرغبة، يحرك

خامل الجذور بغيث الربيع

"وائل!" صاح بي علي. في صوته رجفة تشي بقلق وخوف وغضب. "في اعتقالات جديدة في اللاذقية."

وبدأت حملة جديدة من الاعتقالات ضدّ التنظيم. كان النظام قد بدأ يشعر بالحقد على التنظيم، وبدأ قادته ورؤساء الأجهزة الأمنية يشعرون أن هيبتهم صارت على الطاولة، فالرابطة كانت التنظيم اليساري الوحيد الذي لم يُقضَ عليه في الحملات السابقة، بينما انتهت كلّ التنظيمات اليسارية الصغيرة الأخرى التي ظهرت مع الرابطة في السبعينات. ومن جديد بدأت رحلة انتقال أخرى، وانتشرنا في المدينة نحاول الاتصال بالرفاق لتنبيههم ولحساب الخسائر في الجسد الذي بدأ ينهك ويرهق.

وفي البيت نفسه، وصلني نبأ اعتقال صديقي جبرائيل غربي، جبرا. أرسله الرفاق في رحلة غير ضرورية إلى اللاذقية، يحمل رسالة لا يعرف مضمونها. وصل جبرا إلى موعده، ولكن بدل الرفيق الذي كان من المتوقع أن يستقبله، كان ثمّة شاب آخر يحمل علامات الأمان نفسها. اقترب منه وأعطاه كلمة التعارف. بسرعة البرق، طارت إليهما سيارة الأمن، فاحتوت جبرا في جوفها وأخفته حتى شباط 1980.

كان الخبر شديد الوطأة. لم يكن جبرا رفيقاً آخر، كان صديقي الذي أحكي له هواجسي وأشكي له ضعفي وأغني معه "بيتي أنا بيتك، ما إلي حدا، من كتر ما نديتك، وسع المدى!"

أما نحن فكان علينا أن نتهجّر من جديد وأن نترك البيت الوادع. كان خروجي من البيت يشبه خروج آدم من الجنّة. وحتى اليوم، سكنت في بيوت لم أعد أذكر عددها، ولكن لا بيت منها يداني في الجمال والوداعة والهناءة والأمان بيتَ دمّر. بعد أشهر سيعتقل علي أيضاً، على الرغم من حسّه الأمني العالي عادة، اصطحب رفيقاً إلى مقهى اللاتيرنا وسط دمشق. سيلاحظ وجود شخص كان يتردّد على كلية الفنون الجميلة،

ويُشكّ بأنه مخبر. لم يسعفه حسّه الأمني في المبادرة للمغادرة. كان النادل يضع أمامها كأسي بيرة مثلّجة، مغرية كتفاحة آدم، رفعها وغبّ أوّل جرعة منها. قبل أن يضعها كان تركي علم الدين بجانبه ومعه ثلّة من العناصر:

"أهلين أستاذ علي"

"مين علي؟" قال علي بسذاجة، وقد أُخذ على حين غرّة.

"تعال معنا ولا تتذاكَ."

قيّده العناصر ورفيقه، وساقوهما خارج المقهى. كانت كلّ المداخل والأزقّة المؤدية للمقهى مغلقة من كل الجهات وقد انتشر فيها المسلحون بكثافة. وعلِي المتواضع الجميل سأل نفسه: " أأنا بهذه الأهمية ولا أعرف مقدار نفسي؟"

كي لا يعترف على بيت المركزية، اعترف على بيت دمّر. شكّل تركي علم الدين دورية وأخذ عليّاً بعد منتصف الليل. راحوا يقرعون الجرس ويطرقون على الباب بهمجية، وصاحت أم سلافة: "شو بدكن؟ أنا مرة لوحدي. روحوا جيبوا المختار." راح العسكر يمطرونها بالشتائم، حتى تدخل عليّ:

"أم سلافة، أنا رياض (الاسم الذي كان يستخدمه). كنت ساكن بالبيت مع رفقاتي. لا تخافي ما في شي: بدن يسألوك كم سؤال."

فهدأت المرأة وفتحت الباب، ودخل الأوباش. ودخلت معهم، ولم يستطع علي، على الرغم من قساوة الحال سوى أن يبتسم لرؤية أبو سلافة مختبئاً وراء زوجته. كانت تلك ربما آخر ابتسامة له أثناء التحقيق، فتركي علم الدين الذي أحس بالإهانة لم يغفر له أنه لم يسلّم أحداً.

بليخانوف، لينين، وتروتسكي في دمشق

لم تكن حملة اعتقالات نيسان 1979 أكبر من الحملات اللواتي سبقنها. لعلّها كانت أصغر، ولكنها كانت اللحظة التي أطلقت صفّارة الإنذار الداخلية لدينا. لم يعد لدى الرابطة كوادر يمكنها أن تضحّي بها أكثر. وهيئتنا المركزية التي احتفلنا قبل شهور فقط بترميمها وإعادتها إلى الرقم الجميل 11، نقصت من جديد عضوين هما مصطفى خليفة الذي كان أحد مسؤولي الطباعة في حلب وحسام علوش. ولكن الجديد في الحملة كان نقل ملفّ رابطة العمل من يد إدارة المخابرات العامة إلى شعبة المخابرات العسكرية التي كان على رأسها الرجل الذي كان مجرّد ذكر اسمه يثير رعب السوريين، علي دوبا. منذ منتصف السبعينات بدأ نجم علي دوبا بالسطوع. من ابن شيخ قروي من قرية قرفيص في جبال اللاذقية إلى واحد من الخمسة الأقوياء الذين أحاطوا بدكتاتور سوريا حافظ الأسد، كان علي دوبا قد قطع رحلة طويلة ومعقّدة. وحين تسلّم رئاسة المخابرات العسكرية عام 1974، علم الجميع أن نجماً جديداً قد بدأ يعلو في سماء العنف السلطوي والفساد. بعد سنوات، سيستخدم حافظ الأسد علي دوبا مع زملائه علي حيدر وإبراهيم الصافي وشفيق فيّاض ضدّ طموحات شقيقه رفعت الأسد الانقلابية، قبل أن يدرك أن بسالته في مواجهة رفعت لم تكن ولاءً لحافظ وحسب وإنما تمهيداً لبناء إمبراطورية مالية سيشرف عليها ابنه محمّد، الذي سيختفي

في ظروف غامضة مطلع الثورة السورية.

كانت فلسفة حافظ الأسد الأمنية تقوم على مبدأ تعدد الأجهزة الأمنية وتفاوت صلاحيتها وتداخلها وزرع التنافس بين قادتها. جزء من هذا التنافس سيكون حول الملفّات التي تعمل الأجهزة عليها. سيكون هذا التنافس مفيداً أحياناً. حين سأعتقل بعد سنتين، سأدرك أن المخابرات العسكرية لا تعرف عني سوى اسمي ومكانتي الحزبية، لأن الأجهزة لا تشارك معلوماتها، ولأن ملفي الكامل كان لدى إدارة المخابرات العامة. استولى علي دوبا إذن على ملفّ رابطة العمل، وكان أول إنجازاته حملة نيسان.

عقدنا اجتماعاً للهيئة المركزية بعد أيام من الحملة، وكان اجتماعاً عاطفياً وغاضباً، أنحى بعضنا باللائمة على الانفلات الأمني، ونالني من هؤلاء الرفاق الكثير، بسبب عدم مراعاتي للقواعد الأمنية، بينما كان الرأي الآخر يقول إن سلوكنا الأخير بعد حملات 1977 و1978 هو الذي دفع بالأجهزة الأمنية إلى التغوّل. كنت من أصحاب الرأي الأخير ومعي كامل عباس وعلي الكردي وأحمد رزق، بينما كان فاتح جاموس ومنيف ملحم والعميد (زياد مشهور) من أصحاب الرأي الأول.

لم يكن النقاش على أي حال وليد اللحظة، بل كان تتويجاً لنقاش داخلي بدأ منذ راح الرفاق يسكرون بالشعبية التي بدأت الرابطة تكتسبها في أوساط الشباب والطلبة والنساء بشكل خاص. حين شنّ النظام حملته الأولى على التنظيم في آذار 1977، كانت تلك صفعة على وجهنا، وكنا أمام خيارين اثنين: إما أن نواجه الضربة بتصعيد نشاطنا وبياناتنا ومواقفنا السياسية أو ننحني للعاصفة ونحاول تخفيف النشاط. كان أحمد جمول وعلي الكردي (وأحياناً هيثم العودات) من مؤيدي ذلك الطرح، ولكن أغلبية الرفاق آثروا التصعيد والردّ على الضربة بضربة. ولم يبقَ ذلك في مجال العمل والتكتيك، بل انتقل إلى مجال النظرية، حيث

تمّ نسف مقولتنا الأساسية في الخطّ الاستراتيجي للرابطة التي كانت تقول إن الثورة القادمة هي ذات طبيعة ديمقراطية، فقرّر الرفاق أن طبيعة الثورة تتحدّد بنمط الإنتاج القائم وليس باستكمال مهامها، ولأن النظام القائم في سوريا هو نظام بورجوازي بيروقراطي يعبّر عن رأسمالية الدولة، فإن الثورة الديمقراطية بمضمونها قد أنجزت، وما تبقى من مهامها ستنجزه الثورة الاشتراكية التي ستقع على كاهل الجبهة الشعبية المتّحدة بقيادة الحزب الشيوعي.

هذا النقاش الداخلي كان متابعة بدأه قبل أكثر من سبعين سنة ثلاثة ماركسيين كبار، بليخانوف ولينين وتروتسكي حول طبيعة الثورة الروسية ومن هي القوى الاجتماعية السياسية التي يتوجّب عليها قيادة التحرّك الديمقراطي. في 1905، كتب لينين رسالته الشهيرة "خطتان للاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية"، يردّ فيها على بليخانوف ومارتوف اللذين كانا يعتبران أن الانتقال الديمقراطي مقدمة لا مندوحة عنها قبل الانقلاب الاشتراكي وأن هذا الانتقال يجب أن يقاد من قبل البورجوازية الروسية، بينما يقوم الاشتراكيون الديمقراطيين بنقدها ودفعها من اليسار. لينين كان يعتبر أن البورجوازية الروسية ضعيفة وعاجزة عن قيادة الثورة الديمقراطية نظراً لدخول الرأسمالية في المرحلة الإمبريالية. وبالتالي، رغم إقرار لينين بالطبيعة الديمقراطية للثورة الروسية، فقد قرّر أن "ديكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية" هي الأداة التي ستحقّق ثورة روسية على طراز ثورة 1789 البرجوازية الفرنسية بقيادة "حزب الطبقة العاملة الذي يقود تحالفاً عريضاً من الفلاحين وكل الفئات الراغبة في التغيير". ضدَّ الرجلين، كان شاب يكتب من زنزانته في أحد سجون روسيا أنه لا يمكن الفصل بين مهام الثورتين الديموقراطية والاشتراكية، وإن هاتين الثورتين متداخلتان ومتشابكتان في "ثورة دائمة". هذا الشاب كان اسمه تروتسكي الذي سيقتله ستالين بعد سنوات طويلة في منفاه في المكسيك.

كان ماركس يحب أن يكرّر عبارة هيغل الشهيرة "الأحداث التاريخية والشخصيات (personages) الكبيرة تكرر نفسها مرتين"، ولكنه يضيف من عنده أن المرّة الثانية غالباً ما تكون نسخة مهزلة (farce) عن المرة الأولى. ويدلّل على ذلك بشخصية كوسيدير مقارنة بدانتون ولويس بلان مقارنة مع روبسبيير، ولويس بونابرت مقارنة بعمّه نابليون بونابرت. بعد نحو أربعين سنة ونيف، يمكنني أن أقول إن نقاشنا حول طبيعة الثورة في سوريا كان النسخة المهزلة لنقاشات بليخانوف ولينين وتروتسكي. كنت أقف في حذاء بليخانوف الضخم، بينما وضع فاتح جاموس نفسه حذاء لينين، وتمترس منيف ملحم كالعادة حذاء تروتسكي.

ولكن النقاش سرعان ما انتقل في شهور نقلة الشيوعيين الروس في اثنتي عشرة سنة. أثناء طريقه عائداً إلى روسيا عبر ألمانيا بقطار ألماني مقفل، كتب لينين رسالته المستعجلة موضوعات نيسان، وفيها قرّر أن الثورة الديمقراطية البرجوازية قد انتهت، وأن روسيا باتت بصدد البدء في التحويل الفوري لهذه الثورة إلى الاشتراكية، مطالباً بتدمير جهاز الدولة البرجوازية القديم، وإقامه جمهورية سوفيتات نواب العمال، والعمال الزراعيين، والفلاحين في جميع أنحاء البلاد من الأسفل إلى الأعلى وإلغاء الجيش والشرطة والموظفين. لم أعتقد يوماً أن لينين كان محقّاً في طرحه ذاك، ولكن مرور اثنتي عشرة سنة ما بين طرحه الأول حول الانتقال الديمقراطي وطرحه الثاني الثورة الاشتراكية كان يمكن فهمه. ما لم يمكنني استيعابه مع ذلك كان كيف تغيّرت ظروف نمط الإنتاج في سوريا، لتغدو طبيعة الثورة ثورة اشتراكية.

ترافق هذا التحوّل مع تحوّل في النشاط التحريضي للرابطة، ولم نعد ننتظر تطوّر الظروف الموضوعية لنهوض الحركة الشعبية بل بات علينا استنهاضها من خلال زيادة توزيع بياناتنا ومنشوراتنا، وبخاصة "النداء

الشعبي" التي كانت موجّهة بلغة بسيطة ومباشرة إلى العمال والطلبة.

هذه هي الظروف الصعبة والضاغطة، اجتمع من تبقّى من أعضاء الهيئة المركزية: أصلان عبد الكريم وفاتح جاموس ونهاد نحاس وكامل عبّاس وعلي الكردي ومنيف ملحم وزياد مشهور وأحمد رزق والعبد الفقير. وكان إذن اجتماعاً عاصفاً، تعالت فيه أصواتنا تحت تأثير الضربة الجديدة والنزيف المستمرّ. بعضنا استعاد فكرة حلّ الرابطة والعودة إلى العمل الدعوي في ظل الحلقات الماركسية غير المركزية، كما سبق لأحمد جمول أن فعل قبل أقل من سنة. بالمقابل، شدّ الطرف الآخر القوسَ في الاتجاه المعاكس فطالبوا بمزيد من النشاط السياسي والتحريضي. أصلان عبد الكريم الذي كان دائماً ما يستطيع ضبط دقّة النقاش وإعادته إلى مكانه الصحيح فعل ذلك أيضاً في الاجتماع وجعلنا نضبط أعصابنا ونصل إلى حلول مشتركة. جاءت ضرورة حماية المنظمة في مقدّمة الأولويات، فمن دون تنظيم ثوري "من أين ستأتي الثورة؟" سأل أحدنا. ومن أجل ذلك كان لا بدّ من تغيير النهج السابق القائم على أساس التضحية بالذات من أجل الغاية، وباتت النفس والغاية متداخلتين، يصعب فصل إحداهما عن صاحبتها.

ولتأكيد أولوية حماية التنظيم السوري، جاء اقتراح بقسم المركزية إلى مجموعتين مستقلتين: لجنة عمل تبقى في دمشق وتقود العمل التنظيمي وطباعة الجريدة والتعامل مع القوى السياسية والدوائر الاجتماعية الرافدة للتنظيم في الداخل؛ وأخرى في بيروت تعمل كهيئة تحرير للراية الحمراء ومجلة الشيوعي، وتكون في الوقت نفسه قيادة ظلّ، تعود إلى سوريا في حال اعتقال القيادة في الداخل وتتابع النضال؛ وتتابع أيضاً العلاقات الثورية مع المنظمات الثورية العربية في لبنان. وبينما بقي فاتح ونهاد والعميد ومنيف وعلي الكردي في دمشق، تمّ اختياري مع أصلان عبد الكريم وكامل عبّاس وأحمد رزق للسفر إلى

بيروت.

كرهت فكرة السفر. من جانب لأن ذلك يكون نفياً وليس سفراً طوعياً، ومن جانب آخر لأنني سأبتعد عن دمشق، المدينة التي فتنتني منذ زرتها أول مرّة في إحدى إجازات المدرسة الصيفية، سأبتعد أيضاً عن فاديا وحنان والأصدقاء. وكرهت فكرة أنني لا أعرف متى أعود أو كيف أعود. بيد أن خياراتي كانت صفراً، فمن جانب، لم تكن خبرتي التنظيمية تؤهلني للبقاء والعمل في ظروف شديدة الوطأة على التنظيم، ومن جهة أخرى كنت واحداً من قلّة يمكنها فعلاً بلورة سياسة الرابطة في مقال أو افتتاحية.

في يوم ربيعي حار من أيار 1979، ودّعت فاديا. قلت لها إنني سأبتعد عن دمشق. لم أقل لها إنني سأكون في بيروت، فذلك كان يفترض أن يكون سرّاً على الجميع خارج المركزية. تركتها وسرت طويلاً، وحيداً، في الشوارع التي أحبها، فانحدرت من باب توما إلى القيميرية فالعمارة، وخرجت إلى شارع الملك فيصل الذي كانت حوانيته قد أغلقت للتو، فبات موحشاً كقلبي. انفلتُّ إلى شارع الثورة، وانعطفت يساراً إلى سوق ساروجة، وصعدتُ إلى بوابّة الصالحية، مارّاً بكنافة أباظة وسينما الأمير وسينما الزهراء، ثم دخلت شارع العابد قبالة البرلمان، وانعطفت يمنة في حارة خمّارة فريدي. دخلت الخمّارة؛ كان أبو جوزيف يجلس في صدر الدكان الطويلة كحافلة، وعلى الجانبين اصطفت ثماني طاولات متوازية في صفّين. وهتف من قرب الباب صوت عميق أجش: "يا ابن السوّاح!" التفتُّ: كان الشاعر العتيق الجميل مصطفى البدوي جالساً ومعه نديم.

"أهلا أبو حسين،" قلت له.

"تعال اجلس. يوجد كرسي هنا."

كان مصطفى البدوي شاعراً مشاغباً، تجاوز وقتها الخامسة والستين

بقليل، ولكن أخاديد وجهه كانت تحفر عميقاً في الشعر وفي الزمان. جاع

كثيراً وتشرّد كثيراً. جاءني أبو جوزيف بكأس العرق من دون أن أطلبه، فرشفت منه خفيفاً، وقلت له، أستفزّه، حدثني عن قصّتك مع عمر أبو ريشة. فقال "اللعنة عليك."

اتهم البدوي عمر أبو ريشة بسرقة بيت لأحمد شوقي، فقاطعه أبو ريشة عشرين سنة، ثم التقيا في بيروت أثناء تكريم الشاعر بشارة الخوري، وكان معهما الجواهري، فدعاهما أبو ريشة، ميسور الحال، إلى مطعم فخم، وذهب البدوي مع الشاعرين العملاقين، ولكنه لم يضع في فمه لقمة واحدة. "رغم أنني كنت جائعاً،" كان يضيف.

"ليش يا أبو حسين."

"لأنه كان في جيبي ليرة لبنانية واحدة."

أفرغت كأس العرق في جوفي وطلبت الحساب، ولكن البدوي أزم ذراعي بقوة، وقال: "اذهب، وائل. الحساب عندي." ونظر في عيني كمن يقول: "أنا أعرف وضعك وهذا أقل ما يمكنني فعله." كان النقاش مع أبو حسين مستحيلاً. صافحته بقوّة وخرجت. وصباح اليوم التالي، ركبت سيارة صفراء من كراج لبنان وسط دمشق، وتوجّهت إلى بيروت، وقلبي مثقل بحزن مقيم.

***

جمهورية الفاكهاني

استقبلتني بيروت فاتحة ذراعيها. جزء من بيروت على الأقل. الجزء الذي كنت ألفته في السنوات السابقة، حين كنت أذرع الطريق من دمشق إليها مرّة في الشهر لإيصال الرسائل إلى الرفاق الذي كانوا يتواجدون هناك من أجل طباعة الخط الاستراتيجي أو اللقاء مع المنظمات الثورية في لبنان. كان ذلك الجزء يختصر في حيّ الفاكهاني والجامعة العربية وجسر الكولا، وأحياناً شارع الحمرا. ولكنّ علاقتي ببيروت أسبق من ذلك بكثير، وللمدينة في عنقي دين قديم.

في صباح 8 آذار 1963، أفقت من النوم على أصوات جلبة وهمهمة وحركة مكتومة في بيتنا في حمص. نهضت في فراشي والنعاس لا يزال يسكن عيني نصف المغمضتين. كان أبي يرتدي طقماً رمادياً فاتح اللون ويعتمر طربوشاً قديماً لم أره على رأسه قبل ذلك أبداً. كانت أمي تدور في البيت كنحلة، وأخواي سحبان وبشار يقفان في ممرّ البيت وعلى وجههما علامات ذهول وعجز. وإلى جوار أبي، وقف رجل غريب لم أكن التقيته من قبل، يتأمل زيّه الغريب باهتمام.

"هيك منيح،" قال الرجل الغريب.

"شو في؟" سألت بمزيج من القلق والتوجس والحذر، وأنا أرفع رأسي.
"ما في شي،" قالت أمي. "بابا مسافر."

"الوين؟" قلت وأنا أقفز من الفراش.

اقترب والدي مني ووضع يده الكبيرة على رأسي كما كان يفعل حين يستبد بي مرض أو قلق، وقال:

"لن أطيل الغياب." ثمّ قبلني وقبّل أمي وإخوتي، ونزل الدرج مع الرجل الغريب. في أسفل البناية كانت تنتظرهما سيارة مرسيدس 180، ابتلعتهما وأقلعت بسرعة لافتة.

بعد ذهاب والدي، شرح لي أخي بشار الحكاية. كانت مجموعة من الضباط البعثيين والناصريين قد قامت صباحاً باختطاف السلطة في دمشق. طوّقت الدبابات والمدرعات العسكرية المراكز الحساسة في العاصمة دمشق، واعتُقل رئيس الجمهورية ناظم القدسي، وقائد الجيش اللواء عبد الكريم زهر الدين، فيما لجأ رئيس الوزراء، خالد العظم إلى السفارة التركية في دمشق ومنها إلى لبنان.

كان بشار مستشاري السياسي، يشرح لي القضايا السياسية المغلقة عليّ. قبل سنة ونصف رأيته يقفز وسط غرفة الجلوس ويهلّل بفرح غامر. اندفعت إليه أسأله ما الحكاية، فشرح لي أن السوريين انتفضوا على جمال عبد الناصر وأن سوريا فصمت الوحدة مع مصر، ثمّ راح يحكي لي عن فظاعات عبد الناصر وعبد الحكيم السرّاج مع السوريين. وحين اغتيل الرئيس الأمريكي في تشرين الثاني/نوفمبر 1963، سألته بذكاء:

"يعني كينيدي أهم من عبد الناصر؟"

فضحك ملء شدقيه، ولكي يقرّب لي الفكرة، قال:

"عبد الناصر متل بويجي عند كينيدي."

علمت من بشار أن الرجل الغريب كان مهرّباً سيصحب أبي في الطريق

إلى لبنان، حيث سيساعده على مغادرة سوريا هرباً من الحكم الجديد. فتح أخي سحبان الراديو، وسمعنا أحد المذيعين في إذاعة دمشق وهو يعيد تلاوة البيان رقم 1 مرّة كل خمس دقائق، تفصل بينها مارشات عسكرية. ثمّ جاءت بعده مذيعة خشنة الصوت، فتلت علينا البيان رقم 2، وفيه أعلن مجلس قيادة الثورة الذي ترأسه الفريق لؤي الأتاسي، إغلاق كافّة الصحف ومصادرة ممتلكاتها. وجاء اسم أبي وجريدته "الفجر" أوّل اسم في صحف مدينة حمص. ولا زلت أذكر كيف اضطرب قلبي في ضلوعي وأنا أسمع اسم "أحمد نَورس السوّاح"، وأدركت لأول مرّة أن اسم أبي نَورس (بفتح النون) وليس نُورَس، كما كنت ألفظه في المدرسة حين أُسأل عن اسمي الكامل. انتابتني مشاعر متلاطمة. حزنت لأن أبي سيخسر جريدته ومطبعته، ولكنّ شعوراً بالغبطة كان يحتلّ جزءًا آخر من مشاعري وأنا أعلم الآن أن أبي كان شخصاً مهمّاً، يحسب له حساب ويذكر اسمه في الراديو. في اليوم التالي، في المدرسة، انتظرت أن يسألني أصحابي عن أبي، وحين لم يفعلوا، قلت لصديقي الأقرب، غانم الجمالي، "مبارح هرب أبي ع بيروت. طلع اسمه عَ الراديو." كان غانم أيضاً من عائلة سياسية. عمّه حافظ كان صديق أبي المقرّب، وأخواله كانوا قادة شيوعيين معروفين. نظر إليّ بتعاطف، ونصحني: "لا تقل ذلك لأحد!"

بعد يومين، أفقنا مفزوعين على قرْع جرس باب بيتنا عند الفجر، وعصف في البيت نحو عشرة رجال ضخام قلبوا عاليه أسفله. دخلوا غرف النوم وفتحوا الخزائن. صعد أحدهم السلّم الخشبي إلى السقيفة وبحث بين مؤونة البصل اليابس والكراكيب العتيقة عن والدي. بينما نظر آخرون تحت الأسرّة، وقلب أحدهم إحدى الفرشات. لم يكن أبي تحت الفرشة. كان قد وصل بيروت آمنا. وكانت أمي تنظر إليهم بشماتة:

"بيجوز مخبيته بعبي." قالت بتحدّ. ولم يكن الرجال للأمانة قد بلغوا

الانحطاط الذي سيبلغه خلفاؤهم في عهد حافظ الأسد وولده. نظر إليها زعيم الفرقة لحظة، كأنه يفكّر في كلامها، ثمّ أمر رجاله بالانسحاب.

كانت أمي امرأة فاتنة، قويّة، ربّتنا وحدها تقريباً، حين كان أبي مشغولاً بجريدته واجتماعاته السياسية وانتخابات البرلمان، ثمّ سهراته مع أصحابه في قهوة "الفريال" أو مطعم الأمير، وأحياناً مغامراته الصغيرة هنا وهناك. في أربعينات القرن الفائت قرّرت أنها لن ترتدي "الملاية" أكثر مما فعلت، فخلعتها وأسفرت عن وجهها، وسارت في شوارع المدينة الوادعة، وعيون الرجال -كما قالت لي لاحقاً- كانت تطرق أرضاً. ستمرّ عليها أيام قاسية بعد انقلاب آذار، ولكنها ستقود السفينة بمهارة وحذق. باعت أساورها، وباعت السجادتين العجميتين اللتين كانتا، على أية حال، مركونتين في إحدى الخزانات، ولم تطلب مساعدة من أحد. في النهارات كانت تطبخ وتأمر وتنهي، تزور خالتي أو جدّتي أو صديقتها أم رينيه، وتضحك أحياناً، ولكنني سمعتها أكثر من مرّة، وكنت أنام في غرفتها، وهي تنتحب بصمت. كثيراً ما سيكون غداؤنا شوربة عدس أو "لبن مقلّى" وهو خبز مفتوت في اللبن وعلى وجهه تقلية سمن. أما نصيبي من الأزمة فكان تخفيض "خرجيتي" (مصروفي اليومي) من ثلاثة فرنكات إلى فرنكين.

أما بيروت فكانت كريمة مع أبي. أقام فيها حتى الخريف من ذلك العام، وفتحت له الجرائد البيروتية صفحاتها ليكتب ويكسب بعض المال الذي كان يرسله لنا في حمص. وحين بدأت العطلة الصيفية سافرنا أنا وأمي وأخواي سحبان وبشار إلى بيروت لرؤية والدي. أخي الأكبر فراس لم يصحبنا؛ كان في الجامعة ولديه ما يشغله. وأما أختي مها فكانت قد أنجبت للتو ابنها البكر سامر في حماة، وما كان بمقدرها مرافقتنا.

كانت الرحلة طويلة، ولست أذكر منها سوى الحرّ الكريه الذي كان يكوينا في السيارة التي أقلّتنا من حمص إلى طرابلس ومنها إلى بيروت،

ويضاعف من الحرّ رطوبة لزجة ما كنت أعرفها في حمص. قابلَنا أبي في شارع ما ببيروت؛ وبينما سلّمت عليه بنوع من الغربة بعد غياب أربعة أشهر، قفز أخي بشار فتعلّق برقبته، في حين عانقه سحبان عناق رجل لرجل. ركبنا سيارة أجرة نقلتنا إلى ضاحية قرب بيروت اسمها "جلّ الديب"، حيث أمضينا ثلاثة أشهر فاتنات. عرفت البحر لأول مرّة في حياتي، وتنافست مع أخي بشار في حبّ صبية أرمنية كانت تسكن قربنا، لنكتشف، كلانا، أن سحبان هو من فاز بها، وتلذّذت بطعم البيبسي كولا اللاذع لأول مرّة. وعرفت لأول مرّة متعة الصعود على السلالم المتحرّكة في بناية ستاركو، التي ستهدّمها الحرب فيما بعد، وسحر المكيّف الذي يهبط عليك برداً وسلاماً بعد مسيرة قائظه. كانت الرحلة بالسيرفيس إلى بيروت تستغرق ربع ساعة، ولكنها كانت، بالنسبة لي، أنا القادم من حمص، سفرة جليلة. حين زرت جلّ الديب في التسعينات، ورأيت كيف صارت جزءًا من زحمة بيروت الخانقة، شعرت بأسى على البلدة الوادعة التي كانت تبعد أمتاراً قليلة عن شاطئ البحر، والتي كان فيها الشاطئ ملكاً للجميع. حين عدنا من بيروت أوائل أيلول/سبتمبر، تركت في بيروت شيئاً من قلبي، لا زلت أستعيده في كلّ مرّة أزور فيها تلك الفتنة المتنقّلة.

من جديد، استقبلتني بيروت إذن فاتحة ذراعيها، كما استقبلت والدي قبل ست عشرة سنة، بالكرم ذاته والدفء عينه. ومع ذلك فقد كانت مدينة مختلفة. كانت الحرب قد غيّرت إلى حدّ كبير معالم المدينة التي كانت ما تزال كالخيال في خاطري. كانت آثار الرصاص الذي اخترق جدران البنايات نابية كبثور حَبّ الشباب على وجوه الصبايا. وفقدت بعض البنايات طرفاً منها أو خسرت طابقها العلوي. وانتشر المسلحون في أحياء بيروت الغربية، من كلّ لون ومن كل حزْب. فتْح والجبهة الشعبية وشقيقتها الديمقراطية والقيادة العامة وابنتها جبهة التحرير الفلسطينية، الحزب التقدمي الاشتراكي، المرابطون، جماعة كمال شاتيلا، الحزب السوري القومي، وعشرات الدكاكين الأخرى. تحتلّ كلّ

جماعة شارعاً، وتسدّ منافذه بحواجز يقف عندها شبان دون العشرين، يطلبون منك بطاقتك الشخصية.

أمّن لنا الرفاق التروتسكيون بيتاً في حارة بير العبد القريبة من حارة حريك وأمّن لنا الرفاق في الجبهة الشعبية بطاقات هوية لبنانية. فأمّا البيت فكان شقّة من غرفتي نوم وصالة ومطبخ في الطابق الأول من بناية كانت وقتها حديثة، تشاركنا نحن الأربعة الذين تمّ إبعادنا عن دمشق لتحرير "الراية الحمراء" وتمثيل الرابطة خارجياً: أصلان عبد الكريم وكامل عبّاس وأحمد رزق وأنا. وأما البطاقة الشخصية فكانت كبيرة بلون برتقالي وكانت تطوى من منتصفها كدفتر صغير. كان اسمي في البطاقة سهيل البدري، من مواليد طرابلس. وكان اسم أمي زبيبة كأمّ عنترة العبسي، على الرغم من أنه لا جامع بيننا سوى اللون، ربما. لا الشِعر ولا الفروسية. في كلّ مرّة كان الشباب المسلّحون يطلبون هويتي، كنت أخرجها بتباهٍ ساذج، آملاً مع ذلك أن لا يكتشف المسلّح لهجتي السورية إن هو سألني أكثر من اسمي. ولكن أحداً لم يسأل. كانوا يأخذون البطاقة، ينظرون إليها من دون أن يقرؤوا شيئاً، ثمّ يعيدونها، ويلوّحون لك أن تابع مسيرك. مرّة واحدة أخطأ سائق السرفيس طريقه وعبر الخط الفاصل بين البيروتين: الغربية والشرقية من محور المتحف.

"اللعنة!" صاح السائق وقد اكتشف خطأه، ولكن بعد فوات الأوان.

أوقفنا المسلّح الذي يتكاسل أمام محرسه، تحت عِلم الكتائب: شجرة أرز مقسّمة ثلاثة أقسام كتب على قسمها العلوي "الله" ثمّ "الوطن" وفي القسم السفلي "العائلة"، وتعملقت بجانب العلم صورة لرئيس الكتائب بيير الجميّل غطت واجهة بناء بأكمله.

"لوين إذا الله راد؟"

تلعثم السائق وهو يقول:

"جايين من الصنايع عَ المزرعة. ما بعرف كيف غلبطت."

رمقه المسلّح بطرف عينيه، ثم نظر إلينا نحن الكائنات الضائعة الذين شاءت الأقدار أن نركب في سيارة سرفيس لا يعرف صاحبه حدود السلامة في مدينة الحرب.

"تذاكركن!"

أحسست بالدم ينسحب سريعاً من وجهي. بتردّد مددت يدي وأخرجت بطاقتي التي كنت أتباهى فيها في المنطقة الغربية.

أخذ بطاقتي وبطاقتي الاثنين الآخرين. تأمل فيها طويلاً، ثم قال لي:

"إنتا سهيل؟"

"إي نعم." حاولت أن ألفظها بلهجة طرابلسية ما أمكنني.

"ولا زبر!! إذا بدك تزور تذكرة تعا لعندي المرة الجاية."

ولا أملك أي تفسير آخر سوى أن دعوات أبي كانت تصحبني في ذلك المساء. ردّ المسلّح البطاقتين الأخريين لصاحبيهما. واحتفظ ببطاقتي لحظات مرت عليّ دهوراً. انتصب واقفاً، واستدار لحظة، ثمّ كأنه غيّر رأيه، فرجع إلينا، ورمى بطاقتي في وجهي، وقال للسائق:

"إذا ما بتعرف الطرقات ليش بتسوق سرفيس؟ خود أول شمال وسوق دغري."

تزاحمت عبارات الشكر على لسان السائق: "الله يخليكن سيدنا. يطول عمركن." وحرّك سيارته إلى أول منعطف على اليسار، ومضى ينهب الطريق نهباً. أما أنا فالتقطت بطاقتي من على حجري ووضعتها في جيبي، والتقطت معها قلبي الذي كان سقط بعيداً بين ساقيّ، بيد أنني لم أعرف

أين أعيده.

***

لا أذكر الآن من الذي عرّفني على يوسف عبد الحميد، ولكنه، كائناً من كان، أسدى لي معروفاً لا يضاهى. معرفة يوسف عبد الحميد كانت من الكنوز التي تهبك إياها الحياة بتقنين وحذر شديد. كان أبو بشار أحدَ المنفيين السوريين الذين احتفت بهم بيروت، صحفياً متمرّساً ومعلّماً حقيقياً في الحياة والسياسة والصحافة. كان قريباً لجماعة 23 شباط، ولكنّ صدره وبيته كانا مفتوحين لجميع السوريين المعارضين (وربما غير المعارضين). كان مدير تحرير جريدة يومية اسمها "القاعدة" تصدرها جبهة التحرير الفلسطينية (ولا علاقة لها البتّة بقاعدة أسامة بن لادن). كانت جبهة التحرير الفلسطينية قد انشقّت قبل عامين فقط عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بسبب المواقف المخزية لزعيم الجبهة أحمد جبريل الذي دعم التدخل السوري في لبنان وقاتل مع الجيش السوري ضدّ الفصائل الفلسطينية وفصائل الحركة الوطنية اللبنانية. قاد الانشقاق سياسياً طلعت يعقوب وعسكرياً محمد عبّاس (أبو العبّاس)، الذي سيرمي بنفسه أخيراً في أحضان صدّام حسين، فيُلقَى القبض عليه من قبل القوات الأميركية إثر سقوط بغداد عام 2003، ثمّ يموت في أحد السجون الأميركية في العراق. ككلّ الفصائل الفلسطينية في ذلك الحين، تبنّت الجبهةُ الماركسيةَ اللينينية، وكانت بحاجة إلى كوادر للعمل في جريدتها لإبراز هذا الخطّ اليساري. وكان أبو بشّار المكلّفَ بهذه المهمّة، وقد اختارني لأعمل بجانبه (كما سيضمّ لاحقاً الكثير من رفاق الرابطة الذين ستهجّرهم دمشق وتستقبلهم بيروت) في الجريدة.

بدأتُ محرّر أخبار، ثم خطر لي مرّة أن أكتب مادة رأي عنونتها "حكومة سليم الحصّ لصاحبها الياس سركيس"، أحبها أبو بشّار ونشرها

كافتتاحية. وصرت أكتب عموداً كلّ صباح. لقاء ذلك كان مرتّبي 600 ليرة لبنانية. كان مبلغاً ضخماً في تلك الأيام، مبلغاً يكفينا نحن الأربعة لنعيش بنصفه ونرسل نصفه الآخر إلى الرفاق في دمشق.

كان مقرّ الجريدة في الفاكهاني، الجمهورية المستقلّة التي كان يحكمها ياسر عرفات، ويترك قصداً هامشاً للمنظمات الفلسطينية الأخرى والحركة الوطنية اللبنانية للحركة والاستعراض. في استراحة الغداء في أحد الأيام، نزلت أشتري سندويشة شاورما. عند بائع السندويش عند تقاطع شارع أبو شاكر مع شارع عمر الزعنّي. كنت بانتظار السندويشة عندما بدأت حولي حركة مريبة، بدأ الرجال والنساء ينسحبون من الشارع بسرعة، وأغلقت المحلات أبوابها بسرعة، وتراكض خلفي حفنة من الشباب بأسلحتهم. وجدت نفسي بعد دقيقة وحدي في الشارع أتلفّت يمنة ويسرة ولا أعرف شيئاً مما يدور حولي. أخيراً، انقذف من داخل أحد الدكاكين شاب أسمر متين البنية، جذبني من ذراعي بقوّة وأدخلي الدكان عنونة. وما كدت أدخل وينزل الباب المعدني علينا، حتى فتحت جهنّم أبوابها في الخارج. لعلع الرصاص بجنون. حولي كان بضعة رجال ونساء، كانوا يتبادلون الحديث وكأن شيئاً لا يحدث في الخارج. الشاب الذي أنقذني جلس قربي على كرسي واطئ، وسأل بلهجة فلسطينية محبّبة:

"الأخ من وين؟"

"من سوريا،" أجبت.

"جاي جديد؟"

أومأت برأسي.

"معلش. بكرة بتتعود."

"بس شو عم بيصير؟" سألت بعد تردد.

"جماعة فتح والديمقراطية مختلفين ع شي شغلة. كل كم يوم بيعملوا هالقصّة."

بعد عشرين دقيقة مرّت عشرين دهراً. هدأ كلّ شيء. فتح صاحب الدكان باب دكانه، وفتحت معظم الدكاكين والمحلّات أبوابها. وخرج الناس يبتغون سبيلهم.

وفي شارع فرعي، كان أحد عناصر الديمقراطية يستعرض سلاحه ويصيح بصوت كالرعد:

"أبو النوف وبس! وين هالعرصات ما عم بيبينوا؟!"

***

ديانا التي أحسبها حلماً

تعلّمت في بيروت خلال الأشهر الخمسة شيئاً جديداً اسمه "السياسة". ففي بيروت فقط اكتشفت أننا لم نكن نشتغل في السياسة في سوريا، بل نطلق شعارات إيديولوجية وأخلاقية، ونسمّي أحلامنا سياسة، ثمّ ندفع ثمن ذلك سنوات من عمرنا في سجون غير أخلاقية وغير إنسانية. بدأنا أصلان عبد الكريم وأنا نزور ممثلي القوى السياسية الوطنية اللبنانية والفصائل الفلسطينية. التقينا مع ممثلي الحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي وتنظيم الأممية الرابعة (التروتسكيين) والحزب التقدمي الاشتراكي والمرابطون، والتقينا الجبهة الشعبية والفلسطينية والديمقراطية ويسار فتح. ولكن بيروت لم تكن عاصمة اللبنانيين والفلسطينيين فحسب، بل عاصمةً لليسار العربي عموماً، وفيها التقينا بمنظمتي إلى الأمام و23 مارس المغربيتين، وحزب العمال الشيوعي المصري وممثلين عن البوليساريو والحزب الشيوعي السوداني.

من بين الكثيرين الذين التقيت معهم، سيرسخ في ذاكرتي ثلاثة. الأول هو سعد الله مزرعاني، مسؤول العلاقات الخارجية في الحزب الشيوعي اللبناني. كان سعد الله شاباً شديد التأنّق في الملبس والحديث، ينتقي كلماته بعناية، ليوحي بالشيء من دون أن يبوح به. جاء من خلفية نضالية طلابية وشبابية، فرئس الاتحاد العام لطلبة الجامعة اللبنانية ثم شغل منصب الأمين العام لاتحاد الشباب الديمقراطي اللبناني، واحتلّ

في 1976 مقعداً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني، كواحد من أصغر أعضائه، وأشدّهم مناصرة لنائب الأمين العام آنئذ جورج حاوي. كان حاوي قد حقّق انتصاره الكبير على نيقولا الشايب، الزعيم التاريخي للحزب، الذي سيتوّج ذلك الانتصار بعد شهر أو اثنين في المؤتمر الرابع الذي سيقصي الشايب إلى منصب الرئاسة الفخري ويضع حاوي في منصب الأمين العام. يستطيع مزرعاني أن يقول لك الشيء من دون أن يقوله. هو كان ضدّ النظام السوري بدون شكّ، ولكنه كان يتحدّث دائماً عن العلاقات السورية-اللبنانية ودور سوريا في حماية الحركة الوطنية اللبنانية. وفي مكتبه، الذي كان فيه من أناقة صاحبه الكثير، كان مزرعاني، على الرغم من حداثة سنّه، يتحدث بهدوء وخبرة، وقد أذهلني في كلّ مرّة حجم المعلومات والتفاصيل التي يمتلكها عن السياسة اللبنانية والإقليمية والدولية. تفاصيل لم نكن نمتلك ما يشبهها في سوريا، بسبب حجب النظام للمعلومات وإيصاله فقط تلك التي يريدها أن تصل. كلّ ما نعرفه في سوريا كان بواسطة الشائعات، بينما يعرفون في لبنان كلّ شيء عن طريق الصحافة أو من فم أصحاب العلاقة مباشرة. ولطالما أشعرني ذلك ببعض الغيرة. بعد سنوات سيرتقي مزرعاني في قيادة الحزب ليغدو نائباً للأمين العام، وسيحاول جاهداً الوصول إلى الندوة البرلمانية من دون جدوى، ولكنْ، أفضلَ من ذلك، سيغدو كاتب عمود متميّز.

يختلف نصير الأسعد في كلّ شيء تقريباً عن سعد الله مزرعاني، فهو أقلّ رسمية وتكلّفاً، وأشدّ حماسة وأكثر وضوحاً. ولعلّ خلاف الرجلين يكشف خلاف تنظيميهما، فنصير كان قيادياً في منظمة العمل الشيوعي التي كانت أكثر ثورية ووضوحاً من الحزب الشيوعي. إلى حدّ كبير، ندين في رابطة العمل الشيوعي بالكثير إلى منظمّة العمل الشيوعي، أقلّها في الاسم. ولكن عدا الاسم، استعرنا من المنظّمة حسّها النقدي ووضوح الرؤية لديها وعدم خشيتها من مواجهة تابوات الماركسية اللينينية. ومع

ذلك ثمّة بين سعد الله ونصير تشابه، فنصير أيضاً جاء من خلفية طلابية وكان عضواً في المكتب التنفيذي للاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية. انخرط في الحرب الأهلية كسائر أبناء جيله، وعارض بقوّة دخول الجيش السوري إلى لبنان، أواخر عام 1976، وظلّ معارضاً لنظام الأسدين حتى اللحظة الأخيرة. حين تعرّفت إليه، كان نصير رجلاً وسيماً، مديداً، قوي البنية، يميل إلى البياض، بشعر فاتح وعينين كستنائيتين حليمتين. وكان يسحرني بمقدرته على التحليل السياسي، بعيداً عن الخطاب الإيديولوجي الذي كان كلّ شيء في حياتنا السياسية - تقريباً. تعلّمت من نصير أن الشجاعة لا تعني تعريض الصدر للرصاص وأن البرلمان ليس أمراً سيئاً وأن حرية الصحافة والتعبير مسألة لا يمكن التضحية بها على أي مذبح إيديولوجي. والحقّ أن نصير كان مخلصاً لديمقراطيته أكثر من إخلاصه لأيديولوجيته، لذلك سينتقل في التسعينات إلى خندق سياسي وأيديولوجي آخر. في 1982، سوف يشارك في مقاومة الغزو الإسرائيلي، ويرحل عن لبنان على متن الباخرة التي أقلّت قيادات منظمة التحرير الفلسطينية، ليعود بعد ثلاث سنوات، ليمتهن الإعلام والكتابة في أسبوعية "بيروت المساء". في عام 2000، سيعلن تأييده لحركة الاستقلال التي بدأت في قرنة شهوان، ثم، بعد الاغتيال المفجع للرئيس رفيق الحريري، سينضمّ إلى قوى 14 آذار، وفي 2011، سينضمّ إلى أسرة صحيفة الجمهورية. وسيظلّ يكتب دفاعاً عن الحرية والديمقراطية حتى يقع أرضاً في نوبة قلبية.

الشخص الثالث الذي ترك فيّ أثراً كبيراً تروتسكي عنيد ومثقّف رفيع، كان يمكن جداً، لو أنه عاش في عصر مايكل آنجلو، أن يجلس أمامه موديلاً للمسيح – لولا شارباه ربما. إنه كميل داغر، المفكر والكاتب والمترجم والمثقّف. في حين كنا نذهب، أصلان وأنا، عادة لنلتقي بالسياسيين اللبنانيين والفلسطينيين، كان كميل يأتي إلينا، غالباً بصحبة رفيق له عرفته باسمه الحركي صلاح، لأنه كان وقتها مطلوباً لجهة ما. سأعرف

لاحقاً أنه المفكر اللبناني التروتسكي الأبرز جيلبير أشقر. ولا أدري إن كانت الشقّة التي سكناها في بير العبد له شخصياً أم للتنظيم، إلا أن كميل تكفّل تقريباً بكلّ ما يخصّ الشقة، وكان يمرّ مرّة كلّ أسبوع ليطمئن على أننا لا نحتاج لشيء. في أحيان كثيرة كنا نسهر سوية، نحن الأربعة (أصلان وكامل عبّاس وأحمد رزق وأنا) مع كميل وصلاح، لنتحدّث عن الثورة الدائمة وإسحق دويتشر وفظائع ستالين، وأحياناً عمّا يجري في سوريا ولبنان. كان كميل شابّاً أنيقاً نحيلاً، بشاربين أسودين كبيرين لا يناسبان وجهه النحيل. وهو يبدو مثقفاً بورجوازياً أكثر منه مناضلاً ثورياً، شديد التهذيب، حين لا يهاجم الستالينيين. الحوار مع التروتسكيين كان يشبه حواراتنا في سوريا، مليئاً بالحماس والتوقّد، فيه كلمات كبيرة وذات وقع، وشعارات برّاقة، نحكي عن طبيعة الثورة وخلافات كامينيف وزينوفييف مع ستالين أكثر من سعر الخبز وخلافات خالد بكداش مع رياض الترك. أجد نفسي مع التروتسكيين أكثر، فمعظمهم مثقفون وقارئون نهمون، يهتمّون بشكلهم العام، ولا يرون في الثورة أخلاقاً شارعية، ينفعلون في حدود الأدب، ويحتدّون في حدود اللياقة. وكان كميل داغر تمثيلاً ممتازاً عنهم. أحببت من بين التروتسكيين أيضاً مي غصوب، التي شاركت في حرب السنتين، وفقدت إحدى عينيها حين اشتركت بمحاولة لإخراج الجرحى من مخيم تل الزعتر الفلسطيني الذي حاصرته قوات حافظ الأسد ودمّرته. ولكن بينما تحوّلت مي فيما بعد عن تروتسكيتها نحو الليبرالية، لا يزال كميل داغر يصارع "وحده ضدّ الجميع"، من أجل إثبات أن الثورة الوحيدة الصحيحة هي الثورة الدائمة.

ولكن حياتي في بيروت لم تكن كلّها سياسة. في بيروت أعدت علاقتي مع البحر والروشة ورصيف عين المريسة الرحب السهل الواسع، الذي كنت أشعر أنه يتسّع لكلّ السوريين. وفي بيروت تعرفّت على سيجارة الجيتان بدون فيلتر، وكنا نسمع أن مصانع جيتان مملوكة للحزب

الشيوعي الفرنسي، فأقبلت عليها. وبغض الطرف عمّن يملكها، فقد كانت تلك من ألذّ السجائر التي جرّبتها في حياتي. وأحببت في بيروت الكرم والكياسة، لأستعير مفردة لطالما أحبها صديقي الراحل حسّان عبّاس. ثمّة كرم في كلّ شيء: في صحن الحمّص وسندويشة الشاورما وكعكة الكنافة بالجبن، ولياقة في الخدمات نفتقدها في سوريا. وجدت في جيبي ذات مرّة بضع ليرات فائضة عن أجرة السيرفيس، فدخلت مطعم دبيبو على الروشة، وطلبت بطحة عرق، وجلست أتأمل زرقة البحر البيروتي الفاتنة. بعد دقائق، جاء النادل وفرش أمامي أكثر من دزينة من الأطباق الصغيرة على شكل زوارق، فيها كلّ أنواع المازة اللبنانية الشهيرة. أحسست بالحرج، وخشيت أن لا تكفي الليرات التي كانت في جيبي، فقلت بتردد:

"بس أنا ما طلبت كل هدول."

فهتف بي النادل بابتسامة عريضة:

"ولو يا بيك! هاي ضيافة."

ثم صبّ لي العرق في الكأس ومضى. ولم يهنأ لي عيش حتى جاءت الفاتورة: خمس ليرات لبنانية!

كنا في أيام الأحد وبعض أيام الأسبوع (ثلاث مرّات في الأسبوع) ننزل من بيتنا إلى شارع الحمراء، فنسير فيه متمهّلين، نتأمل الجمال الفاتن من حولنا: صبايا جميلات وأزياء جميلة وشباب ومحلات نظيفة وأنيقة. وكنت أتساءل كيف كان البيروتي يحافظ على جمال مدينته، على الرغم من الحرب والدمار والموت والخوف. ولم أكن أجد جواباً، إلى أن اجتاحت المدينة جحافل حزب الله، فبدّلت في معالمها وأخلاقها وكياستها. يا حبالتاي! وحين لا نذهب إلى الحمراء، ننزل إلى الروشة بملابس السباحة، فنسبح بضع ساعات. أمهرُنا في السباحة وأكثرنا

عشقاً للبحر كان كامل عبّاس، الذي كان يسبح كالسمكة، يليه، ربما، أصلان عبد الكريم. أما أحمد رزق وأنا، فكنا لا ننزل الماء إلا إذا رُمِي بنا فيه.

وسواء كنا في الحمرا أو الروشة، فإن هدفنا بعد ذلك سيكون الفاكهاني، حيث بيت غسّان العمري، رفيقنا الحموي السابق الذي احتوانا نحن الأربعة مع زوجته الجميلة هالة. كنا ننادي غسّان "الخال"، على الرغم من أنه كان في عمرنا تقريباً. كان غسّان وهالة يقدّمان لنا القهوة وسندويشات الزبدة ومربى المشمش، ونحن نتناول ما يقدّمان لنا، ثم نلتهم كلّ ما في الثلاجة من فاكهة، من دون أن نفكّر في أن غسّان وهالة يعملان كلّ الأسبوع ليؤمّنا ذلك.

على أنني كثيراً ما كنت أشْرُد في بيروت وحيداً. أحد الأماكن التي كنت أقصدها كان بيت مناضلة عنيدة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كانت آمنة امرأة نادرة، لديها من الحب والدفء ما توزّعه على أمّة بأكملها، متزوجة من عمر (على الأرجح هو اسم حركي)، وهو من ناشطي منظمة 23 مارس المغربية. وفي بيتهم، كنت ألتقي بشباب وصبايا فلسطينيين ومغاربة وظفاريين وسودانيين، عيونهم مشتعلة ببريق العزم والتصميم، وقلوبهم عامرة بحب عظيم، وجيبوهم، في الأغلب، خاوية. كانت آمنة تطعمنا خبزاً وجبنا وحمّصاً وتسقينا عرقاً مثلّجاً، وفي بيتها الصغير الحميم، كنا نتجادل في السياسة والكفاح المسلح وانتهازية أبو عمّار، ثمّ نغني بصوت كئيب:

يا فلسطينيه

والبندقاني رماكو

بالصهيونيه

تقتل حمامكو في حداكو

يا فلسطينيه وانا بدي اسافر حداكو

ناري في ايديه

وايديه تنزل معاكو

على راس الحيه

وتموت شريعه هولاكو

في نهاية السهرة، يذهب الجميع، فرادى أو جماعة، نحو بيوتهم ومخيماتهم، ويصرّ عمر وآمنة أن أبيت عندهما، فيعطيانني فراشاً صغيراً، وغطاء لا أحتاج إليه في الأغلب. وفي الصباح، يستيقظ عمر قبلي، ويعد القهوة، ثمّ يعطيني صفحة من لبن رائب بارد.

"كلْ،" يقول، "اللبن يخفّف الصداع بعد الإسراف في الشرب".

"ولكنني لم أشرب كثيراً،" أقول محتجّاً.

"كلْ!" يقول آمراً، ثم يغادر البيت، وأبقى وآمنة التي تعدّ لي الفطور وتجبرني على تناوله، قبل أن تتركني أذهب إلى الجريدة.

هؤلاء جميعاً يحتلّون مكانة عزيزة في ذاكرتي البيروتية، وقد أضاءوا جميعاً عتمة القلب في الزنزانة الانفرادية التي ستستضيفني بعد سنتين. ولكنّ ذكرى أخرى هي التي تسكن قلبي وعقلي ومخيّلتي، ذكرى تتوهّج دائماً في سماء القلب، وترفض نارها أن تخبو: سيّدة رقيقة نحيلة بعينين شفّافتين، حزينتين، وشفتين رقيقتين حائرتين، وصوت هامس دائماً، فيه جرس حزين ومسيطر وآسر. لا أذكر الآن كيف تعرّفت إلى ديانا محفوظ، ولكنني أذكر أنني بعد خمس دقائق من لقائي بها وقعت في

غرامها. أحسست أنني أعرفها منذ سنوات. كانت ساحرة، فاتنة، كريمة، ولها تأثير صاعق على المرء، يصعب عليّ وصفه أو شرحه. كنت أزورها في بيتها، وغالباً ما كان في بيتها شباب وصبايا لبنانيون، لعلّهم طلّاب أو متخرّجون حديثاً، يطيب لهم الحديث في الشعر، وعلاقة الأدب بالحرب، وبؤس السياسة. كانوا، جلّهم، لا يحبّون الالتزام في الفن، فتجدهم أقرب إلى كولن ويلسون وألبير كامو من سارتر وأنطونيو غرامشي. لم يكن خطابهم شعبياً في ذلك الوقت، ولكنه كان يلقى في نفسي هوى وأنا الذي عانى ما عانى من الرفاق في دمشق بسبب شراستي في الدفاع عن روايات عبد السلام العجيلي وشعر أدونيس ولوحات سعد يكن وأفلام إنغمار بيرغمان، ونقدي الشديد لكتاب "الأدب والإيديولوجيا" لبو علي ياسين ونبيل سليمان، الذي كان رائجاً في تلك الفترة. تمرّ بنا الساعات من دون أن نشعر بها، ثمّ تقف صبية وتقول: "تأخر الوقت. لا زم أمشي." وتمشي، ثمّ، يمشي بعدها الآخرون، وبينهم أنا، ورأسي ثقيلة بالفودكا ولوحات مودلياني وقصائد خليل حاوي، الذي سيغادرنا بعد ثلاث سنوات، إبّان الغزو الإسرائيلي للبنان واحتلال بيروت، مطلقاً الرصاص على رأسه.

في إحدى المرّات، كان في قنينة الفودكا ثمالة لم يأت عليها الأصحاب. وحين مشت الصبية التي تعلن عادة انتهاء السهرة، ومشى خلفها الآخرون، وأردت أن أمشي بدوري، قالت لي ديانا: "تعا نخلّصْ القنينة." نظرت إلى القنينة وإليها وإلى الرفاق الذين كانوا يغادرون، وقلت لنفسي: "لمّ لا". في غرفة جلوس ديانا طرّاحة ممدودة على الأرض بإهمال، أحضرنا إليها زجاجة الفودكا وكأسين صغيرتين، وافترشت ديانا الطرّاحة بجسمها اللدن المطواع، وجلست قربها، مسنداً ظهري إلى الجدار، مرسلاً ساقيّ أمامي، مستشعراً راحة غريبة وخَدَراً لذيذاً. حكيت لها عن دمشق ورابطة العمل وفاديا وكومونة المخيم والملاحقة والتخفي وجميل حتمل وفواز الساجر. وحكت لي عن بلدتها الصغيرة في

الجنوب، مرجعيون، وجارتها الشيعية النبطية، واحتفالات عاشوراء، وأخيها الشاعر الرائد عصام محفوظ.

سحبت ساقيّ المرسلتين وطويهما تحتي متربّعاً.

"عصام أخوك؟" قلت وكأنني لا أصدق.

"إي، ليش مستغرب؟"

"زنزلخت، أعشاب ميتة، بيان مسرحي رقم واحد."

"وأعشاب صيفية وسرحان بشارة سرحان..."

ضحكتُ بسعادة غامرة لهذه الاكتشاف الجميل. كان عصام أحد الأدباء الأكثر قرباً لقلبي. كان هو وأنسي الحاج أصغر مؤسِّسي مجلة شعر، كتب أجمل قصائده قبل حرب حزيران، وحين وقعت الهزيمة، كتب قصيدته الشهيرة "وداع الأيام الستة"، وبها ودّع عالم الشعر وقرّر هجرته إلى المسرح، وأصدر بيانه الانقلابي الشهير "بيان مسرحي رقم واحد"، الذي أعلن ولادة اتجاه جديد، مشاركاً فيه سعد الله ونّوس في "بيانات من أجل مسرح عربي". كان عصام وقتها في باريس، يعاني من أزمة نفسية مؤلمة، لن يتمكن من اجتيازها مطلقاً. سيعود منتصف الثمانينات ليدرس في الجامعة ويكتب في النقد والمسرح، قبل أن تختطفه نوبة قلبية عام 2006.

نظرت إلى ساعة يدي. كانت الساعة تجاوزت الثالثة فجراً. قفزت كالملدوغ، وهتفت: "لازم أمشي."

"فيك تنام هون إذا بدّك. ما ضلّ سرافيس هلق والتكاسي غالية."

بقيت. أكملنا حديثاً هاجساً عني وعنها، وكان صوتها الآسر يأخذني

ويغوص بي في لجّة من المتعة واللذة والطمأنينة والهدوء. كان صوتها يتغلغل في كلّ الجسم، لا تسمعه بأذنيك، ولكن تشعر به يدخل من مسامّ الجلد إلى القلب مباشرة. وكانت يداها باردتين، تعطيانك راحة وأنت تحتضنهما في راحتيك. حين قالت لي: "يلله نام!"، كانت يدها مشبوكة بيدي، ونحن نتحدث بدفء وليونة. رفعتُ يدها المشبوكةَ بيدي، ولثمت رؤوس أناملها. سحبت يدها ببطء، ولامست بها خدي برهنة، وانساب من تلك اليد الرخوة الدمثة شرارة أشعلت فيّ الدم، ولكنها نهضت مسرعة، وهمست بعجلة: "تصبح على خير."

لا أدري إن كانت ديانا جميلة، ولكنّ فيها سحراً طاغياً يصعب مقاومته. حين خرجت من السجن، حاولت أن أسأل عنها بلا جدوى، لم يبدُ أن أحداً يعرف هذا الاسم. سألت أصدقائي اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين عنها، فلم يُثِرْ الاسمُ أيَّ ذكرى لديهم. وحين جاءت الموجة الزرقاء (فيسبوك وتويتر) بحثت عنها مطوّلاً. لا جدوى! يشبه اختفاؤها حدثاً في قصة بوليسية غامضة، ولكن على عكس القصص البوليسية الغامضة، لم أستطع حلّ هذا اللغز. أكانت وهماً؟ أكانت شخصاً اخترعته في زنزانتي ليؤنس وحدتي ويعوّضني عن خسائري في بشر حقيقيين آخرين؟ ربّما. ولكن، إذا صحّ ذلك، فسيكون أجمل ما اخترعت في حياتي.

***

عدت لأسقط حافظ الأسد

كان البريد يصلنا بشكل أسبوعي عن طريق مراسل يأتي من دمشق، فألتقي به سريعاً في مقهى في شارع أبو شاكر، نشرب قهوة إسبريسّو ونأكل كنافة بالجبن، وأستلمُ منه الرسالة، وطرداً صغيراً فيه أعداد الراية الحمراء وبعض الرسائل الشخصية التي كانت تصل إلينا من محبينا، ثمّ أسلمه رسالة جوابية، يأخذها ويعود أدراجه إلى دمشق.

رسائلنا الخاصة كانت تأتي في الطرد من أهلنا، وكنت أكثر من تصله رسائل بيننا. كانت فاديا ترسل لي أسبوعياً أحياناً. في إحدى المرّات، لاحظت أن طرف الرسالة ممزق ومعاد لصقه. وأدركت أن أحداً ما في دمشق كان يراقب مراسلاتنا. بعض الرسائل كانت حميمية لدرجة أن قشعريرة باردة تسري في عروقي وأنا أتخيل معالم وجه الرقيب المتلصّص وهو يقرأ بعض سطورها.

"هذا الأسلوب غير مقبول،" قلت في اجتماع ضمّني والثلاثة الآخرين في الشقّة ببيروت، أصلان وكامل وأحمد. "هذا أسلوب أمني بامتياز."

وافقني كامل في الاحتجاج، رغم أنه نادراً ما كانت تأتيه رسائل، ولكنه كان دائماً يؤيد الحقّ في الخصوصية والحرية الفردية. أحمد لم يدلِ برأي، فلم تصله أي رسالة، بينما قال أصلان بصوته الهادئ الذي يمزج بين الجدّ والسخرية:

"مَعْليش يا رفيق. هذه أوقات استثنائية. لا نريد إن وقعت الرسالة بيد الأمن أن يكون فيها ما يؤذينا."

صمتُّ على مضض، وانتحيت ركناً في الغرفة أقرأ الرسالة بنهم.

كان يوم الأحد 17 حزيران 1979 يوماً خاصّاً. جاء الرفيق المراسل كعادته، وجلسنا في مكاننا المفضّل وشربنا قهوة وأكلنا الكنافة بالجبن. أعطاني الرسائل، ومضى. عدت إلى البيت ومعي الرسائل. فتحنا رسالة لجنة العمل، وبعد أخبار التنظيم والخلايا والرؤية السياسية، لفت انتباهنا فقرة بدت لنا غريبة جداً! الفقرة يمكن استعادتها كما يلي: "وردت أنباء يوم أمس عن وقوع مجزرة في مدرسة المدفعية في حلب، ذهب ضحيتها عشرات من طلاب الضباط. ولا يوجد تفاصيل عن الحادثة بعد."

الساعة السابعة والنصف من مساء السبت 16 حزيران 1979. كان طلاب مدرسة المدفعية في مدينة حلب قد أنهوا يوماً شاقّاً من التدريب في اليوم القائظ، وهجعوا في مهاجعهم بحثاً عن بعض التسلية أو التسرية أو النوم المبكّر، ولكن أمراً جاءهم من الضابط المناوب النقيب إبراهيم اليوسف يطلبهم للانتقال فوراً إلى قاعة الندوة في المدرسة، لحضور اجتماع مع المدير. امتلأت القاعة بنحو 300 طالب. ولكن بدلاً من دخول المدير عليهم، دخل عليهم النقيب إبراهيم نفسه ومعه مجموعة مسلّحة، وقام اليوسف بفرز الطلاب الموجودين على أساس انتمائهم الطائفي، ففرز الطلاب العلويين في زاوية القاعة، ثم بدأ الرصاص ينهال عليهم من قبل اليوسف وجماعته.

سنعرف لاحقاً أن من قام بهذه المجزرة المقيتة هم جماعة الطليعة المقاتلة المنشقّة عن الإخوان المسلمين، التي كان أسسها المقاتل الإسلامي المتشدّد مروان حديد. قبل خمس عشرة سنة كان مروان قد

قاد استعصاءً في مدينتي حماة وحمص، قضت عليه حكومة البعث الوليدة آنذاك بعنف غير مبرّر. وكان خلاف قد برز داخل جماعة الإخوان في حماة بين نهج الإخوان المسلمين بطابعه الصوفي التقليدي المتداخل بالحركية الدَّعوية وبين مروان حديد الذي كان ينادي بالعمل المسلّح لإسقاط حكومة البعث. في النهاية، انفصل حديد عن التنظيم، وأسّس جماعة ذات توجّه جهادي صارخ، ستطلق على نفسها لاحقاً اسم "الطليعة المقاتلة". اعتقل حديد في دمشق في عام 1975 ومات في سجنه في العام الذي تلاه.

إلى جانب إبراهيم اليوسف، قاد عملية مجزرة المدفعية قائد التنظيم وقتها حسني عابو ومساعده عدنان عقلة الذي سيثبت أنه واحد من أسوأ رجالات العصابات المسلحة الذين لا يتمتّعون بأي وازع خُلقي يمنعهم من ارتكاب أي جريمة على الإطلاق.

ولد إبراهيم اليوسف عام 1950 في قرية تادف بريف حلب، ونشأ في أسرة فقيرة، لأب كان يعمل في بقالية وأمّ لا تحسن القراءة والكتابة. ويبدو أن هزيمة 1967 التي نقلت كثيراً إلى الفكر اليساري عموماً قادت إبراهيم لتبني فكر إسلامي جهادي، فأغرم بسيد قطب. وحين لم يستطع الالتحاق بالجامعة، التحق بالكلية الحربية، وبعد تخرجه شارك في حرب تشرين/أكتوبر 1973 وانتسب ككل الضباط إلى حزب البعث، ولكنه كان دائماً يحلم بشيء آخر. في حلب، التقى بزميل قديم له في المدرسة، سيصبح بعد قليل زعيم جماعة الطليعة المقاتلة. عرض عدنان عقلة على إبراهيم الانضمام لمجموعة مروان حديد، ووافق إبراهيم مطلع 1977. وفي حزيران 1979، كانت العملية قد نضجت في خيالهم، ونفذها بكلّ وحشية، من دون أن يدرك أنه سوف يغيّر وجه سوريا إلى الأبد.

حين قرأنا رسالة لجنة العمل ران علينا صمت ثقيل. لقد سبق مجزرة

المدفعية بعض الأعمال الإرهابية التي قامت بها جماعات متطرفة، قد تكون أخطرها اغتيال محمد الفاضل رئيس جامعة دمشق في شباط / فبراير 1977، ونقيب أطباء الأسنان السوريين الدكتور إبراهيم نعامة في آذار / مارس 1978 وطبيب الأعصاب شحادة خليل قبيل مجزرة المدفعية بأيام. أما أن يتمّ إعدام هذا العدد الكبير من السوريين فقط لأنهم علويون فكان فوق تصوّراتنا ومخاوفنا.

"ماذا سنفعل الآن؟ سألتُ بقلق وخوف وترقّب.

"سننتظر الرسالة القادمة من دمشق،" قال أصلان. وغرق كلّ منا في هواجسه.

ذهبت إلى الجريدة ككلّ يوم لأكتب افتتاحيتي في السياسة اللبنانية والفلسطينية، ولكن عقلي وقلبي وكياني كانت جميعها تراقب ما يحدث في سوريا. وسائل إعلام الحكومة تأخّرت ستّة أيام قبل إعلان الخبر رسمياً. في 22 حزيران/يونيو، قالت وكالة الأنباء الحكومية سانا إن عدد القتلى تراوح بين 50 و83. ولئن كان هذا العدد أقلّ من العدد الذي تناهى لأسماعنا من قبل، إلا أنه لا يزال رقماً مخيفاً بالمقاييس السورية. آنذاك! في نفس اليوم، أعلن وزير الداخلية عدنان دباغ أن جماعة الإخوان المسلمين كانت وراء تنفيذ العملية وأن هدفها كان التسويق لاتفاقية كامب ديفيد، وهي رواية سوف نتبناها في رابطة العمل لاحقاً، ربما غير مجانبين للصواب.

واهتمّت وسائل الإعلام بالخبر، كما تهتمّ بأي خبر تستطيع العثور عليه وراء السور الحديدي الذي فرضه حافظ الأسد على البلاد حتى قبيل استلامه مقاليد الأمور في 1970. فنشرت النيويورك تايمز في 23 حزيران/يونيو تقريراً موجزاً من مراسلتها في بيروت مارفين هاو Marvine Howe، لم يتعدَّ تكرار ما نشرته وكالة سانا.

بيد أن الإخوان المسلمين أنكروا أي صلة لهم بالمجزرة أو معرفة باحتمال وقوعها، وردّوا على إعلان الدباغ بعد يومين في بيان وُزِّع في 24 حزيران/يونيو. "فوجئت جماعة الإخوان المسلمين، تمامًا كما فوجئ آخرون بالحملة التي شنّها ضدهم عدنان دباغ، وزير الداخلية السوري، متهماً إياهم بالخيانة... متهماً إياهم بالأشياء التي يدرك جيداً أنه ليس لديهم أي علاقة بها. وألقى باللوم عليهم في المذبحة التي ارتكبت في مدرسة المدفعية وكذلك الاغتيالات التي وقعت وما زالت تحدث في سوريا. "

تحوّلت مجموعتنا في بيروت إلى خلية نقاش دائمة، وصارت مراسلاتنا مع دمشق أكثر تواتراً، وبدأنا نطوّر وجهة نظر خاصّة حول حقيقة ما جرى في الآونة الأخيرة. ورحنا نسوّق لوجهة النظر هذه مع القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية في بيروت. وكتبت في الجريدة افتتاحية بعنوان "هل القادم أعظم؟" ناقشت فيها إمكانية تدهور الأوضاع في سوريا أكثر من ذلك.

في إحدى المراسلات مع لجنة العمل بدمشق، وصلتنا نسخة من رسالة داخلية وزعتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري – المكتب السياسي بقيادة الزعيم المخضرم رياض الترك. ولأن الرسالة كانت داخلية، فقد كانت مصوغة من دون تلاعب سياسي. راعني مضمون الرسالة التي وصفت ما يجري بأنه "أزمة" وقالت إن التحركات والانفجارات الشعبية ظهرت بأشكال ومستويات مختلفة، وأن دوائرها تتسع باستمرار في أوساط "الجماهير الشعبية"، واستبعدتْ أن يكون الإخوان وراء من نفّذ مجزرة المدفعية بحلب، وعزتها إلى سلوك شخصي من مرتكبها. وقالت الرسالة إن "الحادثة التي ارتكبها ضابط بعثي مدانة قومياً وإنسانياً وأخلاقياً"، ثمّ ربطت بين الجريمة وبين "أزمة عامة وشاملة" تعيشها سورية نتيجة غياب الديموقراطية.

وقفتُ طويلاً أمام عبارة "حادثة" المحايدة، ولفتني عدم تسمية جماعة الإخوان أو الطليعة المقاتلة باعتبارهم المسؤولين عن الجريمة. كانت تلك صدمة بالنسبة لنا، وأحزننا وأغضبنا أن المكتب السياسي، الذي كان لا يزال يرفض الحوار معنا، يبرّئ الإخوان المسلمين من دماء ضحايا المدفعية، بل ولا يكاد يدين المجزرة أساساً، بل يعزو العملية إلى "قمع النظام واستبداده."

ومع ذلك، لم يكن تحرّك الإخوان المسلمين وطليعتهم المقاتلة حوادث عارضة، فهي جاءت على خلفية استياء كبير من مختلف فئات المجتمع السوري. لقد كان نظام حافظ الأسد يغرق في لجّة من الفساد والمحسوبية والانقسام المجتمعي. وكان شقيقه سيّئ السمعة رفعت الأسد يصول ويجول في طول البلاد وعرضها، مستعرضاً سراياه الخاصّة ومستبيحاً الأماكن والأشخاص ومحتلاً جبلاً بأكمله قرب دمشق "المزّة"، بنى عليه جنوده بيوتاً مخالفة تشبه الجحور، بينما كان يجثم هو ونساؤه اللواتي تزوّج بعضهن عنوة، في بيوت فخمة في قلب دمشق.

كانت المدينة السورية تستشعر غزواً غير متكافئ من الريف، وكان السنّة في البلد يستشعرون هيمنة غير مكافئة من العلويين، وكان المثقفون والمهنيون والكتاب والصحفيون يستشعرون تضييق الخناق عليهم وعلى آرائهم وكتابتهم وإبداعاتهم، ولم تكن البلاد قد بدأت بعد تعاني من الضائقة المادية التي سوف تخنقها بعد سنوات قليلة، بل وجد في البلاد بعض البحبوحة التي أتت دعماً لحافظ الأسد من دول الخليج، والتي جعلت الناس يفكرون فيما وراء لقمة الخبز.

في هذا الإطار بدأ تحرّك مثير للانتباه، هو تحرّك المدينة/الطائفة/المهنة في مواجهة الريف/الطائفة/العسكر. وقد يكون من أكثر ما كُتب تعبيراً عن ذلك التحرّك المقالة الفاتنة التي كتبها ميشيل سورا بعنوان سوريا الدولة المتوحّشة، والتي ستشكّل أيضاً الفصل الأول من كتابه الذي

حمل العنوان ذاته. يقول سورا: " لقد كانت تقود هذه الحركةَ، في مكوِّنها العصري، نقابات ذوي المهن الحرة كالمهندسين والأطباء والصيادلة، وخصوصاً المحامين، وذلك حتى حل هذه النقابات في نيسان/أبريل 1980، والتصفية الجسدية لبعض الشخصيات ذات التأثير ضمن القطاعات المهنية المعنية. وعلى هذا المستوى أمكن تَلَخُّص المنطلق المطلبي في رفع حالة الطوارئ، النافذة منذ صبيحة "ثورة" الثامن من آذار/مارس 1963، وفي إعادة الحريات الديمقراطية الأساسية. ثم إن تجار السوق، المرتبطين بالإخوان المسلمين، كانوا يمثِّلون النظام الحضري التقليدي ومجتمعاً أهلياً يصبون إلى أن يكونوا آخر معاقل مقاومته لـ "الدولة الحديثة". أما الدولة المعنية -أو نقيضة الدولة كما رأينا- فقد غدت تجسّدها خلافاً للحداثة أقليةٌ دخيلة على النظام الحضري، هي نخبة قائدة جديدة وصلت إلى السلطة مع "الثورة" عن طريق الجيش والحزب، ذات أصول ريفية شديدة التميز: علويون ودروز وإسماعيليون، وكذلك سُنّة من منطقتي حوران والفرات."

أما أول تحرك فعلي لامس قضايا حقوق الإنسان والحريات الأساسية في سورية، فكان على الأرجح تحرّك نقابة المحامين التي قامت به في نهاية السبعينات. ففي حزيران/يونيو 1978، عقد مجلس نقابة المحامين في دمشق جلسة رسمية درست فيه حالة الطوارئ والأحكام العرفية في البلاد، وأصدر بياناً طالب برفع حالة الطوارئ وتعديل قانون الطوارئ بحيث يقيد إعلان تلك الحالة بأضيق الحدود والقيود، وإلغاء المحاكم الاستثنائية تحت أي تسمية كانت، الطلب إلى الأساتذة المحامين عدم المثول والمرافعة أمامها، وتحريم جميع صور الكبت والقهر والقمع والتعذيب الجسدي والنفسي المنافية للكرامة الإنسانية والوطنية،

وتطبيق مبدأ سيادة القانون واستقلال القضاء.

وكان تحرّك المحامين بداية لتحرك نقابيين مهنيين آخرين، بينهم اتحاد الكتّاب ونقابة المهندسين وأساتذة الجامعات. وكان من الممكن لهذه الحركة أن تسفر عن نتائج مختلفة لولا انخراط الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين في أعمال الإرهاب التي سمحت للنظام أن يخلط بين الأمرين، ويصوّر تحرك النقابات والإخوان المسلمين باعتبارهما حراكاً واحداً. ولكن النظام لم يكن وحده من حمل وجهة النظر هذه.

في أيلول 1979، جاء أعضاء لجنة العمل، أو للدقّة من بقي منهم في دمشق، إلى بيروت. كنا في الصيف خسرنا علي الكردي الذي اعتقل قبل أسابيع. أما العميد فكان معتكفاً لسبب من الأسباب، وقد جمّد عضويته في لجنة العمل. وعقدنا اجتماعاً آخر عاصفاً، ناقشنا فيه مسألتين: مجزرة المدفعية والمآلات السياسية في سوريا، و... نعم: العودة إلى سوريا. لم يكن جماعة دمشق متحمسين لعودتنا إلى البلاد، ولكننا في بيروت، أصلان وأنا، بدرجة أكبر، كنا مصرّين على ذلك. في غمرة النقاش الحاد وارتفاع الصوت، سأل منيف ملحم:

"رفاق ليش بدكم ترجعوا هلق؟"

أصلان أعطى، كعادته، جواباً هادئاً، منطقياً. نعود لنتابع الأمور على الأرض فلا تسبقنا الأحداث. أما أنا فضربت بقبضتي على طاولة كانت أمامي، وهتفت:

"أنا عائد لأسقط حافظ الأسد!"

***

حاولت أن ألفت انتباه ابن العمّ ولكنه لم يأبه لشيء خارج زنزانته

ستنتهي أيامي في بيروت قريباً. خلال التصويت وبعد نقاش عاصف، فاز مشروع العودة إلى دمشق بأغلبية ضئيلة. وبدأت أستعدّ نفسياً للعودة، بحزم أفكاري وانفعالاتي. في الاجتماع نفسه، قدّمتُ للهيئة المركزية اقتراحاً بدا غريباً أول الأمر. كانت المركزية قد تضاءلت من أحد عشر رفيقاً إلى سبعة، ولن يكون العدد كافياً لمساءلة لجنة العمل، كما سيكون من غير العملي أن يجتمع سبعة رفاق يومياً أو بضع مرات في الأسبوع في الظروف الأمنية. اقتراحي كان تقليص عدد الهيئة المركزية إلى خمسة ودمج مهامها بمهام لجنة العمل. بدا الاقتراح مقنعاً وعملياً لدرجة أن أحداً لم يعارضه. وكان علينا أن نختار من سيبقى ومن سيخرج. أجرينا تصويتاً سرياً، وفاز أصلان وفاتح ومنيف ونهاد بسبعة أصوات لكلّ واحد. وفزت أنا بستّة أصوات فقط. توقّعت أن يكون كامل صوّت لنفسه، أو ربما أحمد، وتفهّمت ذلك، ولكن أصلان الذي كان دوماً يحبّ أن يكون مباشراً إلى حدّ الفجاجة في صراحته قال لي:

"أنا لم أصوّت لك. صوّت لأحمد."

"لست مضطراً لتقول لي ذلك، كما تعلم."

"صحيح، ولكنني أريد أن أقول لك ذلك." وصمتَ لحظة كأنه ينتظر مني أن أسأله لماذا، وحين لم أفعل تطوّع بالإجابة:

"لم أصوّت لك، لأن أسلوبك في الكتابة أسلوب صحفي أكثر منه حزبياً."

ثمّة أشياء صغيرة تعيش معك إلى الأبد: كلمة أحياناً أو لفتة أو تربيتة على الكتف. كانت تلك واحدة من هذه الأشياء التي لا تريد أن تفارقني بعد أربعة عقود كاملات. ودّعت طاقم الجريدة وأبو بشار وهالة الجميلة وديانا الآسرة. وودّعت مقاهي الهورس شو، مقهى محمود درويش المفضّل، و"مودكا" ودولشي فيتا، حيث كنت ألتقي أحمد جمّول، الذي كان قد ترك سوريا واستقرّ في بيروت، وفيه التقيت أوّل مرّة حازم صاغية الذي كان نجمه بدأ يسطع بقوّة في عالم الكتابة والصحافة. وودّعت بيروت.

استقبلتني دمشق كما يليق بها، جميلة، متحفّظة، وخائفة. كان هواء الخريف يتسلّل بخبث من نافذة السيّارة وهي تدخل المدينة من بوّابة الربوة ذاك المساء التشريني الفاتن. لم يكن طريق بيروت الجديد عبر الديماس قد افتتح بعد، فكان على السيارة أن تمرّ بالهامة وقدسيا، ثمّ دمّر البلد، حيث كان بيتي الأخير على ضفّة النهر. مرّ البيت بخاطري، ومرّ أيضاً علي الكردي الذي تقاسمت معه غرفة هناك، وهو الآن في زنزانة رطبة فاسدة الهواء، فرانت عليّ كآبة شفيفة. كانت أمي تقول لي: "اتّقِ البرد في أوله، وافتح له صدرك في أخرياته." وكنت أسمع نصيحتها دوماً، فألف حول عنقي شالاً خفيفاً.

لم أُسقط حافظ الأسد، كما توّعدتُ في بيروت. سيسقطني هو بعد سنتين حافلتين بأحداث متسارعة كانت تجعلنا في كلّ يوم نحبس أنفاسنا. ستزيد الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، بعد مجزرة مدرسة المدفعية بحلب، من عملياتها المسلحة ضدّ النظام، ولكن مدى تلك

العمليات سيتجاوز مساحة النظام والمخابرات والجيش إلى فضاء الشارع في عدّة عمليات، سيكون أسوأها على الإطلاق مجزرة الأزبكية في مدينة دمشق. ولئن كانت مجزرة حلب كبيرة بحدّ ذاتها، فإن وقوعها في مدرسة عسكرية بعيدة عن السكان المدنيين جعل أثرها محدوداً بالنسبة للناس. بالمقابل، جاء تفجير سيارة مفخخة في قلب دمشق، في حيّ الأزبكية، ليهزّ أرجاء المدينة مادياً ومعنوياً. قضت العملية على أربعة وستين سورياً، ولكنها قضت أيضاً على آخر أواصر المودّة الخفية التي كانت نشأت بين الإخوان المسلمين والسوريين في السنوات السابقة.

كانت الأشهر الأولى لعودتي إلى دمشق حاسمة في إعادة تشكيل وعيي السياسي. في تلك الفترة، زاد الإخوان المسلمون وطليعتهم المقاتلة من تطرّفهم الراديكالي المعروف كلّما سنحت لهم الفرصة. ولوهلة بدا أن الإسلاميين يمسكون زمام المبادرة ويدفعون بالنظام إلى مواقع الدفاع. وحاول النظام، من جانبه، مغازلة الإسلاميين. وقام نائب المراقب العام السابق لجماعة الإخوان المسلمين أمين يكن بوساطة بين الجماعة والأسد، وبدا الأسد ضعيفاً في تلك اللحظة، واستجاب لطلب يكن بإطلاق سراح خمسمائة معتقل إسلامي، وحاول إجراء تعديلات رئيسية في طريقة حكمه، فجاء بمهندس محترم هو عبد الرؤوف الكسم لتشكيل حكومة تكنوقراط، وألقى بسلسلة لا متناهية من الخطابات، أكّد فيها أنه مسلم يؤدّي فروض الدين، بل إنه التقى ببعض قيادات الإخوان -إذا صدّقنا نائب الرئيس فاروق الشرع في مذكّراته- ولكن "مطالبهم تجاوزت دور المشاركة في الحكم إلى تغيير كامل فيه".

إلى جانب صراع الأسد والإخوان المسلمين، نشأ تطور اجتماعي سياسي في سوريا، لم نلقِ له بالاً كما كان ينبغي. بدأ الحراك بتشكيل لجنة للحريات في نقابة المحامين، وانتقل بعدها إلى اتحاد الكتاب العرب ونقابات الأطباء والمهندسين والصيادلة. وبلغ ذروته في آذار 1980،

حين نفذت نقابة المحامين السوريين إضراباً عاماً في كافة المدن السورية احتجاجاً على السياسية القمعية والاعتقالات العشوائية التي انتهجها النظام حينها. تضامنت نقابتا الأطباء والمهندسين مع نقابة المحامين. وأصدرت النقابات المهنية سلسلة من المواقف والبيانات والندوات الداخلية، طالبت فيها بإلغاء قانون الطوارئ وعودة الحياة الديموقراطية للبلاد ووقف الممارسات القمعية لأجهزة النظام، وخاصة سرايا الدفاع التي كان يقودها شقيق حافظ الأسد الفاشي رفعت والتي أصبحت رمزاً للتسلط والإذلال. وكذلك فعل اتحاد الكتاب العرب الذي عقد مع قيادة الجبهة الوطنية التقدمية اجتماعاً عاصفاً تحدّث فيه الكتّاب بجرأة غير مسبوقة منذ تسلّط البعث على مقادير الأمور في سوريا. وبرز من بين المتحدثين من الكتّاب وقتها الشاعر والمسرحي الراحل ممدوح عدوان الذي ألقى كلمة نارية تناقلها السوريون مسجّلة على شريط كاسيت، سرّاً كما كانوا يتناقلون الجرائد السرية المعارضة.

سكِرت، ومعي كثيرون، وأنا أستمع لكلمات صديقي وشريك الغداءات اللطيفة في مطعم مجدولين، مع علي الجندي، وهو يؤنّب أعضاء وفد قيادة الجبهة الذي ترأّسه وقتها نائب رئيس الجبهة محمود الأيوبي. "أنا أشتغل في إعلام أخجل منه،" قال ممدوح بصوت متهدّج، متوجّس، ولكن مثابر، " لأنه يكذب بهذا المقدار. يكذب بدرجة الحرارة. يكذب بإخفاء الكوليرا، هل هناك أحد يخفي الكوليرا؟ يكذب بالتستّر على اللصوص، وعلى التجار والمرتشين وشركائهم، ويشكك بي وبكم حين كنتم تقولون إن الفساد قائم." ثمّ سأل، "لماذا يكذب النظـام؟ ولماذا يكـذب الحزب؟ ولماذا تكذب فئة ما؟ الكذب ينطلق من الخوف، الخوف من الآخرين. والسلطات التي تكذب، هي سلطات تخاف الشعب، وتخاف أن يراها على حقيقتها (...) كلنا في هـذا الاجتماع تجنبنا الحديث عن مسائل معينة. لا أحد تحدّث عن سرايا الدفاع. لا أحد تحدث عن المخابرات. لا أحد تحدث، إنْ لم نقلْ عن الوجه الطائفي

للسلطة، فعلى الأقل عن الممارسة الطائفية لبعض العناصر في السلطة (...) في الماضي كان أحدهم يهتف في الشارع: حرامي! فيركض ألف مواطن لإلقاء القبض عليه. الآن يُقتل الإنسان بوضح النهار، بطلقات مسدس، ويسير القاتل، ولا أحد يدلّ عليه'." وفتنني وهو يلج منطقة المحرّمات: سرايا الدفاع، التي كان مجرّد ذكر اسمها يثير الرعب في قلوبنا جميعاً. "أنا عندي سؤال أريد الجواب عليه الآن: اشرحوا لي ما هي سرايا الدفاع هذه؟ لماذا امتيازاتها؟ لماذا امتـيازات جندي في سرايا الدفاع أكثر من ضابط في القوات العاملة؟ ولماذا لا نجـرؤ على الحديث عنها؟ لماذا يتحدث الناس عنها وشوشة وهمساً فقط، وأنتم تعرفون هذا، بل إنكم أنتم أنفسكم تتحدثون عنها وشوشة وهمساً؟"

رأيت ممدوح بعد أيام قليلة من كلمته المرعبة. سألته إن لم يشعر بالخوف وهو يلقي كلمته. أجابني وهو يطلق ضحكته المجلجة التي كنت أخشى أن تصدّع جدران المكان من حولنا فتتهاوى فوق رؤوسنا:

"ارتعبت. ما بس خفت." ثمّ جرع من كأسه الأغبش الكبير جرعة كبيرة، والتفت إليّ يقول:

"بتعرف؟ هدول جبناء. هلق ما فيّن يعملوا شي معي، بس بعدين ما حدا بيعرف شو بيصير."

ترافق تحرّك النقابات المهنية مع تحرّك مديني في معظم المدن السورية، حيث أضربت الأسواق التجارية، وعمّت شوارع المدن، باستثناء دمشق، التي يتهمها محمد جمال باروت بأنها هي من كسر الإضراب. ولم يكن موقف جماعة الإخوان المسلمين من ذلك الحراك الشعبي واضحاً في تلك المرحلة. فعلى جري عادتهم، يحاول الإخوان دائماً أن يكون لهم قصب السبق، ولم يكن يسعدهم أن يتسيّد المشهدَ الشعبي النقاباتُ المهنية والتجار.

خلال شتاء 1980، سيزداد نظام حافظ الأسد بؤساً، وسيظهر الأسد نفسه مراراً على شاشة التلفزة وفي اللقاءات الجماهيرية التي كان حزبه ومخابراته يرتّبونها لدرجة بدأ يثير سخرية السوريين. وكان أكثر ما سخروا منه خطابه في يوم 8 آذار احتفالاً بالذكرى السابعة عشرة لانقلاب حزب البعث، حين قال بصوت بدا لنا مكسوراً: " إنني أؤمن بالله وبرسالة الإسلام. لقد كنت ولا أزال وسأبقى مسلماً، تماماً مثلما ستبقى سوريا قلعة شماء ترفع راية الدين الإسلامي عالياً."

ولكن مع نهاية آذار، سيدرك الأسد أن معركته معركةً كسر عظم، وسيحرق كلّ مراكب المفاوضات أو المصالحة مع الفئة الأكبر من شعبه. وسيلعب لعبته الكبرى وهي الربط ما بين الحراك المدني السلمي والتحرّك الإرهابي للإسلاميين، ويضع الجميع في سلّة واحدة، واستغلّ الأسد تحرّك الإخوان المسلمين للقضاء على كلّ أشكال المعارضة السياسية والمدنية والحقوقية، بما في ذلك ظاهرة التحرك النقابي، وفي نيسان/إبريل 1980، حلّ النقابات السورية واعتقل قاداتها، وبعد أسابيع من ذلك الإجراء قام بتعيين الموالين له في قيادة النقابات لتتحوّل إلى مجرّد منظمات رديفة للأجهزة الأمنية، تمثّل العسكر والمخابرات أكثر بكثير مما تمثّل أعضاءها. وزجّت أجهزة الأسد بمئات المحامين والقضاة والكتاب والأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات في السجون، في مرحلة ستطلى بسواد فوق سواد امتدت عقداً كاملاً من الزمن، ولكنني سأكون بعيداً فلا أشهد ذلك بعيني.

بعد ثلاثين عاماً سيقوم وريث الأسد بالسياسة نفسها عام 2011، حين سيربط منذ اليوم الأول لانتفاضة السوريين في آذار بين الانتفاضة الشعبية وبين ما أسمته مستشارته بثينة شعبان حركة سَلَفية تسعى لإقامة إمارة سلفية في سوريا. ولكن سوريا 2011 لم يكن فيها إرهابيون وجهاديون، فكان على الأسد الابن أن يخلق ذلك التيار فأطلق سراح

المئات من الجهاديين الذي كان يرسلهم للقتال في العراق، فإذا أبَوا الموت وعادوا، أودعهم في سجن صيدنايا سيء السمعة.

كنا في لجنة العمل نراقب الوضع ساعة بساعة، ونحاول أن نتلمّس طريقنا. كنا نتابع الصراع بين الأسد والإخوان من جانب، وبين الأسد والنقابات من جانب آخر. ووقعنا فيما كان يريد النظام إيقاعنا به، فربطنا بين التحرّكين، على الرغم من أنه لم يكن بينهما رابط. كانت الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين تريد إسقاط "الحكم النصيري الباطني المجوسي" وإقامة دولة إسلامية "تقيم حكم الله" وتعتبر المجتمعات غير السنية من أهل الذمّة في أحسن الأحوال. وهي كانت تسعى لذلك من خلال العنف والعمليات الإرهابية. النقابات بالمقابل كانت تطالب بإلغاء حالة الطوارئ وإطلاق سراح المعتقلين واحترام حرية التعبير وإقامة نظام ديمقراطي مدني. بل إن الودّ بدا مفقوداً بين جهاديي الإخوان المسلمين والنقابات، إلى حدّ أن الطليعة المقاتلة أصدرت بياناً في حلب سخرت فيه من المطالب الديمقراطية الليبرالية للنقابات، ودعت خلاف تلك المطالب إلى مواصلة المجابهة المسلحة حتى إسقاط النظام. وأكثر ما أزعج الطليعة المقاتلة أن بعض القوى اليسارية والقومية بدأت تساند الحراك الشعبي والنقابي، وهي رأت في برنامج النقابات "محاولة قومية يسارية لاستثمار ما قامت به هي"، وشعرت بأن النقابات تكاد تسحب البساط من تحت أرجلها. صادرت الطليعة الإضراب الذي كان يمكن أن يتحول إلى عصيان مدني شامل، وحين بدأت جماعة المكتب السياسي بطرح أطروحات سياسية قريبة من مطالبهم، صرخ بهم زعيم الطليعة المقاتلة يومها عدنان عقلة، وقد شعر بخطر سحب البساط من تحت أقدامه الموغلة في الدماء، صيحته الشهيرة: "عودوا إلى جحوركم أيها الشيوعيون." وبذلك تمكنت الطليعة من تحويل الحراك المدني إلى تمرّد مسلّح.

تجمّعت تلك الأحزاب اليسارية والقومية أخيراً في نهاية 1979 في تكتّل واحد أسموه التجمع الوطني الديمقراطي، جاء نتيجة لحوارات طويلة بين الزعيم الشيوعي المخضرم رياض الترك والزعيم الناصري المرموق جمال الأتاسي والأمين القطري لجماعة 23 شباط أحمد درويش، الذي قال لولده مازن درويش في مسارّة خاصة: "إذا كانت هذه قيادات معارضتنا، فأعتقد أن حافظ الأسد سيحكمنا حتى نموت. وفي نهاية العام تمّ الإعلان عن تأسس التجمع الوطني الديمقراطي في نهاية عام 1979، جامعاً خمسة أحزاب سياسية قومية ويسارية، وهي حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي، والحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي)، وحزب العمال الثوري العربي، وحزب البعث العربي الاشتراكي الديمقراطي، وحركة الاشتراكيين العرب (جناح عبد الغني عيّاش). وسنرى من دون تحيّز أو سخرية أن شقيقات هذه الأحزاب نفسها موجودة في الجبهة الوطنية التقدمية الحاكمة في سوريا: حزب الاتحاد الاشتراكي (صفوان قدسي) وحركة الاشتراكيين العرب (عبد الغني قنّوت) والحزب الشيوعي السوري (خالد بكداش)، وحزب البعث (حافظ الأسد). فقط حزب العمّال الثوري لم يكن له شقيق في جبهة السلطة.

أما نحن في الرابطة فتمّ استبعادنا. كان جمال الأتاسي يرغب في ضمّنا، وحين كنت ألتقي به أحياناً لتسليمه الراية الحمراء، كان يعبّر عن تعاطفه معنا، ويقدّم لي نصائح، أبوية إلى حدّ ما، غالباً ما كنت أستمع إليها بتهذيب، ولكنني كنت أرميها وراء ظهري حال خروجي من عيادته. كنت أحب الإصغاء إلى الأتاسي، وأتأمّله وهو يحكي بهدوء وثقة، من وراء نظّارتين كانتا تعطيانه مزيداً من الوقار والدعة، ولكنّ نفوري من كلّ ما يتعلّق بعبد الناصر، سياسة وفكراً وتنظيماً، كان يجعلني أهز كتفيّ بعد خروجي من عيادته، كأنني أنفض عنهما الأفكار التي كان يقولها لي. "ابن العم"، على أي حال – هو من وقف في وجه انضمامنا، وبقوّة. لم ألتقِ

رياض الترك مطلقاً قبل خروجه من زنزانته بفرع التحقيق العسكري التي أمضى فيها أقلّ بقليل من ثماني عشرة سنة. لا، ألم ألتقِ به حقّاً؟ بل فعلت! التقيته بضع مرّات، ولكننا لم نتحدّث مطلقاً. جاورته في زنزانة قريبة من زنزانته في فرع التحقيق. كنت في الزنزانة رقم 37 وكان في الزنزانة رقم 51. ولكن بينما أمضيت في زنزانتي بضعة شهور فقط، أمضى ابن العم سبع عشرة سنة ونيّفاً. مكعب بطول 190سم وعرض 190سم، لا نافذة، لا هواء، لا ضوء، ولا شمس. كان الهواء يأتينا من خلال مضخة تضخّ لنا الهواء وشفّاط يسحبه، إذا لم تنقطع الكهرباء، وكثيراً ما انقطعت. بعد أحد عشر سنة أعطوه سريراً، بعد أن مرض وتدهورت صحته. لمحته أوّل مرّة، رجلاً ضئيلاً، محنيّ القامة، يحمل طشتاً كبيراً ويمضي به من الحمّام إلى الزنزانة. لم يبدُ لي سجيناً عادياً. وكنت أرى أن السجّانين يعاملونه بشيء من الاحترام. ربّما الرهبة؟ ثمّ رأيته ثانية. وسألت أحد السجّانين الذين كان يبدي تعاطفاً معي لأنني لم أكن من الإخوان المسلمين.

"مين صاحبك اللي بـ "واحد وخمسين"؟

"هذا من جماعتكم،" قال مجيباً، ومضى بسرعة، كأنه لا يريد أن يتورّط أكثر.

حاولت أن ألفت انتباهه ذات مرّة، ولكنه لم يكن يأبه بأي شيء خارج دائرة زنزانته. وسيقول بعد سنوات لعلي الأتاسي معدّ فيلم "ابن العم" الوثائقي كيف استطاع الصمود في زنزانته كل هذه السنوات. "أنا حللت الموضوع ببساطة،" قال لعلي، "أنا أصبحت أسيرَ النظام. خرجت من اللعبة، من لعبة الصراع السياسي بين الحاكم والمحكوم. ولم يعد أمامي سوى مهمّة واحدة ووحيدة وهي ألّا أساعد النظام على إعطاء أي شيء يمكن أن يستفيد منه ضدّ حزبي. كمعلومات وكموقف سياسي. خارج هذه النقطة، أنا صرت صفراً. فإذا أنت اقتنعت بهذه النقطة بالذات،

بالمقابل عليك أن تقبل جحيم هذا النظام كثمن للتمسك بذلك."
سألتقيه كثيراً بعد خروجه من السجن. زرته في بيته بحمص، وامتلك روحي بعد خمس دقائق، ببساطته ومباشرته وشجاعته وعدم اعتداده بنفسه وإيثاره بلده وشعبه وحزبه على نفسه دوماً. سحرني بعبارة ابن العم التي كان يناديني بها، كما ينادي جميعَ من يحبّهم، بتحبّب وألفة وتواضع. ستزداد وتيرة لقاءاتنا بعد اعتقاله من قبل الأسد الابن. حين سألته عن حبسته الجديدة، أزال سيجارته التي كان وضعها بين شفتيه ليشعلها، وقال بلهجته الحمصية العميقة التي أحبّها:

"هاي مانا حبسة، ابن العم. هاي سيران."

ثم ضحك بصخب ضحكة مديدة، وأشعل السيجارة، وعبّ منها نفساً عميقاً، ثمّ نفث الدخان في سماء الغرفة، وغاب عني بخياله لحظة، قبل أن يعود مسرعاً ليستأنف حديثه.

***

حين نقلنا البندقية من كتف لأخرى

سألني جميل حتمل: "أيّ خطط لعيد ميلادك هذه السنة؟"

كنا في بيتي الذي استأجرته مع برهان الزعبي في المزّة. كان شتاء 1980 قاسياً، ولم يكن لدينا مازوت لنضعه في المدفأة، ولكننا كنا ندفّئ أنفسنا بشرب نوع رخيص من البراندي السوري ونأكل حبات من الفول المسلوق، بينما تمدّد برهان على السرير يقرأ في كتاب ما.

"لن أحتفل بعيد ميلادي هذه السنة،" قلت لجميل، وصمتّ لحظة، قبل أن أضيف: "سنحتفل جميعاً بعيد ميلاد جبرا."

اعتقل جبرا قبل أشهر، وعيد ميلاده في 5 شباط، بعد يوم واحد من عيد ميلادي. لم اعرف أحداً لم يقع في غرام جبرا حين يعرفه. وكان اعتقاله صدمة لنا جميعاً. ولأن ذلك كان أوّل عيد له يمرّ وهو في المعتقل، فقد ارتأيت أن نحتفل جميعاً بعيد ميلاده هو.

غريب كيف ننظر إلى الأمور في أعمار متفاوتة. في شبابي الأول، كان الاحتفال بعيد الميلاد مسألة مقدّسة، سواء أكان عيدي أم عيد أي من الأصدقاء. ومع توغّلي في السنين، بات العيد عبئاً عليّ، لا أعرف كيف أتهرّب منه وأداريه لكي لا أتلقى عبارات التهنئة والمباركات.

وسأل جميل: "أين؟ عند عزام؟"

وكان ذلك منطقياً فمعظم احتفالاتنا كنّا نقيمها في شقّة برج الروس عند عزّام، ولكن برهان صاح: "بل هنا. في بيتنا هنا."

بدأنا نعدّ للحفلة قبل يومين، وفي يوم 4 شباط، بعد الظهر بقليل، اشتريت نبيذاً وعرقاً وبيرة ومكسرات، استعداداً لليوم التالي. ولكنّ جبرا فضّل أن يفاجئنا ويحضر حفلته بنفسه. في 4 شباط. كنا برهان وأنا في البيت نحضّر أنفسنا ليوم الغد، حين سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب. نظرنا كلّ منا إلى الآخر برعب، وجمدنا في مكاننا، نحملق في الباب. لا أحد يطرق الباب بهذه الطريقة سوى رجال الأمن. ولكن أولئك غالباً ما يأتون فجراً. برهان تقدّم من الباب بخفّة قط، وراح ينظر من العين السحرية، وهو يستعدّ لإعطائي إشارة الهرب، لو كان الطارق من نخافه.

"يلعن سماك!" قال بمزيج من الغضب والفرح، ثمّ إليّ:

"هذا غسان!"

وكما تفعل عاصفة هوجاء عاتية، اندفع غسّان سلمان إلى البيت وهو يصيح:

"الشباب طلعوا!"

لم نستوعبْ.

"أي شباب؟"

"شباب الرابطة وكل اليساريين؟"

"مين منهم؟"

"الكل.. الكل.."

كان ذلك أشبه بالحلم. حافظ الأسد فتح أبواب سجونه وأطلق سراح مئات المعارضين من اليسار السوري باستثناء العسكريين الأربعة: العقيد صلاح الدين سليمان والمقدّم خضر جبر، المقدم مصطفى معتوق والملازم الأول طارق شبيب. كان حقد الأسد الأب على العسكريين وخوفه منهم منعه من الإفراج عنهم، وسيمكثون في السجن ثلاث عشرة سنة إضافية بسبب ذينك الخوف والحقد.

كان الصراع بين النظام والإخوان المسلمين قد تنامى إلى حدّ كبير، جعل الأسد وأركان نظامه يستشعرون خطراً حقيقياً. ولكسب جزء من الشارع، أمر الأسد بإطلاق سراح المعتقلين من رابطة العمل الشيوعي (نحو 130 رفيقاً بينهم عشر نساء) ومنظمات يسارية أخرى، كاتحاد الشغيلة والفصيل الشيوعي والحزب الشيوعي-المكتب السياسي. ولكنه لن يلبث حتى يعود بسياسة الاعتقال بعد أشهر، فيختطف نهاد نحاس وبرهان الزعبي وجمال سعيد وحسام علوش وجفان الحمصي وحسين محمد ومحمد عبود الذي سيكون أول شهيد في جماعتنا. وغيرهم بعد أشهر فقط من الإفراج الكبير.

خلال ساعات عجّ بيتنا بالرفاق والأصدقاء، وانتهى الأمر بأن نحتفل بعيد ميلاد جبرا قبل يوم. ولكن اليوم لم يكن فرحاً كبيراً لجبرا، إذ كان عليّ أن أختلي به في إحدى الغرفتين، وأخبره عن حبيبته التي تركته وأحبت سواه.

عقدنا في اليوم التالي اجتماعاً للجنة العمل، وأخذنا رزمة من القرارات، منها الاتصال بجميع الرفاق، وترميم الهيئة المركزية بأعضائها السابقين، وإضافة عدداً من الرفاق الأساسيين للهيئة. وطلب مني الالتقاء بعدد كبير من الخارجين، بعضهم وافق مباشرة على العودة واستئناف العمل، وبعضهم قال لي "شكراً. اكتفينا." وبين من تواصلت معهم كان يوسف عبدلكي. كان قرار لجنة العمل ضمّ يوسف عبدلكي إلى الهيئة المركزية.

وكنت ضدّ هذا الرأي، فمهمة يوسف الحقيقية ليست في النضال اليومي والهرب من الأمن، بل في الرسم والحفر والفن، وكان يحاول السفر إلى باريس للدراسة في مدرسة الفنون الجميلة (بوزار) هناك. ومع ذلك كان عليّ أن أنقل الرسالة له.

التقيت به بعد ظهر يوم آذاري جميل، بعد أن خفّ عدد زواره والمهنئين. كان قد نحل قليلاً وبدت عليه الحكمة أكثر، ولكن روح الدعابة والابتسامة الساخرة على شفتيه لم تتغيّرا أبداً. قلت ليه:

"معي لك رسالة من الرفاق. يريدونك في الهيئة المركزية. " وصمتّ وأنا أنظر في عينيه، لأتأكّد من أنه فهم الرسالة. ثمّ سألته:

"وصلتك الرسالة؟"

"نعم!"

فقلت: "أما رأيي الشخصي فهو أن لا تلقي بالاً لهذه الرسالة وأن تكمل مشروعك في السفر والدراسة في باريس، فأنت كفنان أهمّ من عشرة مناضلين ثوريين مجموعين."

هزّ يوسف رأسه بصمت. لم يقلْ لي ما سيفعل ولم أشأ أن أسأله. بعد شهور غادرنا إلى باريس، وصقل موهبته بالثقافة والتكنيك، وغدا فناناً تُعرض لوحاته تعرض في كبريات دور العرض والمتاحف.

***

في الأشهر التالية، ستزداد حدّة الصراع بين حافظ الأسد والإخوان المسلمين من جهة، وبينه وبين معظم السوريين من جهة أخرى. وحين ستُضرب المدن الكبرى في ربيع 1980 ومعها نقابات المحامين والأطباء والمهندسين وغيرهم من النقابات المهنية، سيساوي الأسد، ومعه

شقيقه رفعت الذي طالب علناً في المؤتمر القطري السابع لحزب البعث الذي عقد أواخر 1979 وأوائل 1980 بالسماح له بقتل مليون سوري، بين تحرّك الإخوان والتحرّكات الشعبية المطالبة بالحريات السياسية، وحسم خياره باستخدام الدم وما أسماه بـ "العنف الثوري"، مستخدماً إضافة إلى سرايا الدفاع والوحدات الخاصة والمخابرات ميليشيات مسلحة تابعة لحزب البعث، وهو التكتيك نفسه الذي سيأخذه وريثه بشار في مواجهة الثورة السورية عام 2011.

في هذه الفترة ستدور في صفوف الرابطة نقاشات كثيرة حول دور الإخوان المسلمين السياسي، وستمتدّ هذه النقاشات لتشمل الجناح الذي كان انشقّ قبل أشهر عن خالد بكداش بقيادة مراد اليوسف، الحزب الشيوعي السوري – منظمات القاعدة، والحركة الصغيرة التي انشقت عن المكتب السياسي بزعامة يوسف نمر، وفيها نخبة لا بأس بها من كوادر المكتب السياسي.

ستتبلور النقاشات بعد أشهر من خلال تقرير ستصدره الهيئة المركزية لرابطة العمل الشيوعي والذي سيعرف لاحقاً باسم "تقرير آب". وفي هذا التقرير، ستقرّر الرابطة "نقل السلاح من كتف لآخر": سنجمّد شعار إسقاط النظام، مستبدلين به شعار "دحر التحالف الرجعي الأسود". وحين سأشرح لرفاقنا هذه الخطوة سأذكّر على الأغلب مقولة لينين بعيد ثورة شباط/فبراير 1917 حول ضرورة قتال قوّات الجنرال كورنيلوف الذي انتفض ضدّ الحكومة المؤقّتة التي كان يقودها كيرنسكي، لأن كورنيلوف أشدّ خطراً على العمّال والفلاحين الروس من البورجوازي الصغير كيرنسكي. وتطبيقاً لتلك السابقة اللينينية فإن رابطة العمل قرّرت نقل البندقية من كتف إلى كتف، وتوجيهها مبدئياً نحو كورنيلوف (عصام العطار) ووقف الهجوم ضدّ كيرنسكي (حافظ الأسد).

كان تصوّرنا يقوم على المعادلة التبسيطية التالية: ثمّة صراع يدور بين شريحتين متناقضتين من البورجوازية السورية: البورجوازية البيروقراطية والبورجوازية الطفيلية. وبينما الشريحة الأولى التي يقودها حافظ الأسد شريحة لا وطنية إلا أن لها بعض المواقف التي تخدم القضية الوطنية وهي تقف في مواجهة تيار كامب ديفيد والتفريط بالقضية المركزية (فلسطين.) بالمقابل، الشريحة الطفيلية، التي يقودها "حلف رجعي أسود" بين الحركة الإسلامية وبعث العراق وتيار كامب ديفيد، مواقفها من القضية الوطنية مواقف خيانية وهي مستعدّة للتفريط بالقضية المركزية وعقد سلام مع إسرائيل على غرار كامب ديفيد. وهي بالإضافة إلى ذلك شريحة فاشية متخلفة ورجعية. ولأن قوّة النظام في تراجع بينما "الحلف الرجعي الأسود" في تقدّم، وقد اشتدّ الصراع إلى حدّ نشأ معه نوع من ازدواجية السلطة في حماه وحلب، فإن من الواجب الوقوف ضدّ التيار الأشدّ خطورة ورجعية بين التيارين، خاصّة وأن القطب الثالث، الحركة الوطنية السورية، هي في حال من التشتّت والضعف يجعلها غير قادرة على لعب دور مستقل. ذلك أن من غير المنطقي أن تساهم رابطة العمل في تقدّم برنامج أكثر تخلّفاً وفاشية عن برنامج النظام الراهن.

والحال أن مقولة القتال إلى جانب كيرنسكي ضدّ كورنيلوف ليست خاطئة سياسياً فقط وإنما تاريخياً أيضاً. فرسالة لينين الشهيرة في 12 أيلول/سبتمبر 1917 كانت تقول: "سوف نقاتل، ونحن نقاتل بالفعل، ضدّ كورنيلوف، مثلما تفعل قوات كيرنسكي، ولكننا لا ندعم كيرنسكي. على العكس من ذلك، نكشف ضعفه. هناك فرق. إنه بالأحرى فرق بسيط، لكنه ضروري للغاية. ويجب ألّا ننسى." ويضيف لينين: "نحن نغيّر شكل كفاحنا ضد كيرنسكي. وبدون التخفيف من عدائنا نحوه، من دون التراجع عن كلمة واحدة قيلت ضدّه، ومن دون التخلي عن مهمّة الإطاحة به." وحين سيقترب كورنيلوف من بتروغراد سيدعو لينين إلى

تصفية كيرنسكي قبل التفرغ لقتال كورنيلوف.

والحال أيضاً أنه لم يكن لدينا في الأساس بندقية لننقلها من كتف إلى كتف، ولم تكن مواقفنا لتؤثر في الصراع الشرس بين النظام والإخوان المسلمين. كنا لا نزال مجموعة نعدّ بالعشرات من الشباب النشطين، الذي يغطي نشاطنا قلّة عددنا، ويطغى علوّ صوتنا عل ضعف تأثيرنا.

ومع ذلك سيكون خطؤنا الأكبر أننا لم ننتبه إلى أن الشارع السوري كان بدوره يتحرّك ضدّ النظام وأن نخبه المثقفة كانت تتحسّس حركة الشارع أكثر مما كنا نتحسّس نحن من خلال كتبنا وقوالبنا الجاهزة. وسنخلط، ربما عامدين بين حركة النقابات والمثقفين والكتّاب ومناضلين بعثيين قدامى يقودهم من باريس صلاح البيطار من جهة، وحركة الإخوان المسلمين وطليعتهم المقاتلة وعصابات صدّام حسين من جهة أخرى، ما سيضع غشاوة على أعيننا، منعتنا من رؤية الأمور على حقيقتها.

بالمقابل، سيتجّه رفاقنا في المكتب السياسي في الاتجاه المعاكس، فينسون أي خلاف فكري وسياسي بينهم وبين الإخوان المسلمين، بل ساروا شوطاً أبعد، فدفعوا في رسالة داخلية للجنتهم المركزية في حزيران / يونيو 1980 إلى التفكير في خيار تكوين "تحالف ديمقراطي – إسلامي – شعبي"، ربما تحت تأثير حدث الثورة الإيرانية، الذي شارك فيه شيوعيون وإسلاميون. وكانت جريدة نضال الشعب الناطقة بلسان الحزب قد كتبت قبل سنة تقريباً افتتاحية برّرت فيها أفعال الإخوان المسلمين، بحجة ظلم النظام واستبداديته. ولم يثن الرفاق ترفّع

الإسلاميين عنهم ولا رسائل التهديد التي كانت تنشرها الطليعة المقاتلة من خلال أشرطة كاسيت، داعية اليساريين للعودة إلى "جحورهم". ولعلّ أكبر خطأ ارتكبه المكتب السياسي كان إرسال عضو اللجنة

المركزية أحمد محفل لحضور "المؤتمر الشعبي القومي" في بغداد، في آذار/مارس 1980، الذي أثار جدلاً داخلياً حاداً. وسيدفع رياض الترك، الزعيم التاريخي للحزب، بعد أشهر، قرابة الثماني عشرة سنة يقضيها في زنزانة انفرادية تحت الأرض في فرع التحقيق العسكري.

***

صيف قائظ

كان صيف 1980 صيفاً قائظاً بكلّ المعاني. قبل أن نوغل في ذلك الصيف، كنت في مدينة حماة، في زيارة لأختي مها التي سترحل عنا إلى الأبد مطلع الألفية الجديدة. كانت مها مصدراً لا ينضب لسعادتي. كنت أجلس إليها ساعات طوالاً نتحدّث في كلّ شيء: عن أولادها الثلاثة وزوجها، عن روايات كوليت خوري التي كانت تعشق قراءتها، من دون أن تجد صدىً جيداً لدى زوجها، عن أفلام سعاد حسني ومجلة الكواكب، عن الماركسية ولماذا كنت أرى في الشيوعية خيراً عميماً لسوريا والعالم. ليلاً، مدَدْتُ فراشاً في غرفة الضيوف ونمت، بعد قدحين من العرق الأغبش والمازة الرائعة التي كانت تعدّها مها ببراعة. بعيد منتصف الليل، أفقت على حركة في البيت. كانت أختي وزوجها يتنقلان بين الصالة والشرفة. نهضتُ، أستفسر الأمر. "خيراً؟" سألتُ. وأخبرني مجد الدين، ابن عمي وزوج مها، أنه علم من أصدقاء له أن المخابرات العسكرية والجيش كانوا يمشطون الحيّ الذي كانوا يسكنون. كان وجهه مسكوناً بالقلق. وكنت أفهم ذلك، فقد كنت ملاحقاً، أحمل هوية مزوّرة، باسم وليد ل. من مدينة التل بريف دمشق. فإن كشفت عن هويتي الحقيقية، اعتُقلت، وإن تمسّكت بأنني وليد ل.، فسأكون مشتبهاً به ممتازاً: فما الذي يربطني بهذه العائلة، ولماذا أنام بينهم. اقترح مجد أن يقول لهم إنني تاجر دمشقي أزور المدينة بقصد التجارة، وقد

تأخّر بي الوقت، فعرض عليّ مجد، وهو تاجر أقمشة معروف في المدينة، أن أبيت عنده. ولم يكن ذلك أفضل الحلول ولكنه كان الحلّ الوحيد الممكن. في الخارج، أخذت الضجّة تقترب من البيت، وبدأ الخوف في صدري يتدفّق تدفُّق موجات البحر آن المدّ، ويزداد في الوقت نفسه القلق في عيون أختي وزوجها وولديها الكبيرين، الذين كانا -كأي مراهقين في المدينة- عرضة للاعتقال والغياب الطويل في تلك الفترة. حين دخل الجنود الحارة، توقّف زوج أختي عن الخروج إلى الشرفة، وصار يتلصّص من النافذة، ويزداد شحوباً. ورحت أعيد السناريوهات الممكنة، وتبيّنت أن سيناريو التاجر الدمشقي ليس سليماً. فإن انكشفتُ، فسيعودون إلى زوج أختي وأولادها وينهون حسابهم معهم. قرّرت أن أتلف هويتي المزوّرة وأن أعترف باسمي، فهو أسلم، ولعلهم لن يحمّلوا أختي وزوجها جريرة استضافة أخيها، اليساري المطلوب.

طلبت من أختي مقصاً وقطعت البطاقة المتقنة التزوير التي كانت لدي ورميتها في حفرة المرحاض وشدّدت حبل السيفون، ورحت أرقبها وهي تغوص في الماء، ويغوص قلبي معها. كانت هوية رائعة، وقد أنقذتني مراراً أثناء التنقل بين المدن، حين كان العسكر يعتلون الباص ويطلبون هوياتنا، فأخرجها لهم بثقة، يتأملونها لحظة ثمّ يعيدونها إليّ من دون أي شبهة. المرّة الوحيدة التي لم تجدِ معي كانت في دمشق، في ساحة الأمويين. كنا نسير، رفيق لي وأنا، في مساء كانوني شديد البرودة، فتوقفنا دورية رابضة أسفل شارع المالكي. مدَدت يدي إلى جيبي بثقة وأخرجت البطاقة وناولتها لعنصر الأمن الذي أوقفنا. كان أصحابه في السيارة البيجو البيضاء الواقفة فوق الرصيف، اتقاء البرد. أخذ الشاب البطاقة وتأمّل فيها، ثمّ تفرّس في وجهي زمناً، وصمت دهراً، قبل أن يعيد لي البطاقة، ويبتسم.

"هل تمرّ إلى بيت أهلك أحياناً؟" سأل بصوت منخفض، محاذراً أن يسمعه من في السيارة.

نظرت إليه بدهشة ورعب وتوجّس.

"ما عرفتني؟ أنا وديع."

وحين لم يبدُ عليّ أنني ميّزته، أضاف: "مدرسة الوليدية، الميتم الإسلامي."

وشهقت. رفع سبابته محذّراً وأعاد لي هويتي، وقال:

"دير بالك ع حالك! أنا ما شفت شي." واستدار مبتعداً صوب رفاقه في السيارة. ومشينا رفيقي وأنا مبتعدين عن الرجل والسيارة وساحة الأمويين، ونحن لا نصدّق أننا نجونا. ورحت أستعيد شيئاً فشيئاً ملامح صبي كان معي في المدرسة، في الصف الرابع أو الخامس، أميل إلى الطول، يشبك ذراعه في ذراعي في الفرصة، ويسطو على مصروفي اليومي بحجة اقتراضه، من دون أن يعيد يوماً ما أخذ. كان يتيم الأم، غالباً ما يأتي إلى المدرسة بمريول متّسخ، ونادراً ما كان يقوم بواجباته في البيت. وقال لي صاحبي وهو يلهث: "معجزة! ما جرى للتو معجزة."

اقتربتْ الضجّة من أسفل البناية، وتجمّد قلبي من الخوف. واستسلمت لأي شيء يمكن أن يحدث. سمعنا أسفل الدرج حواراً يبدو أنه جرى بين رئيس الدورية وبين جار يسكن في الطابق الأرضي من البناية. كانت البناية صغيرة من طابقين اثنين وشقّتين فقط. في الطابق الأسفل كان يسكن مسؤول صغير في الحكومة، وكان في الوقت نفسه قريباً لصهري. وتناهى إلينا سؤال من كلمة واحدة:

"وفوق؟"

"فوق ابن خالتي. ما حدا غريب."

بعد ثوان مرّت دهوراً، أُغلق باب البناية، وسمعنا خطوات أحذية العسكر تنتقل إلى البناية المقابلة.

نجونا! وتنفّست أختي وزوجها وأنا الصعداء، وسقطت على الصوفا الكبيرة في غرفة الجلوس، وأنا أصطنع ابتسامة، وقالت مها: "الحمد لله على السلامة"، أما زوجها فبقي صامتاً، وهو لا يصدّق أنه قد نجا. وأما أنا فكان فرحي بالنجاة لا يعادله شيء سوى حزني على البطاقة التي أتلفتها للتوّ.

ثمّ جاء الصيف. اشتدّ الصراع بين السلطة والإخوان المسلمين وتحوّل إلى كسر عظم. تمّ تمرير القانون 49، وساوت السلطة بين الإخوان المسلمين وكلّ حراك شعبي، ورمي آلاف الشباب في سجن تدمر والمزة وفي أقبية فروع التحقيق، واعتقل معظم المتدينين الذين يتراوحون بين 16 و40 سنة. وتخلّى حافظ الأسد عن سياسة الانفتاح التي بدأها في ربيع 1980، فأعاد اعتقال رفاقنا في الرابطة، وأنهى التنظيمات اليسارية الصغيرة كاتحاد الشغيلة والفصيل الشيوعي وحركة النهوض، ودمّر مفاصل الحزب الشيوعي – المكتب السياسي، وغُيِّب زعيمه في زنزانة تحت الأرض مدّة ثماني عشرة سنة.

كنا في لجنة العمل نعمل ليل نهار على الإعداد للتقرير الذي سيصدر بعد شهرين وسنعلن فيه تجميد شعار إسقاط السلطة، واستبداله بـ "دحر الحلف الرجعي الأسود ودحر الديكتاتورية والظفر بالحريات السياسية". وكنا نعمل على أكثر من جبهة، داخلياً، كان علينا أن نقنع الرفاق بضرورة تغيير خط الرابطة وخلق هدنة مع النظام، ولم يكن ذلك يلقى صدىً طيباً في أوساط معظم الرفاق. كان مبرّر وجود الرابطة مخالفة السائد وخلق تيار ماركسي لا يأبه للألعاب السياسية، فكيف

إذن في غمضة عين، نتخلّى عن كلّ ذلك؟ وحتى في داخل لجنة العمل، كان ثمّة مَن ينظر بعين الريبة إلى ما نقوم به. خارجياً، كان الخلاف بيننا وبين الحزب الشيوعي – المكتب السياسي يتفاقم. وأخيراً، النظام الذي أطلق سراح رفاقنا في 4 شباط / فبراير، سرعان ما عاد يعتقلهم من جديد. وإلى العسكريين الأربعة الذين احتفظ بهم الأسد، سنخسر في ربيع وصيف 1980 رفاقاً آخرين، بينهم حسين محمد وجفان الحمصي ونهاد نحاس، واثنان على وجه الخصوص سيكسران قلبي: برهان الزعبي، شريك الكومونة، المشاكس الجميل، وجمال سعيد، رفيق التشرد في دروب دمشق القديمة.

في 26 حزيران/يونيو 1980، كان الرئيس حافظ الأسد يودّع ضيفه الرئيس النيجيري حسين كونتشي في قصر الضيافة في حي أبي رمانة. وعلى الدرج الضيق الخاص أمام القصر، تقدّم أحد الحرّاس من فريق حماية الأسد نفسه وألقى صوبه قنبلتين يدويتين، صُدَّت الأولى وتمّ إبعادها، واحتضن أحد أبرز مرافقيه الثانية، فلقي حتفه ونجا الدكتاتور! وتبنّى تنظيم الطليعة الإسلامية المقاتلة محاولة الاغتيال هذه لاحقاً.

في الثالثة والنصف من فجر اليوم التالي جُهِّزت مجموعتان من سرايا الدفاع، تبلغ قرابة المائة، بإشراف رفعت الأسد وصهره معين ناصيف، وبقيادة المقدم سليمان مصطفى. نقلت المجموعة في عشر حوّامات من مطار المزة، ووصلت في السادسة صباحاً إلى تدمر، حيث عقد ضباط العملية اجتماعاً تمّ فيه تحديد المجموعة التي كلّفت بدخول السجن، وسُميت "مجموعة الاقتحام". وروى بعض الناجين من المجزرة الذين التقيتهم في فرع التحقيق قبل نقلنا إلى تدمر الرعب الذي انتاب السجناء في تلك الصبيحة. لم تكن الحياة قد دبّت في السجن بعد، وقد صحا السجناء من نومهم وجلسوا ينتظرون طعام الإفطار وما يرافقه من تعذيب صباحي. ولكن حين فُتحت الأبواب، لم يدخل

الطعام. بدلاً عن ذلك اقتحم العساكر المسلّحون المهاجع وبدأ الرصاص ينهمر على المعتقلين كالبَرَد.

وكان صيفي أنا حارّاً أيضاً. في حزيران، قرّرت فاديا الانفصال عني، وعشت حالة من انعدام التوازن والضبابية، وبينما كنت أقفز من بيت لبيت وحارة لحارة لأروّج لتقرير آب، منشغلاً بسؤال ممضّ: كيف يمكن لشاب في الخامسة والعشرين، ملاحق من المخابرات، وليس له بيت محدّد وحياة طبيعية، أن يعثر على امرأة يحبّها قليلاً، وتحبّه.

"سوسنةً على قبر

جرحاً في قصيدة

هكذا تريد أن تكون أيها الولد الصغير القابع في داخلي.

ورد من شمع

حديقة موتى

هكذا تريدين أن تكوني أيتها البنت الصغيرة الراكضة في شوارع قلبي.

وأما أنت أيتها التي لا أعرفها،

فأي شيء تريدين أن تكوني؟

أي شيء

تريدين أن تكوني؟"

ثمّ جاءتْ، من بعيد، لتبدّدَ الوحشة التي كانت تغطّي مساحة القلب. فتح لي صديقي الشاعر موفق سليمان باب بيته الصغير المنزوي في آخر مساكن برزة، وقال لي ضاحكاً: "أدخل، أدخل. حماتك تحبّك."

"لا أعتقد،" قلت ساخراً، ودخلت. زوجته اللطيفة "فتاة" كانت تعد العشاء، بينما كانت ابنته الصغيرة، بلاد، تلعب بدمية قماشية زهرية اللون. كان موفق سليمان من أصدقاء حمص، رفيق شلّة الأصدقاء الخمسة الذين كانوا يتسامرون حتى ساعة متأخرة من الليل، ثمّ يسيرون في حواري المدينة يروون أشعارهم ويهربون من دوريات الأمن الليلية. سأعرف حين سأخرج من السجن أنه أصيب بنوبة قلبية أقعدته السرير سنوات قبل أن يصرعه المرض.

كانت رائحة الطبخ تملأ البيت الصغير بغرفتيه الضيقتين ومطبخه العاري. دخلتُ غرفة الجلوس، ورأيتُها. صبية نحيلة متناسقة، رقيقة الملامح، شاحبة البشرة، بعيون رمادية واسعة تتسع لبحار من الأسئلة. هنالك لحظات تخطفك من بين أصحابك، فتغيب عن الزمان والمكان لحظة ثمّ تعود لتدرك أين أنت. كانت تلك واحدة من هذه اللحظات. أبداً لم ينخطف قلبي كما فعل في تلك اللحظة.

***

لم تكن غادة العلي أوّل امرأة أحب. أوّل امرأة أحببتها كانت وهمية، اختلقتها من خيالي ورويتها قصّة لأصدقائي في المدرسة. أسميتها ليلى، وجعلتها بيضاء البشرة بعينين سوداوين، أقرب إلى الامتلاء، وبشعر أسود قصير كشعر ابنة خالة أمي التي كنت أعشق رائحتها.

بعد ليلى أحببت زاهية، جارتنا في البناية، التي كانت تحبّ أن تغني لي أغنية محمد جمال وطروب:

"من فضلك يا ست البيت جعت وبدي اتغدّى

من فضلك يا سيد البيت، إيدك على الجيبة مدّا.

إيدي مش ممكن مدّا

وجنابك ما بتتغدّى."

ثم جاءت سهر. مثل جميع رفاق الحارة وقعت في غرامها. كانت تسكن مع أسرتها في البناية المواجهة لبنايتنا، في طابق يقع فوق الدكاكين مباشرة، منخفض السقف، نسميه في حمص "نصيّة". كانت تعرف أننا جميعاً مدلّهون في عشقها، فتفتح أحياناً نافذة غرفتها المطلّة على الحارة، وترمينا بنظرة واحدة عابرة ساحقة، ثم تغوص في الغرفة. وحين تسير في أمسيات الصيف مع أمها، بفستانها الليموني المفوّف بأرانب صغيرة متقافزة، ونسمات حمص الصيفية تداعب غرّتها، كنّا نتسمّر جميعاً في أماكننا، من دون أن يجرؤ أي منا على قول حتى كلمة واحدة، ونحن نرقبها جميلةً، أنيقةً، وسامقةً، تفوق معظمنا طولا وعظمة ونبلا، ثمّ تروح مبتعدة عن أبصارنا وإن كانت لا تبارح خيالنا مطلقاً.

كلّنا أحبّ سهر – كلّ أولاد الحارة، ولكنّ المنافسة كانت على أشدها بيني وبين محمد الحسامي الذي يكبرني بسنتين. كان محمد، ولسبب ما كنا نسميه "الحجي"، أطول مني وأقوى وأشدّ، وكنت ولداً نحيلاً، أميل إلى الخجل. وكان الحجي يستعرض أمام سهر مهارته في قيادة الدراجة ولعب الطابة والمصارعة، بينما كنت أقف تحت شباكها، وبيدي مجلّة سندباد، استبدلتها بعد سنوات بدواوين نزار قباني. أحببناها دهراً، وراقبناها وهي تكبر، ونكبر معها، وتكبر معنا مشاعرنا وتنضج. على أن أياً منا لم يوجّه لها كلمة واحدة، ولم نكتب لها رسالة حب. أنا فعلت: كتبت لها الرسالة إثر الرسالة، ولكنها كانت تظل في درج المكتبة التي تتوسّط ما بين غرفة النوم وغرفة الجلوس في بيتنا. أخذت معي رزمة الرسائل إلى دمشق حين سافرت للدراسة، وبقيت معي، تتنقّل من بيت لبيت، على أن صادرها رجال الأمن فيما صادروا من كتب وصور وقصص وذكريات.

في المرحلة الثانوية أحببت بثينة، الشقراء، اللطيفة، الأنيسة، شديدة التهذيب، التي اصطحبتها مرّة -وكنت في البكالوريا- إلى السينما لنرى فيلماً لروك هدسون وكلوديا كاردينالي. تابعنا الفيلم، وأنا أفكّر في كلمات قصيدة أكتبها لها:

أبثينُ، إني عاشق

لكنّ حبي كالسراب

مالي أحب وارتضي

ذلّ المحبة والعذاب.

ككلّ أبناء جيلي كنت أحسب أن جمال الحبّ في الصدّ والسهاد، وليس في الحب نفسه. وحين قابلت حنان في الجامعة، لم يتعدّ حبي لها المشاوير المسائية وتناول الشاي في مقهى الرصيف في الجسر الأبيض، قبل أن أوصلها بالباص إلى بيتها في ركن الدين. كان لحنان عينان تلتهبان اخضراراً وحماساً وألقاً، تحبّ أغاني عبد الحليم حافظ، وتتابع أفلام سعاد حسني، وتريد لو تكون شقية مثلها. في مكتبة الجامعة، كتبت لها بالفرنسية "Je t'aime". كنت سمعت أغنية جين بيركين وسيرج غينسبورغ مئات المرّات. لم تكن تدرس الفرنسية، فكتبت لي "شو يعني؟" لم أجرؤ على ترجمتها للعربية، فكتبت بالإنكليزية:

Je = I

Te = you

Aime = love

فأشرق وجهها بابتسامة غامرة واسعة وسع المكتبة والكلية والعالم،

وكتبت: "وأنا كمان"

تطلّعت إليها غير مصدّق. راح قلبي يخفق بشدة كادت تخلعه من مكانه. وشعرت أن جدران المكتبة تقترب مني فتطبق على رئتي، وأحسست بحاجة إلى هواء طازج، فتركتها واندفعت كالصاروخ خارج المكتبة وحين صرت خارج المبنى، أسندت ظهري إلى جدار الكافتيريا، وهمست لنفسي وأنا ألهث: "هي أيضاً. تحبني!"

لا أدري ما الذي ساقنا في إحدى الأمسيات الشتوية إلى منطقة الحلبوني. لعلها أرادت أن تشتري دفاتر وأقلاماً. كنا نسير متجاورين، منهمكين في حديث ما، حين اعترضَنا ثلاثة شباب متينين، وقد طَبَعت وجوههم غلظة وتنمّر واضح. عرفت في أحدهم شاباً كان معنا في الصف. كانت حنان قد نبّهتني منه. هو ابن حارتها في حماة، المدينة المحافظة. يعتبر نفسه وصياً عليّ، قالت لي مرّة، فصرنا نتحاشاه في الجامعة، ولا أدري كيف نبَقَ أمامنا الآن. أكان يتبعنا منذ أن غادرنا الكلية؟ أأحضر معه أصدقاءه قصداً؟

"شو بدك منها؟" سألني الشاب بعدوانية بيّنة.

تردّدت قليلاً قبل أن أجيب بلهجة فيها بعض التحدّي وبعض الرجاء: "ما علاقتك أنت؟" فنظر إلى رفيقيه بما يشبه الدهشة، ثم اقترح: "تعال نتفاهم." كان الخوف ينهش أحشائي، ومع ذلك قلت لحنان بفروسية: "اذهبي أنتِ. أراك لاحقاً."

مشت حنان لا تلوي على شيء، وبقيت وحدي مع العصابة، أحاول أن أجد وسيلة للتفاهم. أمسك زعيم الثلاثة بي من ياقة قميصي المفتوح، وقرّبني إليه، وهمس وهو يصرف بأسنانه:

"إن رأيتك معها مرّة ثانية، فعليك السلام." ثمّ أطلقني، وأشار إلى

صاحبيه، فابتعدوا جميعاً عني، وثلّة من المارّة يتطلّعون إلينا بتساؤل. لم أتوقّف عن رؤية حنان، ولم نتوقّف عن الجلوس جنباً إلى جنب في قاعة المحاضرات، وتابعنا مشاويرنا المسائية بعد الدوام. ولا أدري لم لمْ ينفّذ الشاب تهديده. كانت شُجاعة، ولكن شجاعتي أنا توقفت عند كلمة أحبك. لم أقم بأي خطوة إلى الأمام. لم أمسك بيدها، ولم أختطف منها قبلة سريعة عندما كنت أوصلها إلى بيتها في ركن الدين.

عشت أشهراً من السعادة الصرفة غير الممزوجة بأي شيء آخر. كنا نصل إلى الكلية صباحاً، ونغادرها حينما تقفل أبوابها. تصحبنا اثنتان من صديقاتها واثنان من أصدقائي: هدوان وفيصل. على أن حنان فقدت اهتمامها بي شيئاً فشيئاً، ومع اقتراب العام الدراسي على نهايته بدأت تتحاشاني تماماً، فتملّكني حزن شديد وكآبة ممضّة، ثمّ رأيتها مرّات تسير بصحبة هَدْوان، البدوي الحمصي الجميل، الذي كان أقرب أصدقائي إليّ في تلك السنة، ولم أعرف أبداً إن كان ثمّة شيء وراء صحبتهما. ولم ألتقِ بهدوان أبداً بعد الجامعة، ولكنني تحدثت معه عبر واتس آب، مرّة واحدة، بعد أربعين عاماً، سألته عن حاله وسألني عن أحوالي، وكدت أسأله عن حنان، ولكنني أحجمت في آخر لحظة. أما حنان، فسألت عنها كلّ من يمكن أن يعرفها. لا خبر! حاولت أن أبحث عنها على فيسبوك أو الوسائط الاجتماعية الأخرى، ولكنها اختفت. كأنها لم تكن.

بعد حنان كرّت المسبحة، فاتنة، تلك السمراء ذات العينين الصغيرتين الفاحمتين الشقيّتين، اللتين تغزلان عشقاً وفتنة. سأقرأ ورقة نعيها بعد أربعين سنة على حائط في دمشق القديمة في أوّل سنوات الثورة. وفايزة، المديدة الأنيقة، بعينيها السوداوين الطاغيتين، التي تلفّ عنقها الطويل دائماً بشال حريري، وتحكي بهدوء فتهيمن على من يستمع إليها بدفء صوتها وتلك الموسيقى العجيبة التي تأتي من حديثها. ستمرّ بي بعد عشرين سنة وأنا أدرّس في المدرسة الباكستانية بدمشق باعتبارها ولية

أمر ابنة أختها، وكانت طالبة عندي. صعقني جمالها لحظة دخلت مكتبي كما صعقني أوّل مرّة رأيتها إذ كنت ولداً بشعر طويل وملابس هيبية ولحية غير مشذّبة، وأعتقد واثقاً أنني لو مررت بها اليوم في شارع ما في بيروت أو باريس أو نيويورك، فسأعرفها فوراً، وسأصعق من جديد بجموحها وعمق السواد في عينيها. ثمّ ألمى، الدمشقية الشقراء، الصغيرة، الهادئة، التي كانت تكتب شعراً وتذوب رقّة وتحكي همساً على الدوام. تعرفّت إليها بعد أمسية قصصية لي، وقالت لي إنها أيضاً تكتب القصّة والشعر. تمشينا طويلاً حتى أوغل الليل في يوم شباطي بارد، وروت لي بعضاً من قصائدها. لم يكن الشعر، ولكن الدفء والطرواة والسكينة التي كانت تتدفّق من صوت ألمى هي ما جعلني أقع في غرامها. ولكن ليس طويلاً! بعد أربعة أسابيع من أول يوم التقيتها، جاءتني صديقتها الحميمة يوماً لتقول لي:

"تشرب شاياً؟" ثم على الطاولة المربعة الصغيرة في كافتيريا الكلية الآداب، رمت لي بقنبلتها:

"وائل، أحقّاً لم تنبه إلى الخاتم الذي في إصبع يدها اليمنى؟"

***

وقال موفق السليمان: "هذه غادة، أخت فتاة. جاءت من حمص مؤخّراً."

ثمّ إلى غادة:

"هذ وائل، صديق قديم من حمص."

وضعتْ غادة في يدي يداً صغيرة لدنة، فسرت من أصابعها النحيلة في يدي رعشة خفيفة. وخفق في الصدر جناحا طائر جارح وقع لتوّه في الأسر.

***

من غادة العلي إلى محمد عبوّد: كلّهم رحلوا

لم تكن غادة العلي إذن أوّل امرأة أحبّ، ولكن لعلّها كانت أوّل امرأة تحبّني. أنستني غادة هزيمتي وأعادت لي توازني الذي فقدته صيف 1980، وعلّمتني أن الحياة ليست فقط نضالاً وبيانات سياسية وصراعاً طبقياً، ولكنها ببساطة عيش وقهوة ومشاوير وحب. كانت بجسدها النحيل وبشرتها الشاحبة وعينيها العميقتين كأفقين ساحرين ما قبل شروق الشمس ملاذاً لي من التعب والركض خلف المواعيد والنقاشات العاصفة المرهقة مع الرفاق. مع غادة كنت أنا نفسي، من دون تزيين أو تجميل أو تصنّع، وكانت تقبلني كما أنا، ليس لأنني مثقّف ولا لأنني مناضل ولا لأنني وسيم، بل لأنني أنا، بكل ضعفي وهشاشتي وتعبي وضآلتي. ومعها سأعيش عاماً جميلاً، هادئاً، ومنتجاً. سأكتب دراستي الطويلة عن الإخوان المسلمين التي نشرتها في مجلة الشيوعي، وسأكتب سلسلة من الدراسات النقدية، وأنشرها باسم عماد أبو المجد.

كانت الصباحات تشرق أجملَ، والليالي تطول أحياناً حتى الفجر، حين نعود إلى البيت وقد بدأت الشمس تتسلّل خلسة إلى شوارع دمشق الغافية، كنت أشعر بطمأنينة ساجية تغلّف سياج القلب، وأشعر بها تطمئن هي أيضاً، فيترَع القلب نشوة. كانت غادة قد عانت في الفترة

الماضية من تجربة عشق فاشلة، وتركت مدينتها (مدينتنا) حمص إلى دمشق، ولم تكن قد تعرّفت بعد إلى مفاتيح هذه المدينة الكبيرة. ستعرّفني غادة على أسرتها، وسأقع مباشرة في غرام هذه الأسرة. ستفتنني أمها بسحرها وبساطتها وحبها الذي يغمر الجميع وذكائها اللماح الذي لا تبديه إلا عند الضرورة. وسيأسرني أخوها جمال، بفوضويته ولحيته السوداء الكثة وعينيه الصقريّتين وكسله المحبّب وطموحه الخيالي الذي ليس له من الواقع نصيب. وأما فتاة فكانت طيبتها بلا حدود، سوى حدودِ حفاظها على موفق، زوجِها الشاعر البوهيمي الذي كانت عيناه تجولان بسرعة خاطفة بحثاً عن الجمال، قبل أن تقعده نوبة قلبية طريح الفراش. حنان تجسيدٌ للمحبة والتفاني في سبيل أهلها وأصدقائها، بسمرة هادئة وعينين حنونين، ووفاء الفنانة المرهفة الأنيقة الذكية والطموحة، التي ستضحي -واعية أو غير واعية- بموهبتها من أجل أسرتها الجديدة. سأظل أذكر وقفتها على المسرح وحضورها فوق الخشبة بجبروت ورهافة وجمال. أما الصغيرتان رجاء وسلاف فستكبران في غفلة من الزمن ومني، فتفاجئني رجاء برزانة غريبة تأخذها بعيداً عن العائلة، بينما تظلّ سلاف الصغيرة تلك التلميذة المشاغبة التي كانت تعاكسني في كلّ ما أقول، لتثبت لي استقلالها ومكانتها في العائلة.

جاءت غادة في الوقت المناسب تماماً. كنت قد انفصلت عن فاديا، واستبدّ بي يأس قاتل. فهو ذا أنا في الخامسة والعسرين، أمامي مستقبل غامض وينتظرني السجن في أي لحظة، وعليّ أن أعيش بلا امرأة أحبها وتحبّني. في لحظة اليأس تلك، أشرقت غادة في سماء القلب، وغدت صمّام الأمان لي. كانت تمتص تعبي وتجتثّ يأسي وتلوّن أيامي وتحوّل تشاؤمي أملاً زاهياً. رآها صديقي منير طانا ذات مساء جميل في ربيع 1981، وهتف بي بلهجة يوريكية: "هذه هي!"

كان منير مخرجاً مسرحياً، وقد قرأ لي قصة قصيرة لي بعنوان "فاديا تأكل

الجيليه وتصفّف شعرها ثم تموت في حادثة سيارة" فأحبها وأراد أن نحولها نصّاً مسرحياً ليخرجها. وكان مع منير طاقم من الشباب والصبايا الهواة الذين يملؤون خشبة المسرح حياة وصخباً وجمالاً، ولكنه لم يرّ بين ممثلات فرقته من يمكن أن يلعب دور فاديا. ولكنه حين رأى غادة، وكنا نحتسي البيرة في مقهى مقاهي آخر خط المهاجرين الجميلة، التي استولى عليها حافظ الأسد وهدمها ليبني مكانها قصر الضيافة الجديد، صاح بي: "هذه هي. هذه فاديا." وغادة نظرت صوبي وسألتني باستغراب: "مين فاديا؟" وشرحت لها. قالت: "بس أنا ماني ممثلة." وكأي نبي يرى في الرجال والنساء أبعد مما يرون في أنفسهم، ابتسم منير وقال لها: "دعي ذلك لي."

وبدأنا فعلاً بالبروفات، وأبلت غادة بلاء جميلاً، فاتناً. بيد أن اعتقالي الذي سيتمّ بعد أشهر فقط، ألغى كل ذلك.

ولكن غادة، ككلّ النبلاء الذين لا يحتمل قلبهم ألم الحياة، كانت مصابة في قلبها. وسيتعاون قلبها المريض مع زواج فاشل برجل كان يريد أن يحمّل العالم ويحمّلها هي سبب فشله وعزلته وكآبته، ثمَ مع مرض خبيث آخر، ليأتلف الثلاثة جميعاً في حلف غير مقدّس أنهى حياتها باكراً. في شارع الشيخ سعد المزدحم بالآدميين والباعة وعربات الخضار وباعة الشاورما، التقيت بحنان وسلاف. كانتا تتسوّقان أو تزجيان الوقت، ربما. سلّمتا بحرارة آل العلي المعروفة وكرمهم وابتسامتهم المشرقة الدائمة على وجوههم، والتي أخذوها على الأغلب عن أمهم الجميلة. سألتهما عن الحال وسألتاني، قبل أن أحوّل السؤال إلى غادة. ولسبب ما أحسست بقلق خاطف في أحشائي. كانت مرّت فترة طويلة جداً لم ألتق بها. وكانت الصاعقة:

"غادة مريضة يا وائل."

نظرت إليهما بتساؤل ممضّ. "قلبها؟" سألت، فصمتتا دهراً، قبل أن تجيب حنان: "لا.. إنه السرطان."

القلق الذي جاش في داخلي تحوّل غضباً وقهراً. وسلاف الصغيرة تطرق في الأرض ولا تريد أن تسمح لعينيها أن تلاقيا عينيّ.

"تعال زرْنا!" قالت حنان.

"سآتي، طبعاً!"

ولم أذهب. بل ذهبت! وصلت إلى الحيّ التي كانت تسكنه في ضاحية قدسيا، وإلى الشارع والبناية، ووقفت أسفل البناء لحظات، أرى إلى ضوء شاحب يتسلّل من شرفة بيت الصبايا، شعرت بالجُبن، وأحسست بركبتي تخذلاني. لم أستطع أن أراها هزيلة، شاحبة، متألّمة. كنت أشدّ جبناً وأكثرَ هشاشة من أن أواسيها وأرى روحها الوثّابة المكافحة وهي تذوي تحت ناظري، فاستدرت بضعف وأشرت إلى أول سيّارة أجرة وعدت صوب قلب المدينة، إلى ألفة بيتي وزوجتي وابنتي. بعد أشهر سوف أغادر البلاد، وستنقطع أخبار غادة، إلى أن تصلني رسالة من الصغيرة سلاف على فيسبوك، تطمئن عليّ، بعد غياب طويل.

"خيفان أسألك يا سلاف"، كتبتُ لها.

"لا تسأل. غادة راحت يا وائل. راحت وما قدرت ودّعها."

ولكن كان ثمّة ما ينغص عليّ هناءتي مع غادة. فإلى جانب الشهور السمحة التي أمضيتها معها، كان ثمة تنظيم ينبغي أن أعمل من أجله. وفي تلك المرحلة بدت لي رابطة العمل الشيوعي وكأنها غير التنظيم الذي أسهمت سنوات طوال في تأسيسه وتنميته، فألفته وأحببته. والعمل الذي كان بالنسبة لي نضالاً ونشاطاً أخلاقياً هدفه تغيير الكون والوصول

إلى عالم من الوئام والمحبة والسلام غدا الآن "سياسة"، بكل التفاصيل المتعلّقة بالسياسة، وككلّ تنظيم سياسي، بدأت الخلافات تتكّون بين الأفراد والاتجاهات، وراح كلّ فرد أو اتجاه يحاول أن يدفع بالمركب نحو غايته السياسية. ولطالما كنت فاشلاً في إدارة اللعبة السياسية، ولطالما كرهت العمل في الكواليس، ليس عن شهامة دائماً، ولكن عن ضعف وانعدام حيلة.

كان هدفي منذ إطلاق سراح رفاقنا في شباط 1980 أن ينعم التنظيم بسنة على الأقل من دون نزيف داخلي ومن دون خسائر في الكادر تسلب التنظيم أفضل كوادره؛ هدنة يستطيع أن يعيد تكوين نفسه فيرجع إلى قواعده الأولى كتنظيم ديمقراطي يقوم على مبادئ المساءلة والشفافية والانتخاب الدوري. في النظام الداخلي الذي أقرّه المؤتمرون في آب 1976، كان عقد المؤتمر العام ينبغي أن يكون سنوياً، فجاءت حملات القمع المتوالية منذ آذار 1977، لتجعل هذا الأمر ترفاً غير مقدور عليه. وبات البقاء على قيد الحياة هو الهدف، فلجأنا إلى التعيين لسدّ النزيف في الهيئات، وبدل انتخاب أعضاء اللجان المنطقية (والفرعية) من قبل مؤتمراتها، صرنا نعيّن أعضاء اللجان المنطقية تعييناً، وأحياناً كانت اللجنة كلّها رفيقاً واحداً، تنقصه الخبرة السياسية والتنظيمية ولكنه يتمتع بشجاعة مواجهة الخطر، ويستطيع القفز من موعد لموعد، متجنباً خطر الاعتقال أو مؤجلاً إياه ما أمكن.

هل كان ذلك خطأ أم صواباً؟ من أنا لأجيب على سؤال بهذا الحجم؟ وما الحدّ الفاصل بين العالمين؟ وما حجم البرزخ الذي يفصل بينهما؟ أكان علينا أن نقتنع منذ البداية أن مواجهة قمع النظام الفاشي فروسية لا معنى لها وأن عيناً لا تقاوم مخرزاً؟

إن كان من صدمة لذيذة في الحياة فلا بدّ أنها تشبه إطلاق الرفاق في 4 شباط 1980. عصفت بي لذّة تشبه السكْر، وثملت بفكرة أن الحياة قد

تعود إذن لتسير في دورتها العادية، كنت أتلمس وجوه الرفاق بيدي، أخشى عليهم أن يفلتوا منهما ويعودوا للمعتقل من جديد. كانت الرابطة حتى ذلك التاريخ قد خسرت مئات الكوادر، وفي صباح 4 شباط تمّ إطلاق مائة وستة من الرفاق، مع نحو خمسين آخرين من تنظيمات يسارية أخرى، بينها الفصيل الشيوعي واتحاد الشغيلة وحزب العمال الشيوعي السوري وحركة النهوض، إضافة إلى اثنين من مناضلي الحزب الشيوعي-المكتب السياسي. وهجس في بالي أن تلك اللحظة قد تكون اللحظة التي كان التنظيم يحتاجها ليرمّم نفسه ويلملم جروحه.

ومع ذلك لم نكن في التنظيم نرغب في قبول رشوة من النظام، فأصدرنا بياناً، شاركتُ في صياغته، فيه ترحيب بالإفراج، ولكن تذكير بأن الإفراج لا يعني التنازل عن المبادئ التي قامت الرابطة عليها. ورحبنّا بالرفاق المفرج عنهم، وقلنا لهم إن الرابطة "من خلال صمودكم وامتلاكها المنهج الماركسي-اللينيني قد انتزعت مشروعية وجودنا الثوري، كما انتزعنا مكسب خروجكم من المعتقلات"، ولكنّ بعضَ الضعفِ في الثقة الذي كان ينتابنا أحياناً جعلنا نسارع إلى درء أي شبهة يمكن أن تأتي من إطلاق سراح رفاقنا، فرفضنا أن تكون الرابطة "إسفيناً يدق في قلب الحركة الوطنية السورية".

وفي آذار 1980، عقدنا اجتماعاً موسّعاً لكل أعضاء الهيئة المركزية الحاليين والسابقين. كان الاجتماع عاطفياً أكثر منه اجتماعاً سياسياً لقيادة تنظيم يناضل لإسقاط السلطة. وطُرحت في الاجتماع مسألة عقد نوع من الهدنة مع النظام، ومسألة فتح خط للحوار معه، ومسألة تجميد إسقاط السلطة. ورفضت جميعها بأغلبية واسعة. وسيتعين علينا، ونحن قلّة من الأعضاء بيننا أصلان عبد الكريم وكامل عبّاس وأحمد رزق ونهاد نحّاس، أن نبدأ عملاً مضنياً لنحوّل هذه الأقلية إلى أغلبية. على أن النظام لم يمهلنا. فبعد أسابيع من انعقاد اللجنة

المركزية، اعتقل نهاد نحّاس. كان يحاول أن يصالح زوجته في بيت صديق مشترك، وما كادت الكؤوس تترع حتى دوهم البيت واعتقل نهاد وصديقه، وتبعه رهط كبير من الرفاق الذين ذهبوا فرادى. جفّان الحمصي والعميد (زياد مشهور) وحسام علوش وحسين محمد، ثمّ اثنان سيكسران قلبي من جديد: برهان الزعبي وجمال سعيد. سحبوا برهان من مقصف الجامعة، كان يتناول مع صديقة سندويشة جبنة وكأساً من الشاي بانتظار محاضرة صباحية. اقترب منه شخص مدني وطلب بطاقة هويته، سأله برهان ببراءة "مين حضرتك؟" وطلب بطاقة هويته. انقض عليه عملاقان وجرّوه خارج المقصف، والطلاب، والصديقة، يتابعون المشهد برعب.

جمال أيضاً طلب هوية العناصر الذين اعتقلوه وأمر الاعتقال من النيابة. كان غادر قريته كفرية النائمة في جبال اللاذقية، عائداً إلى دمشق، بعد قرار لجنة العمل عودة الرفاق غير القياديين المتخفين إلى العلن. على مدخل المدينة، أوقفت دورية أمن الميكروباص الذي كان يقلّ أكثر من عشرين راكباً. وطلب العناصر من الشاب الذي يرتدي معطفاً بنياً أن ينزل مع أغراضه. نزل جمال، وكما علّمه الرفاق، أراد أن يخلق ضجّة حول اعتقاله، فطلب من عناصر الأمن هوياتهم وأمر الاعتقال، ولكن الأخيرين أخرسوه وسحبوه بالقوة إلى دمشق.

ثم جاء الرعب ذات يوم شتوي بارد. قبل أسابيع من رأس سنة 1981 التقيت بفاتح جاموس في أحد شوارع مساكن برزة.

"لدي خبر سيء، قال بصوت منخفض، من دون أن يسمح لعيني أن تلتقط عينيه. انتظر لحظة قبل أن يتابع: "أحد رفاقنا في اللاذقية استشهد تحت التعذيب."

***

قواعد اللعبة

مات محمد عبود تحت التعذيب، هكذا قال لي فاتح جاموس. وقع الخبر عليّ كحجر انقضّ من علٍ. أحسست برأسي يدور وغامت عيناي لحظة. أوّل ما خطر ببالي هو أننا لم نتفق على هذا – نحن والنظام لم نتفّق على القتل. اتفقنا على الاعتقال، وربما التعذيب، ولكن ليس على القتل، ليس على الموت.

اعتقل محمد عبّود في اللاذقية في فرع الأمن السياسي. لم يكن قيادياً ولم يكن لديه الكثير من المعلومات. ولست أدري اليوم لم قُتل. كان النظام في معركة مع الإخوان المسلمين، وكان يحاول أن يصلح الأمر مع اليساريين عموماً ومعنا على وجه الخصوص، فلماذا يقتل واحداً منا؟ هل تحدّى الجلادين وقتها؟ هل حسبوا أن لديه معلومات يخفيها؟ أم أنه عوقب ببساطة لأنه... علوي؟

جاء في تقرير أطباء المستشفى الذي أُسعف إليه أن الوفاة حدثت بسبب "اللطم الشديد على الرأس". التقرير كتبه أطباء المستشفى أنفسهم. كان ذلك قبل أن يتوحش زُلْم النظام فيرفضوا تسليم جثث ضحاياهم، ثمّ يُجبَر الأطباء أن يكتبوا أن الوفاة وقعت "بسبب أزمة قلبية" كما هي الحال اليوم، حتى ولو كانت آثار التعذيب الوحشية بادية على جسد الضحية. وفي هذا الخصوص، يكتب رفيق القتيل راتب

شعبو أن الأطباء والممرضات عبّروا وقتها عن صدمتهم، "وتهجموا على دورية الأمن السياسي بالتحقير والبصاق. وبات المساعد الذي أشرف على تعذيب الشهيد منبوذاً في البيئة نفسها. كان هذا قبل أن تتشفى "إعلامية" موالية بصورة سيلفي مع ضحايا القصف الأسدي في حلب، وقبل أن يصبح المعارض العلوي "خائناً" ومستباحاً في وسطه الاجتماعي."

بعد محمّد عبود سيسقط شهداء كثيرون تحت التعذيب، بينهم مضر الجندي، الذي اعتقله فرع فلسطين في المخابرات العسكرية عام 1987 في إطار أشرس حملة اعتقالات (ولعلها الحملة التي أنهت التنظيم فعلاً). توفيّ مضر الجندي بسبب أزمة ربو، زاد منها التعذيب الوحشي. ولكن السلطة رفضت الاعتراف بمقتله حتى اللحظة. ولا تزال أمه تعيش وجع غيابه اليوم، وتنتظر عودته وهي تعرف جيداً أنه لن يعود. زوجته قابلت رئيس فرع التحقيق العسكري عام 1994 وطالبته بوثيقة تثبت وفاة زوجها. ونحن نعرف أن الضابط اعترف لها أن مضر قد توفي، ولكنه رفض أن يعطيها وثيقة رسمية تثبت هذه الواقعة. لا نعرف كيف قال لها ذلك؛ لا نعلم إن كان نظر في عينيها بوقاحة في تشفٍّ وضعة أم أنه هرب بعينيه بعيداً في خجل وكآبة، ولكننا نعرف الآن أن مضر قُتل تحت التعذيب، ولا تزال سلطة الخوف والقمع والرعب ترفض أن تمنحه قبراً في قريته وحداداً يليق به.

لم أعرف محمد عبود ومضر الجندي شخصياً، ولكنني عرفت شاباً آخر قضى غير بعيد عني في سجن صيدنايا. كان إحسان عزو شاباً قوياً وفتياً يبحث عن العدالة. كان يؤلمه أن يرى الأشياء في غير مكانها، فيسرع إلى إعادتها إلى نصابها الصحيح. وهو إن لم يستطع انقلب إلى داخله وراح يأكل جزءًا من قلبه المملوء بالحب والأمل والطموح. حين راح مكبّر الصوت في السجن يبث لنا أناشيد تمجّد القاتل، كزّ على أسنانه، وحاول

أن يضبط أعصابه حتى فاض به الكيل، فاندفع كعاصفة نحو الباب وراح يقرعه قبل أن نستطيع إيقافه. جاء الرقيب: شبك ولا؟ وطلب إحسان بجدية وبصوت عال وواضح أن يغلق الرقيب مكبر الصوت. ذهل الرقيب، واستعاد إحسان كي يتأكّد أنه سمع جيداً، ثمّ مضى يخبر رؤساءه. وكان ذلك آخر عهدنا بإحسان. سُحب من المهجع إلى المنفردة، ومن الزنزانة إلى المشفى ومن المشفى إلى منزل أبيه وأمه. كانا -أبوه وأمه- ينتظران عودته، ينتظران أن يطلّ من الباب، مديداً، وسيماً، ضاحكاً كعادته حين يعود إلى بلدته. على أنه آثر هذه المرة أن يعود في صندوق.

شعر فاتح بما أحسّ به، فراح يواسيني.

"لا أعتقد أن القتل كان مقصوداً. قُتل خطأ كما أعتقد."

أيخفّف ذلك من الحزن؟ أيسكّن الوحشة التي غمرت القلب فجأة كفيضان؟ أيقلّل من الخوف؟ أيجعلني أشعر بأمان أكبر. كان أماني الشخصي يعني لي الكثير، ولكن المشكلة لم تكن تقف عند ذلك. السؤال الكبير الذي راح يعصف في داخلي هو إلى أي حدّ أنا شخصياً مسؤول عنه. كنت وقتها في أعلى قيادة في التنظيم، وبهذا المعنى فأنا مسؤول سياسياً وأخلاقياً عن مقتل رجل، كان قبل أيام يسير في الشارع، يوزع الراية الحمراء، ويشتري خبزاً لعائلته ويشرب القهوة في مقهى سويس. من أنا لكي أحكم على الناس بالموت؟ بل كيف يحقّ لأي كان أن يرسل بشرياً آخر إلى القتل؟ طبعاً النظام كان هو المجرم الأول عن قتل محمد عبود ومضر الجندي وإحسان عزّو وكلّ من قضى تحت التعذيب أو في السجن عموماً، ولكن أليس علينا نحن في قيادة التنظيم جزء من المسؤولية، كبر هذا الجزء أو صغر؟ ولا أتذكّر أن قيادة التنظيم ناقشت القضية من هذه الزاوية، فمن الأسهل دوماً إلقاء اللوم على الآخر، فهو أخفّ حملاً على القلب ووطأة على الضمير وأسرع للنسيان.

كانت تلك المرة الثانية التي خطر ببالي فيها أن أترك التنظيم، وربما السياسة بمجملها. المرّة الأولى كانت في 1978 حين ترك ملهمي أحمد جمّول التنظيم. كان أحمد جمّول، معلمي ومرشدي والرجل الذي أخرجني من البكدشة إلى اليسار الجديد. مشكلة أحمد أنه لم يكن يعرف البراغماتية ولا العمل التنظيمي. كان مثالاً للمثقّف الذي لا يجيد استخدام ثقافته في أي مجال عملي. في حملة آذار 1977 لم يحسن التصرّف، ولم يستطع استيعاب أعداد الرفاق الذين سيقوا إلى السجن. واضطر لحياة التخفي والملاحقة الأمنية. انتقل من بيت لبيت من دون أن يشعر بالأمن الذي يحتاجه ليكون ما هو عليه. وفي حملة تشرين الثاني رأى أيضاً الرفاق يساقون من جامعاتهم ووظائفهم وبيوتهم إلى فرع الخطيب. حملة أيار كانت الحدّ الفاصل بين رغبته وإمكاناته على التحمّل. بعد أن لملم التنظيم جراح الحملة، عقدت لجنة العمل اجتماعاً لتقييم الوضع. في الاجتماع، طالب أحمد بحلّ الرابطة والعودة إلى العمل الدعاوي كحلقات ماركسية. كان يعتقد أن النظام لن يترك الظاهرة تنمو، وأن التنظيم غير مؤهّل للصمود طويلاً، وأن الحاضنة الاجتماعية غير قادرة على حماية التنظيم. "الحل إذن،" قال أحمد في الاجتماع، "نعود خطوة تكتيكية إلى الوراء. نحلّ الرابطة. نداوي جروحنا. نعيد سيرتنا الأولى كحلقات ماركسية دعاوية، ننشر الوعي ونتواصل مع كلّ الشيوعيين، ثم ننتظر ظروفاً موضوعية أفضل." وقتها خطر ببالي أن ما ليس جيداً لأحمد ليس جيداً لي، ولكنني أحسست أن الانسحاب جبن وتخلٍّ: جبن في مواجهة النظام وتخلٍّ عن الرفاق الذين صحبتهم حيناً من الدهر.

هذه المرّة أيضاً خطرت ببالي فكرة أن أترك العمل. شعرت بالقرف لأن أحد طرفي اللعبة لم يحترم قواعدها. ثمّ أحسست أن اللعبة أكبر مني وأنني لا أستطيع الاستمرار فيها. إلى أي حدّ كانت المسألة لعبة بالنسبة لي وبالنسبة للنظام؟ لم أكن أعرف جواباً وقتها، ولكنْ أن أجدَ على يديّ

آثار دماء، ذلك ما لم يخطر لي على بال. ومرّة أخرى جبنت أن أنسحب. وانتابني شعور أن العمل في تنظيم سياسي أو نقابي مثل العمل في مافيا، لا يمكن الخروج منها. طبعاً لم تكن المقاربة كاملة، ولم أكن أشبّه التنظيم بالمافيا (وهو أكثر ما يكون بعداً عنها)، ولكن الانتماء يجعلك جزءًا من كل، ويجعل مكانتك وأهميتك، بل وربما وجودك كلّه، مستمدّة من الجماعة. تخيّلت نفسي من دون اجتماعات وتوزيعِ بيانات وإخلاءِ بيوت ومواعيدَ شارعية، وتخيّلت نفسي من دون هالة المناضل الملاحق. كنت أعتبر أنني وحافظ الأسد ندّان متساويان، نتصارع على برامج مختلفة ومستقبل مفارق ونظرة متباينة للمجتمع والدولة، فلو تركت السياسة، فسوف أعود، فرداً عادياً، كالملايين من الإثني عشر الذين كانوا يعمّرون سوريا في تلك المرحلة. والنتيجة أنني لم أفكّر طويلاً، وقرّرت أن أتابع، وما كان نضالاً من أجل الحرية صار أيضاً ثأراً لروح محمد عبّود. ولم أكن أدري وقتها أن محمد عبود سيكون فاتحة لعشرات ممن سأسعى إلى الثأر من أجلهم.

***

فرّ الحلم من أيدينا

بشكل عام، كنا في تلك الأيام، مستغرقين بأفكارنا وهمومنا، بحيث إننا كنا نغفل في كثير من الأحيان عمّا يجري حولنا في المنطقة وفي العالم. كان العام 1979 عاماً مفصلياً في تاريخ المنطقة، ففيه وصل آية الله الخميني إلى طهران وأطاح بحكم الشاه وطرد رئيس الوزراء شهبور بختيار، ثم ولاحقه إلى باريس حيث قتله، والتفت إلى زملائه الذين رفعوه إلى السلطة فتخلص منهم بالقتل أو الحبس أو التهجير، وفرض الحجاب على النساء ومنع الموسيقا والكحول، وبدأ يفكر في تصدير الثورة.

في نفس العام أعدم الجنرال الباكستاني الأصولي ضياء الحق، الذي اغتصب السلطة، الرئيسَ الباكستاني المنتخبَ ذو الفقار على بوتو ضارباً بعرض الحائط بمناشدة عدد هائل من زعماء العالم الإبقاء على حياته. ثم بدأ بعد ذلك بأسلمة الحياة في باكستان، وعلى خطى الخميني منع الموسيقا والفنون وحرّم الكحول وفرضَ الحجاب. وحصل مباشرة على مباركة العاهل السعودي الملك خالد والرئيس الأمريكي المنتخب رونالد ريغان، ودفع الثلاثة بالجنود والأموال إلى أفغانستان فخلقوا بذلك حركة طالبان وساعدوا على تأسيس القاعدة. وبدأ ضياء الحق أول حرب سنية - شيعية في القرن العشرين، حين أطلق دكتاتور الباكستان يد المتطرفين السنّة للعيث فساداً في القرى الشيعية، وسمح لهم بارتكاب أول مجزرة

طائفية تقع منذ أن شنّ الوهابيون حملتهم سيئة الصيت على كربلاء في 1801.

في تشرين الثاني / نوفمبر من نفس العام، تجمّع حوالي 50 ألف مسلم من أرجاء العالم لصلاة الفجر في ساحة الكعبة بالمسجد الحرام. وكان من بينهم مئتا رجل يقودهم داعية أربعيني يُدعى جهيمان العتيبي. أعلن جهيمان ظهور المهدي المنتظر الذي سيحكم الأرض بالعدل بعد أن ملأها الظلم والقمع، واحتل المسجد، وصار ينشر أفكاره بين المعتمرين والمصلّين، متّهماً آل سعود بالفساد والإفساد وممالأة الغرب وعدم تطبيق الشريعة الإسلامية. سيحتاج آل سعود إلى أسبوعين قبل أن يعدّوا العدّة لتحرير المسجد والرهائن، مستعينين -إذا صدّقنا الرواية غير الرسمية- بوحدات خاصّة فرنسية أشرفت على الهجوم، الذي انتهى بثمانية وعشرين قتيلاً وسبعة عشر جريحاً، وإعدام كافة أعضاء المجموعة. وجدت الحكومة السعودية نفسها محرجة ومكبلة في مواجهة العملية، وبدت كما لو أنها مصابة بالشلل. وتحدث بعض المحللين بأنها تعاملت مع حادثة الحرم على أنها محاولة انقلابية تستهدف الإطاحة بالنظام السعودي بأسره، الأمر الذي خلق جواً عاماً من الريبة في كل أنحاء المملكة. وكان لا بد قبل الشروع في أي عمل عسكري من استصدار فتوى تبيح التدخل بالقوة وإدخال الأسلحة إلى داخل الحرم المكي لإنهاء الحصار، وتمكنت السلطات، حسب بعض المصادر، من الحصول "على أصوات 32 من كبار العلماء لاستخدام القوة ضد حركة جهيمان.

ستغيّر حادثة الحرم وجه السعودية لعقود، فلتبرير الهجوم احتاجت الحكومة السعودية إلى عقد صفقة مع رجال الدين السعودي، الذين وجدوا الفرصة المناسبة لتعزيز سلطتهم الدينية ووجهة نظرهم الأحادية. لقد سمح رجال الدين للسياسيين باستخدام القوّة في

المسجد الحرام، وبالمقابل أطلق السياسيون يد غلاة رجال الدين في شؤون الدين والحياة والمجتمع والتعليم والثقافة. وعلى الرغم من أن آل سعود ردّوا على التمرّد بحزم، إلا أنهم انتهوا بتبني أفكار جهيمان الأكثر انغلاقاً وتعصّباً، وباتت الشخصيات الدينية السعودية تحتلّ مواقع اجتماعية وثقافية متقدّمة، وأُغلقت دور السينما والمسارح القليلة التي كانت موجودة في المملكة، وتمّ تضييق الخناق على المرأة والرياضة والفنون. وتعززت في السنوات التالية قبضة السلطات الدينية، بما في ذلك السلطة الدينية سيئة السمعة، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تولّت مهام الشرطي والداعية والفقيه والقاضي في وقت واحد. لقد قضى آل سعود على جهيمان ولكن جهيمان انتصر عليهم فكرياً.

قبل ذاك بأشهر، جمع نقيب سوري في مدرسة المدفعية بحلب اسمه إبراهيم اليوسف نحو ثلاثمئة طالب ضابط، ثمّ فرزهم وفق انتمائهم الطائفي، واضعاً الطلاب العلويين في زاوية القاعة، ثم بدأ وجماعته يطلقون الرصاص عليهم كالمطر. سنعرف لاحقاً أن من قام بهذه المجزرة المقيتة هم جماعة الطليعة المقاتلة المنشقّة عن الإخوان المسلمين، التي كان أسسها المقاتل الإسلامي المتشدّد مروان حديد. قبل خمس عشرة سنة كان مروان قد قاد استعصاءً في مدينتي حماة وحمص، قضت عليه حكومة البعث الوليدة آنذاك بعنف غير مبرّر. وكان خلاف قد برز داخل جماعة الإخوان في حماة بين نهج الإخوان المسلمين بطابعه الصوفي التقليدي المتداخل بالحركية الدّعوية وبين مروان حديد الذي كان ينادي بالعمل المسلّح لإسقاط حكومة البعث. في النهاية، انفصل حديد عن التنظيم، وأسّس جماعة ذات توجّه جهادي صارخ، ستطلق على نفسها لاحقاً اسم "الطليعة المقاتلة". اعتقل حديد في دمشق في عام 1975 ومات في سجنه في العام الذي تلاه.

كلّ هذه الأحداث كانت تمرّ قربنا، تحاذينا، وننظر إليها كأنها لا تعنينا، ومن دون أن نوليها ما يستحقّ من الاهتمام. والحقيقة أن مشاغلنا كانت في مكان آخر. في تلك السنة كان شباب الرابطة يطوّرون مواقفهم الأيديولوجية في اتجاهين مختلفين. أحدهما كان يقترب شيئاً فشيئاً من الموقف الرسمي للقيادة السوفييتية، بينما كان الآخر يسير في الاتجاه المعاكس لها. الاتجاه الأول كان يؤسّس على مفهوم لوحة الصراع الطبقي العالمية، ويعتقد أن الحركة الشيوعية العالمية لا يمكن أن تحقّق انتصارات حقيقية إذا هي وقفت في مواجهة موسكو. التيار الآخر، كان يتبنى أي موقف يخالف التوجه السوفييتي، ولئن كان التيار التروتسكي هو الأقوى فيه، فإن نزعات أخرى يسارية كانت ترفد هذا التيار.

كان في واجهة التيار الأول الرجل الذي لا يعرف المهادنة والمراوغة. قبل رأس سنة 1980 بأيام، احتلّ نحو سبعمئة جندي سوفييتي كانوا يرتدون ملابس الجيش الأفغاني المباني الحكومية والعسكرية والإعلامية الرئيسية في كابول، بما في ذلك هدفهم الأساسي – قصر الشعب الرئاسي، مقرّ إقامة الرئيس حفيظ الله أمين. وخلال ثلاث ساعات، استولت القوّات السوفييتية على القصر ووسائل الإعلام والوحدات العسكرية، وقتلت حفيظ الله أمين، وتمّ تعيين دمية موسكو، بابراك كارمال، في سدّة الحكم في كابول. وليلة رأس السنة، كنا نحتفل باستقبال العام 1980 مع مجموعة من الأصدقاء والرفاق، وقبيل دقائق من منتصف الليل، وقف أصلان عبد الكريم في منتصف الغرفة ورفع كأسه عالياً، وهتف:

"نخب الرفيق بابراك كارمال. نخب الرفاق السوفييت".

كنت أرى في أي شيء يقوله أصلان سحراً وجمالاً ومنطقاً متماسكاً. كان للرجل قدرة هائلة على وضع الأفكار في كلمات، يحكي بثقة ويستشهد بحوادث من التاريخ أكثر من استشهاده بنصوص من الكتب. وأعترف

أن تأثيره عليّ كان كبيراً. ولكن سؤالاً كان يفور في صدري بعنف: أين نذهب إذن بكل أدبياتنا في نقد الاتحاد السوفييتي؟ كان أحد عوامل مشروعيتنا كفصيل شيوعي هو اختلافنا مع الحزب الشيوعي السوري بقيادة خالد بكداش في موقفه التبعي المهين من القيادة السوفييتية. وكذلك كنا نختلف مع فصيل المكتب السياسي بقيادة رياض الترك، الذي كان يأخذ موقفاً عدائياً من "الرفاق السوفييت". موقفنا نحن كان "النقد من دون عداء، والتأييد من دون تبعية". ولئن كان نقدنا من دون عداء، فقد كان أيضاً من دون مهادنة. وقد رفض السوفييت الحديث إلينا، ولم يكن ذلك يزعجنا كثيراً، بل لعله كان يعطينا بعض الرضا عن الذات. وكنا نشعر بالفخر ونعلن ذلك في أدبياتنا: في حين سعى البعض لكسب الشرعية من السوفييت، فإن شرعيتنا نحن "هي شرعية مختلفة تماماً. هي تلك المنبثقة من قوّة المنظّمة على أرضها وبين جماهير شعبها وفي قلب طبقتها العاملة." هذا الشعور بالفخر والاستقلالية بدأ يخفت تدريجياً لصالح رؤية عملية واقعية، ترى أن العلاقة مع "الرفاق السوفييت" ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها. ومع زيادة خطر الإخوان المسلمين في العام التالي، ومع إطلاق سراح رفاقنا في 4 شباط/فبراير، ومع توجهنا نحو تقرير آب الذي جعلنا نجمّد شعار إسقاط السلطة ونحوّل البندقية من كتف لكتف، كان الاقتراب من الخط السوفييتي يتعمق لدينا، بجهد خاص ودؤوب من أصلان عبد الكريم. وبينما كان خط تقرير آب يتبلور، صرت أحس بنوع التراخي الداخلي التنظيمي والنفسي يتسلّل إلى عملنا التنظيمي. صار خروجنا العلني أكثر من السابق، حتى ونحن متخفّون وملاحقون.

وبدأنا نعدّ العدّة لعقد مؤتمر للرابطة أو الحزب. وكانت تلك نقطة حاسمة أخرى كانت تجعلني أحس بالغربة عن التنظيم الذي اعتبرت نفسي جزءًا منه وكان هو جزءًا من روحي. ستضاف قضية تحول الرابطة إلى حزب إلى النقاط المفصلية التي كانت تباعد بيني وبين الجسم

الرئيس للتنظيم. النقطة الأولى كانت تحوّل فهمنا لطبيعة الثورة القادمة من ثورة ديمقراطية إلى ثورة اشتراكية. كان فهمنا الأساسي في الحلقات الماركسية وفي الرابطة أن البورجوازية السورية لم تنجح في إتمام ثورتها الديمقراطية، وكنا أقرب إلى فهم إنغلز العجوز في أن من واجب الطبقة العاملة أن تنجز أولاً مهام الثورة الديمقراطية قبل انتقالها إلى الثورة الاشتراكية. وهذا يفرض علينا التحالف مع أطياف من البورجوازية الوطنية. على أنني لا أدري كيف أفقت ذات يوم فوجدت القيادة وقد غيّرت رأيها، وأقرّت أن الثورة القادمة هي ثورة اشتراكية، بمعنى أنها ثورة البروليتاريا السورية لتحقيق الاشتراكية. لم يعنِ الكثير لرفاقنا أن البروليتاريا في سوريا ضعيفة وهشّة ومستلبة، وهي منقسمة بين البعث الحاكم والإسلاميين، ولم يعنِ الكثير لهم أن شركاءهم الفلاحين لا يريدون سوفخوزات اشتراكية، بل يريدون الانتقال إلى المدينة والالتحاق بوظيفة في الجيش أو الأمن أو الإذاعة والتلفزيون.

النقطة الثانية التي كنت أحس بافتراق حولها بيني وبين التنظيم هي إعطاء المرأة دوراً قيادياً في التنظيم. كنت أشعر بنوع من الفصام ونحن نتحدّث عن المساواة التامة بين النساء والرجال، ثمّ أنظر حولي فلا أرى في الهيئة المركزية أي امرأة، ولا أرى رفاقي في الهيئة ولا أنا نفسي أفضل من كثير من الصبايا اللواتي كنّ يسرحن في الشوارع يوزّعن البيانات أو يبحثن عن مشاريع رفاق ورفيقات جدد.

ولكن النقطة الثالثة كانت أكثرها إيلاماً لدي. فكرة الانتقال من الرابطة إلى الحزب طرحها أول مرّة فاتح جاموس، ولم يأخذها في تلك الفترة أحد على محمل الجد. ففي الوقت الذي كان فيه البعض يدعو إلى العودة إلى الحلقات الماركسية، كان فاتح كالعادة يقفز إلى الأمام. كنت أعتقد أن تحول الحلقات إلى رابطة جاءت أساساً بعملية قيصرية، وهي جاءت -باعترافنا- إثر دخول القوات السورية إلى لبنان. وجعلنا ذلك نخسر عدداً

من الحلقات والرفاق. ومع ذلك فإن طرح الرابطة نفسها كـ "فصيل شيوعي" يطمح إلى تشكيل "الحزب الشيوعي في سوريا"، بالحوار مع فصائل ثورية أخرى بينها المكتب السياسي (نواة ذلك الحزب) وقواعد الحزب الشيوعي البكداشي والفصائل الشيوعية اليسارية الصغيرة، خفّف من تخوّفي وتخوّف الرفاق الذين نتشابه في التفكير.

اعتمد فاتح في طرحه على مسائل صحيحة. الفصائل الماركسية الصغيرة، كاتحاد الشغيلة والفصيل الشيوعي، اختفت بعد حملة 1978. المكتب السياسي اختط لنفسه مساراً ابتعد به قليلاً عن الخطاب الماركسي، وهو لا يريد أساساً الحوار معنا، وأما قواعد الحزب الشيوعي البكداشي فلا يبدو أنها تهتم أساساً بفكرة حزب موحد جديد لا يقوده خالد بكداش.

وكنت أدفع برؤية رومانسية أكثر، فرأيت أن "منظمات القاعدة" بقيادة مراد اليوسف وحركة اتحاد الشيوعيين بقيادة يوسف نمر لا تزالان موجودتين على الساحة ويمكن الحوار معهما. وكنت فعلاً على تواصل مع نايف بلّوز المقرّب من يوسف نمر ومع بعض قيادات "منظّمات القاعدة". وبدأت أستشعر تقارباً معهم في كثير من القضايا. وكان لنايف بلّوز بشكل خاص حضور آسر، يتكلّم ببطء، ليتأكد من أن مستمعه يتابعه في كلّ ما يقول، وربما جاء ذلك من وظيفته كأستاذ جامعي، ولكنه حين يناقش في السياسة كان يغضب أحياناً ويتكلّم بعصبية واضحة. لم يكن نايف يقبل مساومة ولا يقف عند حدود وسط. ولم يكن لديه أي أوهام حول طبيعة النظام الدكتاتورية، ولكنه كان يركّز على مسألة أساسية هي التنمية.

"لا تضحكوا على أنفسكم"، قال لي مرّة في بيته، في الطابق الأرضي من بناية أليفة قريبة من برج الروس، تحيط به حديقة صغيرة، "التنمية هي الأساس، من دونها لا يوجد رأسمالية ومن دون الرأسمالية لا يوجد

شيوعية".

كان بيته القريب من باب توما محجّاً لي كلّما أردت أن أستمع إلى نقاش جادّ وعميق، لا يعتبر الشتائم والشعارات سياسةً. مثل أنطون مقدسي، وقبلهما سقراط، كان نايف فيلسوفاً شفوياً، ترك أفكاره بين تلامذته وأصدقائه، ولم يخلّف إلا القليل من النصوص المطبوعة. وكان كريماً معي في فكره كما كانت زوجته الألمانية الراقية كريمة في لطفها وضيافتها. قال لها نايف مرة، وهو يبتسم ابتسامته المحبّبة:

"وائل ملاحق من المخابرات. يريدون أن يسجنوه"، فلم تسمح لي بعدها أن أغادر بيتها من دون أن أتعشّى مع الكأس الذي كان نايف يقدّمه لي. في الثمانينات سيصاب نايف بإحباط كبير حين يطلب منه حافظ الأسد مقابلته، ويجلس معه أربع ساعات. بعدها سيسرّ لأصدقائه قائلاً: " لا أمل في التغيير، لا تغيير في سياسته تجاه الداخل ولا تجاه لبنان ولا تجاه الفلسطينيين." وبعد ذلك سيموت وهو يسبح في بحر اللاذقية، ميتة فيها رمزية ساخرة سوداء.

لم نحمل طرح فاتح محمل الجدّ إذن، وبقي أصلان صامتاً صمتَ أبي الهول. ولكن الأقلية التروتسكية في التنظيم ستروق لها الفكرة، وستبدأ تبشّر بها بين الرفاق. وأصلان الذي كان يعمل على خطّ تقريب وجهة نظر الرابطة من السوفييت، لم يرَ بأساً في مقايضة فاتح بذلك، فصمت فاتح عن التوجه السوفييتي، وصمت أصلان عن تحوّل الرابطة إلى حزب.

بالنسبة لي كانت فكرة تحوّل الرابطة إلى حزب تخلياً عن رومانسية الرابطة ورومانسية الثورة. ما كنت أحبه في الرابطة وشبابها هو حلمهم الدائم: حلم بالثورة والمستقبل والديمقراطية والحرية والمساواة بين الجنسين. ورغم تفاؤلي الثوري، كنت أدرك أننا لن نحقّق الثورة فعلاً،

ولكننا نمشي على الطريق. لم يكن الوصول غايتي وإنما السير نفسه. أحد هذه الأحلام كان تأسيس الحزب الشيوعي السوري الموحد، المستقلّ عن حركة التحرّر الوطني وعن التطوّر اللارأسمالي وعن السوفييت، المرتبط بماركس الشاب وإنغلز الناضج، وليس بستالين وبريجنيف، حزب يحمل طموح غيفارا من دون طفولته، ويحمل عملية لينين من دون صلفه، ويحمل طوباوية تروتسكي من دون دوغمائيته.

وكانت فكرة تحوّلنا إلى حزب هي وأدٌ لذلك كلّه. ولذلك كان قلبي مثقلاً وحزيناً.

"ما بكَ" سألتني غادة في إحدى الأمسيات، وكنا نسترخي بعد عناء يوم طويل على الصوفة الوحيدة في غرفتي في بيت المزّة.

نظرت في عينيها الرماديتين كلون البحر المتوسط الذي قضى فيه أستاذي وصديقي نايف بلوز، وقلت:

"أشعر أن الأرض تميد من تحتي، يا غادة".

فأحاطتني بذراعيها، وقالت:

"تعال ننسَ الأرض إذن."

***

كتبت مرة تعريفاً للسجن: السجن هو انعدام إمكانية الهرب. الحرية أنك تستطيع أن تهرب من أي مكان أو زمان أو شخص لا تريده. تستطيع أن تهجر صاحبتك أو تطلّق امرأتك أو تغادر صفوف حزبك أو تغير عملك. في السجن أنت ببساطة لا تستطيع. زملاؤك مفروضون عليك؛ سجّانك مفروض عليك؛ طعامك مفروض عليك؛ كتابك مفروض عليك؛ عشقك مفروض عليك وذكرياتك مفروضة عليك وأنت ببساطة لا تستطيع أن تهجر أحداً ولا تترك مكاناً ولا تنهي علاقة.

***

ذكريات العالم السفلي

"من وليد ل.؟"

كان ذلك الاسم الذي كنت أستخدمه في البطاقة المزورة. كان الرجل يقف وراء الكنتوار في الأمن العام على الحدود السورية - اللبنانية، يحمل بطاقتي بيده ويتأمل الوجه. خفق قلبي بعنف، واستشعرت كآبة لسماعي رنة الصوت. لم يكن سؤالاً بريئاً. والبطاقة كانت رديئة التزوير.

أنا، قلت بصوت لا يشبه صوتي.

كنا في طريق العودة من بيروت بعد أسبوع أمضيناه في بلدة شحيم في قضاء الشوف بلبنان. لقد عقدنا للتوّ المؤتمر الأول التأسيسي لحزب العمل الشيوعي في ضيافة النائب اللبناني السابق زاهر الخطيب، الذي ألقى في افتتاح المؤتمر كلمة نارية ألهبت أكفّنا ومشاعرنا، أدان فيها النظام الدكتاتوري السوري وسخر من حافظ الأسد، وشجّعنا على مواصلة الكفاح. بعد سنوات سيصبح زاهر الخطيب نفسه أكبر داعية لحافظ الأسد ووريثه في الحكم.

قبل سفري إلى لبنان، مررت إلى بيتنا في حمص، واحتفلت مع أبي وأمي بعيد الفطر، ثم سافرت في اليوم عينه (1981/8/1) إلى دمشق، ومن ثمّ إلى بيروت، ومنها إلى شحيم، لا تزال النسمات المنعشة التي راحت

تهبّ عليّ من نافذة السيارة المفتوحة، ونحن نهرب من حريق بيروت ورطوبتها، مروراً بأجمل البلدات اللبنانية: بعقلين، عينبال، غريفة، حصروت، عانوت، ومرج علي، تنعش ذاكرتي حت اليوم.

ستّة أيام بلياليها أمضيناها في نقاشات حامية مستمرّة. كنا نحو خمسة وثلاثين مندوباً، افترشنا الأرض في شقّة مساحتها مائة متر مربع، نمنا وائتمرنا وأكلنا على الأرض، ولم يكن في الشقة سوى طاولة واحدة وراءها كرسي واحد جلس عليه مدير الجلسة الذي كان يتبدّل من جلسة لأخرى. في اليوم الأخير 6 آب/أغسطس، تمّت انتخابات اللجنة المركزية الجديدة، وفاز فيها خمسة عشر رفيقاً. حللت في المركز 16 أنا ورفيق دربي أحمد رزق بنفس العدد من الأصوات. ولأن أحد الرفاق الذين انتخبوا في اللجنة المركزية كان في المعتقل، فقد انضممت إلى اللجنة المركزية، بعد أن تنازل لي أحمد عن المكان، من دون إعادة انتخابات.

في السيارة من بيروت إلى دمشق، جلسنا، منيف ملحم وحنان وأنا في المقعد الخلفي السيّارة. كانت حنان تجلس بيننا، كما كانت تفعل، رمزياً، خلال عام ونصف كاملين في الحياة.

"شرف لهون!" قال الرجل الضخم الجثة أصلع الشعر ذو الشاربين الكثّين اللذين يشبهان دغلاً. ولم يكن ثمة مجال للمناورة أو الهرب أو التراجع. دخلت إلى داخل الكنتوار، ثم إلى غرفة مكتب مقفلة. نظر إلى رجل يشبه المساعدين الذين سأعرفهم بعد ذلك في السجن. راح الرجل ينظر إلى سحنتي ويتأمل الصورة في الهوية. أخيراً، سألني إن كنت أحمل جوازاً أو رخصة سوق. لم أكن أحمل واحدة بالطبع. فقال لي: "يا حمار، بدك تزور زور منيح." ثم سألني إن كان معي أحد بالسيارة. أجبت بالنفي، على الرغم من أن منيف وحنان كانا في السيارة. أعطى أوامره إلى العملاق الذي أدخلني الغرفة.

"خلّه ينزل حقيبته وعد به إلى هنا." ثم أضاف:

"إذا تحرك رشّه." لم يرشّني. بهدوء أنزلت حقيبتي ببطء لأتأكد من أن منيف وحنان قد رأياني، ثم عدّت. بعد نصف ساعة، دخل أربعة رجال الغرفة. نظر إلى من بدا زعيمهم وسأل: "هذا هو؟" هز العملاق برأسه، فاقتادني الأربعة إلى السيارة. وبدأت رحلة امتدت عشرة أعوام، وانتهت منذ ربع ساعة.

***

امتد الطريق بين الحدود اللبنانية ودمشق طويلاً وثقيلاً. الطريق نفسه، الذي غالباً ما كنت أُفتَن به حين أسافر إلى بيروت أو أعود منها بدا لي معادياً وأنا أجلس في المقعد الخلفي للسيارة بين رجلين ضخمين كانا يدخنان بشراهة. عند مدخل دمشق، عصب أحد الرجلين عيني بما سأعرفه لاحقاً باسم "الطميشة"، وهو اسم سأبدأ به معجماً جديداً للمصطلحات في السجن، مثل العازل والبَلّو والقصعة والسخرة والبخشة. الطميشة قطعة من الكاوتشوك الأسود، مصمّمة لحجب الرؤية لدى السجين لكي لا يرى وجه المحقّق أو الجلّاد. تشبه قناع زورو، ولكن من دون فتحتي الرؤية للعينين، حين تضعها سيمكنك فقط أن ترى موقع قدميك وتستطيع أن تتأمل أحياناً حذاء المحقّق حين يقترب منك ليصفعك. اسودّ الكون من حولي، كحالي حين تنقطع الكهرباء ليلاً فيعمّ الظلام فجأة. أردت أن أحتجّ، ولكن الطريقة العنيفة التي وضع فيها الرجل الطميشة على عيني جعلتني أوثر السلامة. في الطريق من مدخل دمشق إلى حيث يأخذونني، كان سؤال واحد يلحّ عليّ: أخيراً؟ هل وقعت أخيراً؟ أيكون حالي كحال من سبقني من الرفاق: يوسف عبدلكي وعلي الكردي وجمال سعيد وهالة العبد الله؟ أأُعذّب كما عُذّبوا؟ أأُنسى كما نُسوا؟ أتكون هذه آخر عهدي بالحياة والشمس والهواء؟ بغادة وحنان وديانا؟ بجميل وعزام وجبرا وليلى ونجوى وبسام

وفادية؟ بشقّة برج الروس التي شهدت أحلى سهراتنا؟ باجتماعات الرفاق والراية الحمراء والنقاشات حول طبيعة الثورة؟ بفاروق وبرهان وعلي الشهابي؟ بسينما الكندي ومسرح القباني والأمسيات الموسيقية وباخ وشوبان؟

كان خوفي أن أساق إلى فرع أمن الدولة في الخطيب، فيلقاني محمّد ناصيف وتركي علم الدين، اللذان كانا يتحرّقان للقائي. كان معظم الرفاق الذين اعتقلوا في السنوات السابقة يعترفون على الرفاق المطلوبين، لكي لا يكشفوا رفاقاً آخرين ما زالوا مجهولين بالنسبة للأمن. وقد اعترف عليّ عشرات المعتقلين، بعضهم لم أكن حتى أعرفه.

لم يكن ناصيف أو تركي بانتظاري. سلّمتني الثلّة التي أحضرتني من الحدود عند بوابة عملاقة إلى ثلّة أخرى، ساقتني كخروف إلى داخل البناء، وارتقت بي الدرج إلى الطابق الأول، ثم انعطفت بي يساراً، وأدخلتني مكتباً.

"الموقوف سيدي." قال العنصر الذي أدخلني إلى الغرفة.

نظرت إلى الأرض، كانت تحت قدميّ سجّادة نظيفة فاخرة، فأدركت أنني في مكتب رجل مهم.

"أحضر له كرسياً." أمره صوت من الداخل، فترك العنصر ذراعي، وأحضر لي كرسياً معدنياً وضعه في منتصف الغرفة وأجلسني عليه.

"انصرف أنت!" جاء أمرٌ ثانٍ، بصوت بدا مختلفاً عن الأول، فأدركت أن في الغرفة أكثر من شخص.

"شو اسمك؟" جاء السؤال من رجل ثالث، صوت هادئ، واثق وغير انفعالي. أدركت أن السؤال موجّه لي، فأجبت بصوت مرتجف.

"وليد ل."

لم أكن أرى الرجل الواقف أمامي. بدأ عدد من أزواج الأحذية يدور حول كرسي لم أحدد عددها بالضبط. وأخذ العرق اللزج يتسلل من تحت الطميشة، يدخل العينين فيحرقهما.

"شو اسمك؟" كرّر الرجل بصوت أفهمني أنه لم يصدّقني.

"وليد ل." كرّرت، وأحسست باختناق في الحلق، فبدت الكلمات غريبة على مسمعي، وكأن الصوت لشخص آخر.

" ليك ولا." انفجر الرجل الأول بصوت كالرعد، "ما عنا وقت. أنت أخوان، ولا؟"

راعني سؤاله. وأحسست بالخوف والإهانة معاً.

"لا!"

"لكن شو؟"

وصمتّ. كان من المعيب أن أجيب فوراً على أول سؤال يطرحه محقق في فرع للأمن. فجأة انفتح الباب، ودخل زوج جديد من الأحذية، واقترب نحوي ويبدو أنه كان يتأملني عن كثب، ثم فرقعت ضحكة عالية في سماء الغرفة.

" العمى بعيونك. ولك شو جابك لعنا. والله ما بدنا إياك."

ثم خفتت الضحكة وسمعته يقدمني إلى رجل بدا أعلى منه رتبة:

"سيدي. هذا الرفيق وائل السواح."

ساد صمت غريب لوهلة، كأن الموجودين يحاولون أن يتذكروا الاسم.

فتابع الوافد الجديد:

"عضو الهيئة المركزية برابطة العمل، سيدي."

ساد بين الجميع ما يشبه خيبة الأمل وفي الوقت عينه انفراج في التوتّر. سأعرف لاحقاً أنهم كانوا يتوقّعون يومها دخول عدد من قيادات الإخوان بهويات مزوّرة، وحسبوا أنني واحد منهم. انقلبت الجلسة إلى حفلة تنكيت. وقال الرجل الأكثر أهمية بين الرجال في الغرفة:

"ولك ليش مسافر بهوية مزورة. سافر بهويتك، مين بدو إياك؟ ليش بتبلونا بحالكن؟"

استخفّ بي طرب، فقلت محاولاً أن أمازحهم: "إذا ما بدكن إياني خلوني روح." لم أعرف وقتها، ولا أعرف الآن أكانت تلك مشاركة في روح المرح التي سادت الغرفة، أم أنها تعلّة للنفس، ربما أدت إلى إخلاء سبيلي.

على أن المرح سرعان ما اختفى وبدأ الجد.

سأعرف فيما بعد أن الرجل الذي عرفني هو المقدّم -وقتها- كمال يوسف، أما الرجال ثلاثة الآخرون الأعلى رتبة منه فكانا رئيس الفرع العقيد مظهر فارس والعميد الذي كان اسمه يسطع في سماء السلطة، آصف شوكت، وأخيراً -لا أحد آخر سوى- اللواء علي دوبا، رئيس شعبة المخابرات العسكرية. وسأعرف أن حسن الحظّ وحده أوقعني مع المخابرات العسكرية وليس مع مخابرات أمن الدولة. لا تعرف شعبة المخابرات العسكرية الكثير عني، فملفّي موجود لدى أمن الدولة، ومحمد ناصيف لا يشرك في مملكته أحداً. وقد يكون من حسن حظي أيضاً أنني لم أعرف وقتها أن علي دوبا كان موجوداً في الغرفة، لأن ذلك كان سيزيد فقط من رعبي.

كان علي دوبا أحد الأشخاص الذين كان مجرّد ذكر اسمه، إلى جانب رفعت الأسد، يثير رعباً بين السوريين. تسلّم رئاسة المخابرات العسكرية عام 1974، ومنذئذ بات أحد دعامات حكم حافظ الأسد. ستتاح لي رؤيته فيما بعد، كان وجهه وسيماً أقرب إلى الدعة منه إلى الغلظة، أبيض البشرة، بعينين فاتحتين، تنبعث منهما أحياناً سخرية خفيفة. أما مظهر فارس فكان جزاراً حقيقياً بكل ما في الكلمة من معنى. حين سيقرر دوبا بعد ساعة من الحوار تعذيبي، سيتولّى مظهر فارس نفسه دور الجلاد. كان لمظهر فارس هوايتان: التعذيب وزراعة الأزهار. حوّل حديقة فرع التحقيق العسكري إلى ما يشبه الجنّة، وكان يعاقب أي عسكري عنده يقطف زهرة أو يدوس عشبة، ثمّ جاء يوماً بنسر حقيقي، زيّن به حديقته، وكان يطعمه بنفسه كلّ يوم. لا أعرف أسرة مظهر فارس، ولكن لن يفاجئني إن كان في بيته زوجاً مثالياً، يحب زوجته ويدلّل أولاده. ورأيت آصف شوكت بعد ذلك في مكتبه مرتين. لم يخلّف لدي أبداً شعوراً بالكراهية أو الحقد. كان يبدو لي مسالماً، ذكياً، شديد الثقة بالنفس. وحين منعني علي دوبا بعد سنوات السجن العشر من السفر، كان عليّ أن أنتظر وصول آصف شوكت لسدّة رئاسة الشعبة، لكي أحصل على جواز سفر. سيموت آصف شوكت في انفجار خلية الأزمة بعد أوّل لقاء بيننا بإحدى وثلاثين سنة. حين سمعت بخبر التفجير، قلت لزوجتي، وكنا نسمع الخبر سوية: "قتله بشار."

حين عرف الجميع هويتي الحقيقية، بدأ التحقيق يأخذ مساراً آخر. كان علي دوبا الآن يريد شيئاً واحداً؛ رجلاً واحداً: فاتح جاموس.

"نحن لا نريدك. في الحقيقة لا نريد أحداً. ألم نطلق سراح رفاقك السنة الماضية؟" قال لي بإغراء، وتابع: "أريد أن أجلس فقط مع فاتح جاموس ساعة واحدة، يخرج بعدها، وتخرج أنت، ولا تعود تحتاج إلى التخفي وحياة القرباط التي تعيشها."

صمتُ.

"شو؟" سألني.

حاولت أن أحرف النقاش نحو السياسة. ليس سهلاً أن تحاور في السياسة وأنت معصوب العينين، ولكنني حاولت أن أشرح له أن الرابطة غيّرت نهجها في تقرير آب، وأنها لم تعد تريد إسقاط النظام، بل إنها نقلت البندقية من كتف إلى كتف، وهي توجه سلاحها الآن ضدّ الإخوان المسلمين وإرهابهم.

"سيدي،" قال الرجل الآخر الذي سأعرف لاحقاً أنه مظهر فارس، "هادا ما بيمشي معه اللطف."

تجاهله المعلّم، وعاد يحدثني:

"أي بندقية وأي إسقاط سلطة؟ أنتم تستطيعون إسقاطنا؟ أنتم؟"

"أعني أننا جمّدنا شعار إسقاط النظام،" قلت.

فانتفض وسمعته ينهض عن كرسيه بعنف:

"ولك اللي خلقك ما بسقّطنا." صاح بي مقلقلاً القاف بصوت مجلجل. ثمّ هدأ لحظة، واقترب مني وقال:

"ليك وائل. هلق أنا بترك الغرفة وبيجيك مساعد ما بيعرف ربّه." كان تهديداً واضحاً، لا لبس فيه.

"بتجبلنا فاتح، بتنام الليلة ببيتك."

حسبت الوقت. ما بين التوقيف على الحدود ومسافة الطريق والزمن الذي مرّ ههنا، كانت قد مرّت ستّ ساعات على الأقل. كان العرف بين

أعضاء لجنة العمل أن يمنح المعتقل الرفاق في الخارج ستّ ساعات عليه أن يصمد خلالها، ثمّ يحقّ له أن يعترف على بيته أو بيت المنظّمة. خلال هذه الساعات ينبغي على الرفاق إخلاء البيت من الأشخاص والوثائق ونقلها على مكان آخر لا يعرفه الرفيق المعتقل.

"يا ريت بعرف وينه."

"ولك أنت عضو بالقيادة ولا خْروق؟"

صمتتُّ. فنهض غاضباً، وصاح بغضب: "اصطفل!" ثمّ سار إلى الباب خابطاً الأرض بقدميه، راقبت حذاءه يمشي صوب الباب. سمعت الباب يفتح ثم يغلق، ولكن الحذاء لم يغادر الغرفة. وصاح بي صوت:

"بدك تعترف ولا لأ يا حيوان؟"

وبدأت حفلة السمر.

***

منفردة 37

البطولة شرف لا أدعيه. كنت أتألّم لا كما يتألّم الأبطال. مع كلّ مرّة كان الكابل الرباعي يهوي على قدمي، كان قلبي يهوي إلى القاع، ثمّ يبحث عن قاع آخر يهوي إليه. قال لي أحد الرفاق، "إذا اعتقلت، تحت التعذيب تذكّر أحداً تحبّه كثيراً. سيخفف ذلك مت أثر التعذيب." تذكّرت كلّ من أحب، واحداً، واحداً، ولكن أثر الكابل الهاوي على قدمي لم يخفّ. تذكرت القضية الكبرى. سوريا، الثورة، الطبقة العاملة، أمي، أختي مها، غادة. تذكرتهم جميعاً؛ أحضرت صورهم إلى عيني المغلقتين تحت الطميشة من الرعب والألم، ولكن الصور كانت تفرّ مني خائفة هي الأخرى، فأبقى وحيداً بين عصبة من المهووسين المتعصّبين الذين يعتقدون أنهم كلّما شدّوا من عزم الجلدة، خدموا البلد والقائد والحزب أكثر.

بعد منتصف الليل اعترفت على البيت الذي كنت أسكنه، في المزّة جبل.

حين قلت لهم إنني سأدلهم على فاتح جاموس، توقفت الحفلة فوراً. خلعوا عني دولاب السيارة الذي كانوا ألبسوني إياه كسروال داخلي، وصاح بي كبيرهم أن أنهض. حاولت، فلم أفلح. هويت على الأرض ثانية.

"جيبوه!" قال الكبير، فحملني اثنان من إبطيّ وجرّاني إلى الخارج: أنزلاني الدرج، ثم إلى الخارج. كانت الساعات الأولى من فجر 9 آب/أغسطس

قد أهلّت، حاملة معها بعض النسمات المنعشة التي خفّفت قليلاً من خوفي ووحشتي. وضعوني في سيارة، ورفعوا الطماشة عن عيني بعد أن ابتعدنا قليلاً عن الفرع. أدهشتني رؤية الأشياء. العسكر من حولي كانوا يدخنون، فأخذت أتأمل دوائر الدخّان التي كانت تنبعث شفاههم، وتهرب من شبابيك السيارة المفتوحة. في الخارج، كانت أعمدة الكهرباء والأشجار تركض مبتعدة إلى الخلف بسرعة، والسيارة تنهب الطريق نهباً. وصلت السيارة إلى آخر خطّ المزة جبل، وانعطفت يساراً باتجاه مستشفى الأسدي حيث أرشدتهم.

"البناية الثانية، الشقّة الأرضية." قلت لهم. توقفت السيارة، وانتبهت أن سيارة ثانية كانت تسير وراءنا توقفت أيضاً. ثمانية رجال أشداء تنبعث منهم رائحة عرق ودخان نزلوا من السيارتين، أعطيتهم مفاتيح الشقّة وأنا أصلي لكلّ آلهة الجحيم أن تكون الشقّة فارغة. كنت آمل أن يكون منيف وحنان قد أبلغا فاديا والجميع باعتقالي، كما ينبغي.

كانت الشقّة فارغة من البشر. ولكنّها لم تكن فارغة من كتبي وأوراقي وصوري.

"أين هم؟" سألني من سأعرف لاحقاً اسمه: يوسف العبدو، أحد أكثر ضباط الفرع رعباً وهولاً.

"عم تضحك علينا، يا –" لم يكمل شتيمته. سأدرك لاحقاً أن تعليماته لم تكن تسمح له بأكثر من ذلك. بعد سنوات سيصبح يوسف العبدو جلاد فرع المخابرات العسكرية في بلدة عنجر اللبنانية قرب الحدود السورية، وسيكون مجرّد ذكر اسمه كافياً لإثارة الرعب لدى عملاء حافظ السد في لبنان قبل معارضيه.

قشطوا كلّ شيء؛ كلّ شي: الأوراق والدفاتر والكتب الصور. حين اعترفت على بيتي لم أكن أعلم أنهم سيسرقون ذاكرتي. ولكنّ هذا بالضبط ما

حدث. عدنا إلى الفرع مرّة ثانية. عادت الطميشة لتعصب عيني، وعاد التحقيق مرّة ثانية. يبدو أن الضباط الكبار قد آووا إلى عشيقاتهم، لأنني كنت في غرفة أخرى، لم يكن فيها سجّاد ولا كراسي من خشب. بدأ محققون صغار يتذاكون معي، يريدون أن يثبتوا لرؤسائهم أنهم جديرون بوظيفتهم.

ورقة صغيرة عثروا عليها في البيت ستغير مجرى التحقيق مؤقتاً.

"اشرح لنا الشيفرة،" قال أحد المحققين الصغار.

ودسّ تحت الطميشة مباشرة قصاصة ورق صغيرة، كتب عليها عبارة "دجاج هذا الزمان مربع". الورقة كان صديقي جبرائيل غربي قد تركها على الباب. في عالم ما قبل الهاتف المحمول، وما قبل الهاتف الأرضي بالنسبة لنا، كان صديقك يمرّ بك من دون سابق إخطار، فإن لم يجدك سيترك ورقة صغيرة تقول: "حضرت ولم أجدك." بدل هذه العبارة، اختار جبرا عنوان قصيدة كانت شائعة: "دجاج هذا الزمان مربع". كان العنوان إشارة إلى أقراص ماجي المربعة المصنوعة من مرق الدجاج.

"شو معنى هالحكي؟"

انطلقت من شفتي ضحكة صغيرة عبرت الألم والخوف والترقب.

"عم تضحكك ولا؟"

حاولت أن أشرح له القصة، ولكن كلامي كان بالنسبة إليه كالطلاسم. شعر ودجاج ومربعات وماجي. كانت الجولة الثانية من التعذيب بلا معنى، فالورقة لم يكن فيها سر ولا شيفرة. وأنا لا أستطيع أن أوقف التعذيب باعتراف، لأنهم لم يكن لديّ واحد. سيعذبني الجلادون الصغار حتى يحين موعد نومهم أو ذهابهم إلى بيوتهم أو طاولة الطرنيب

التي تنتظرهم.

فجأة توقف كلّ شي.

"قم!" أمرني صوت أسمعه لأول مرّة. نهضت، وقادني من ذراعي إلى الردهة، فتح باباً وبدأنا نهبط درجاً طويلاً جداً. في نهاية الدرج، سمعت قرقعة مفتاح يدخل في قفل حديدي، ثمّ قرقعة باب حديدي يفتح، شدني الرجل من ذراعي، فسرت معه وراء الباب، وسمعت الباب يقفل عليّ من جديد.

"شيل الطمّاشة،" سمعت صوتاً يقول. تردّدت، وسألت بصوت واهن:

"أنا."

"إي انت. مانك متسمع؟"

"أسمعُ، بلى!" رفعت يدي أريد أن أزيل قطعة الكاوتشوك الأسود الكريهة، ولكن يديّ هبطتا. كان ثمة دمع في عيني، ربما لم أشأ أن يروه.

شعرت بيد تمتدّ صوب رأسي وتزيل الطماشة بقوة. ردهات وممرات وأبواب حديدية كانت تحيط بي من كلّ جانب. جدران وأبواب وبلاط. أمامي مكتب ضيق فيه طاولة معدنية وكرسي معدني، وجلس وراءه رجل معدني له صوت معدني.

"فضي جيوبك." قال بصوت محايد. لم يكن عدائياً. بدا لي كأي موظف في البريد أو السجل المدني، يؤدي عمله بحياد. أفرغت جيوبي: حافظة نقود فيها ثلاثين ليرة، ساعة يد من نوع رادو أهدتها لي فاديا بعد أن كسرت ساعتي حين صدمتني قبل ثلاث سنوات سيارة عابرة، سلسلة مفاتيح فيها مفتاح واحد، علبة سجائر جيتان قصيرة من دون فلتر،

وقداحة. وضع الرجل أشيائي في مغلف، ورمى المغلف في خزانة، وقفل عليها. شعرت بغصة في حلقي، وأنا أرى أشيائي تختفي في خزانة مهملة. نادى الرجل وراء الطاولة على مرافقي، وقال له: "ع الـ 37".

شدني مرافقي مرة أخرى، وسار بي نحو عشرين متراً، دخل بي في ردهة أخرى، فيها غرف مغلقة بأبواب حديدية على اليسار وممرات على اليمين. دلفنا الممرّ الأول، وتوقفنا عند الباب الثالث والأخير. رأيت الرقم على الباب. 37. أخرج الرجل حلقة مفاتيح ضخمة، واختار منها واحداً، أدخله في القفل، قرقع الباب وفتح.

"ادخل!" قال لي آمراً. ودخلت. أقفل الباب عليّ. طيق. طيق. طق. طق. ودخلت في عالم آخر.

***

حين كسر جدّي الجرّة

حين انصفق باب الزنزانة الحديدي ورائي، وراح السجان يطق بمفتاحه القفل: طق، طق، طق، أحسست أن كل شيء قد انتهى. تأملت الغرفة الضيقة المقيتة. كانت صندوقاً مكعباً، طوله وعرضه وارتفاعه مائة وتسعون سنتيمتراً. ولم يكن له نافذة للتهوية. كان الهواء يأتي من خلال جهاز يسحب الهواء الفاسد ويدخل هواء أقل فساداً. على امتداد نصف الزنزانة تمدد عازل وبضع بطانيات. وفي الزاوية المقابلة للفراش كان ثمة قصعتان فارغتان. ماذا يفعل المرء إذ ذاك؟ حين يشعر أن العالم كله قد صار وراءه: أمّه وامرأته وأصدقاءه ومقهى الروضة وسناك أمية وحديقة المنشية والتكية السليمانية ودمشق القديمة والنوفرة والرفاق والصبايا الحسان وحلم تغيير العالم وإحقاق الحق والحزب الثوري ودكتاتورية البروليتاريا والأمسيات الأدبية والمعارض الفنية والعروض المسرحية والموسيقى الكلاسيكية. ماذا يفعل المرء وقتذاك؟ يصلّي لإله هجره منذ زمن سحيق؟ يستحضر امرأة ويضاجعها؟ أم يفعل الاثنتين معاً؟

الهواء ثقيل. يلج رئتي بصعوبة. أبذل جهداً أكبر لأساعده على النزول إلى أسفل رئتي. في الخارج هدوء قاتل. الليل في ساعاته الأخيرة، والسجانون أيضاً يريدون أن يناموا ويحلموا بنسائهم أو بنساء جيرانهم. ما الذي تفعله أمي الآن؟ هي على الأرجح نائمة، بينما أبي قد استفاق لتوّه، ليتوضّأ ويذهب ليصّي الفجر في الجامع القريب. هل استشعر ضيقاً حين

اعتقلت، كما استشعر جدّي الأكبر ضيقاً قبل قرون. حكى لي أبي هذه الحكاية حين ألمّ بي ذات يوم مرض أقعدني في البيت ومنعني من الذهاب إلى المدرسة. في ليلة أفاق جدّي الأكبر ضيّق النفس ملهوفاً، وأيقظ جدّتي الكبرى:

"يا فاطمة!" ناداها. "اكسري الجرّة."

أفاقت فاطمة مرعوبة، ولم تفهم.

"ماذا تريد؟"

"اكسري الجرّة!"

لم تفهم فاطمة، وحاولت أن تحتجّ. لم تكسر الجرّة وليس لديهما سواها؟ ولكن جدّي أصر. فقامت إلى الجرّة وكسرتها، واندلق الماء منها على الأرض كجدول. ودمدم جدّي "يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم." ستفهم فاطمة لاحقاً. على بعد مئات الأميال، كان ابنهما المسافر يقيم في نزل، اندلع فيه حريق، اقترب من الغرفة التي يقيم فيها، ولكن ماء الجرّة جرى حتى وصل النار فأطفأها.

"أبي، هل يمكن للماء أن يسيل من مدينة إلى مدينة؟"

نظر أبي إليّ بعينيه الجميلتين، ومدّ يده يخلخل بها خصلات شعري، وقال:

"ليس الماء، ولكنه الحب."

بدأت في الخارج ضجّة خفيفة سرعان ما ازدادت. أشياء معدنية يقرقع بعضها مع بعض. أصوات تصيح آمرة، وخطوات مستعجلة، وأشياء ثقيلة توضع على الأرض بعنف. ثمّ أبواب تفتح بعنف، يدخل المفتاح

في القفل. يطقطق بضع مرّات. يفتح الباب، هرولة خطوات، ثمّ يغلق من جديد، ويطقطق المفتاح.

اقتربت الخطوات والأصوات الآمرة والقرقعة من زنزانتي. دخل القفل في المفتاح. طق.. طق.. طق. فتح الباب وأطل السجان الذي أدخلني قبل ساعات.

"فوّت أكلك." قال آمراً. على الأرض كان ثمّة قصعتان صغيرتان. واحدة فيها شاي علته طبقة من دهن، وفي الثانية قليل من اللبنة، وعلى الأرض رغيفان عسكريان منفوخان، سمراوان فوقهما دقيق أبيض. أدخلت كلّ شيء بسرعة. كان مرّ يوم كامل لم أذق فيه لقمة واحدة. ولكنني لم أكن جائعاً. قربت قصعة الشاي من فمي ورشفت رشفة صغيرة. كان ماسخاً وقليل السكر. ولكن الخبز كان شهياً، طازجاً، مغرياً، كسرت الرغيف بيدي وبدأت آلوك منه لقيمات صغيرة.

لم أكد آكل بضع لقيمات حتى فتح الباب من جديد. إنه دور الحمّام.

يمكنك في فرع التحقيق العسكري أن تذهب إلى الحمام ثلاث مرات في اليوم. يفتح السجان الباب ويتنحى قليلاً مفسحاً لك في المجال لتهرع إلى المرحاض فتفرغ مثانتك الممتلئة حتى الانفجار أو أمعاءك المتصارعة. وتتوقف الأمور على الحظ. حبيب عاقل يبدأ منذ لحظة فتح الباب بالعد من واحد إلى عشرة. مع كل رقم يهوي بسوطه (الكابل الكهربائي الرباعي) على الجدار الملاصق لك، وعليك أن تنجز في الفترة التي يعدّ فيها إلى عشرة أن تفرغ بطنك ومثانتك وتغسل قصعاتك ويديك ووجهك وتركض رملاً عائداً إلى زنزانتك، وإلا فإن الكابل سيهوي فوق جزء ما من جسدك، قد يكون رأسك أو صدرك أو ظهرك. التبول والتغوط وغسيل القصعات والوجه واليدين (والوضوء إذا كنت متديناً)

وملء قصعة الشرب تتم جميعها في المرحاض نفسه. في الخارج ثمة

مغسلتان لا يجوز لك استعمالهما، ويضاف حلم شرب ماء نظيف من صنبور نظيف إلى أحلامك المؤجلة. سمير يسمح لك بوقت أطول، وربما تغاضى قليلاً عنك إذا رفعت عينيك عن الأرض أو إذا تباطأت في السير عائداً إلى زنزانتك. بعد الخروج إلى الحمام تشعر بالنشاط والانتعاش، وتروح تسير في زنزانتك متذكراً برودة الماء المنصب على وجهك ويديك. تشرب من القصعة ماء بارداً، تحتسيه بروية كآخر كأس من الخمر لديك في هزيع أخير من الليل، لا تريد لها أن تنفد فكل الخمارات مغلقة ولن تجد من يبيعك زجاجة أو كأساً أخرى.

حين عدت إلى الزنزانة، كنت أكثر انتعاشاً. الماء البارد الذي رشقته على وجهي أعاد لي بعضاً من الروح، ولكن رجلي الملتهبتين من الجلد لا تزالان تئنّان تحت ثقلي.

سمعت في الخارج صوتاً يصيح: "جيب الـ 37". إنه أنا. وقع أقدام. الباب يفتح، ويأخذني العسكري إلى التحقيق من جديد.

***

دانتي وسارتر وأنا

في اليوم الرابع توقّف التعذيب نهائياً. واختفى مظهر فارس ويوسف العبدو من المشهد. بدل الرجلين كان المقدّم -وقتها- كمال يوسف هو من تولّى التحقيق معي. على مدى أسبوع كان كمال يوسف يستدعيني للتحقيق، ولكن من دون طميشة أو دولاب أو إهانة. وكنت أحوّل التحقيق في الأغلب إلى حوار سياسي، وكان يصغي، بانتباه، إلى رؤيتنا للأمور في وقتها: ويقاطعني أحياناً ليسأل عن نقطة ما. أكثر ما ارتجّ عليه كان مصطلح "البورجوازية البيروقراطية" الذي استغرقني نحو نصف ساعة لأشرحه له.

بعد نحو ساعة، كنت أعود من جديد إلى زنزانتي، أصاحب الوحدة والقلق والترقّب. كنت أمضي معظم الوقت أسير بخوات قصيرة في طول الزنانة التي كانت أقلّ من مترين بقليل. أربع خطوات صغيرة متقاربة، أصطدم بعدها بالحائط، فأستدير وأسير عائداً أربع خطوات أخرى.

العالم الخارجي يغدو باهتاً الآن، كفيلم بالأسود والأبيض، بعيداً، متعالياً، وغير حقيقي أحياناً. الصباح موجع دائماً. لحظة تفتح عينيك، فتعيد اكتشاف أنك في الزنزانة. لا مشاريع اليوم ولا لقاءات ولا مواعيد. لا مقال تكتبه للراية الحمراء، ولا مشاريع لسهرة مع الأصدقاء في شقّة برج الروس، ولا مواعيد مع غادة، المرأة التي أحبتني كما لم تفعل امرأة قبلها

قط.

الزنزانة تضيق أحياناً حتى تطبق على الصدر وتتسع أحياناً أخرى حتى تسع العالم. تضيق خاصة عندما يصبح الحكي ضرورة لك لتتوازن مع نفسك، مع ماضيك وصورتك أمام الآخرين. يصبح الحكي هاجساً. تروح تحكي لنفسك، مع نفسك، تتخيل آخراً وتحكي له. يروح أحمد جمول بعيداً فتحاور جميل عن آخر قصة كتبها، أو تستمع مع عزّام إلى رحمانينوف، أو تستمتع بذلك الحوار العميق الصامت مع جبرا. وحين لا تجد أحداً، تحضر اجتماعاً في لجنة العمل، تحاور رفيقاً تأخر عن موعده في الزقاق المتفرع من شارع باب توما صوب الحديقة المختبئة بسكون هناك. تأخره أثار فيك قلقاً خفياً سرعان ما زال حين رأيته. تسيران معاً في الحديقة وتتحدثان عن آخر المعتقلين وآخر المداهمات وآخر الأخبار المتسربة من الداخل وآخر الشهداء وآخر الأنبياء وآخر النساء. وتبتسمان. تشدان على الأيدي بقوة. تريد أن تبث الثقة في نفسه فيبثها فيك. يستدير ويتركك مبتعداً. تتأمل أشجار الحديقة وأزهارها وعصافيرها والمتنزهين. تختفي الأشياء كلها وتدور بك حيطان المنفردة من جديد، فتؤلّف قصيدة تعتب بها امرأة ما:

سأحكي لسنبلة هاجسي

وأبكي لديها

وأحمل داخل صدري قتيلاً

يحن إليها

وأعتب حين يجيء المساء

فأبقى وحيداً، أسامر هذا الجدار العجوز

وأزعل منكِ

أقول: انشغلتِ إلى ذلك الحد

لا ترسلين خيالاً أنيساً

وطيفاً يسامر هذا السجين

ولا ماء عندي فأسكر أحسب أني انتشيت

ولا شيء أفعل غير المسير

أسير، أسير

دانتي كتب على باب الجحيم " عن كل أمل تخلَّ أيها الداخل هذا المكان." دانتي لم يختبر السجن ولم يتخيله. هو تخيل الجحيم وحشر فيه آلافاً من البشر الذين لا يتفقون معه. على أن تصويره للجحيم ينطبق بجزء كبير منه على السجن. عن كل أمل تخلَّ! تلك هي كلمة السرّ في عالم السجن. دوستويفسكي عاش الحبس، وكاد أن يصل إلى حبل المشنقة. وهو أيضاً صوّر السجن باعتباره منزلاً للموتى. شريف حتاتة وعبد الرحمن منيف صورا المجموعة في السجن: قهرها وعذابها وسادية السجان.

بالنسبة إلي، السجن عمل فردي بامتياز. تدخله بإرادتك الفردية، ويمكنك أحياناً أن تخرج منه بإرادتك الفردية. إذا قارنتُ مرحلة التعذيب الجسدي بما تعرض له آخرون، بدا تعذيبي مداعبة. ربما كان ذلك ما يدفعني لأن أتحدث عن السجن كعلاقة فردية بالآخر. في كتابه "الأبواب الموصدة،" يصور سارتر الجحيم كغرفة تحتوي على كراسي وفوتيلات وطاولة وسط. لا نار ولا أجهزة تعذيب. يدخل الغرفة ثلاثة أشخاص. يبدون استخفافهم من هذا الجحيم الذي لا تعذيب فيه.

ولكنهم بعد فترة، حين يوقنون أنهم خالدون في هذه الغرفة، لا شيء يحدث ولا أحد يجيء، يحاولون قتل أحدهم الآخر ويحاولون الانتحار، ولكن: هيهات. إنه الجحيم. لا مفر: لا مهرب منه. وإذن، فجحيم سارتر هو الآخرون. لا أدري إلى أي حد تأثرت بسارتر، عندما كتبت قصة عن السجن. غرفة منعزلة أغرب ما فيها أن بابها يمكن فتحه، ولا أحد يحرسك أو يراقبك ألّا تهرب. ولكنك عاجز عن الهرب. يحاول البطل فتح باب الغرفة، يخرج، يسير بضعة أمتار. تحيط به العتمة واللامكان. وسرعان ما يعود مسرعاً إلى رفيقيه الذين لا يحتمل وجودهما ولا يستطيع فراقهما. ثلاثة رجال ملعونون يمضون النهار بلعب الشطرنج وطاولة الزهر وقراءة الصحف القديمة وملاحقة بعضهم بعضاً ومحاولة الهروب من بعضهم البعض، وفي الليل، تأتي الأحلام. كل الأحلام التي حلمتها في السجن كانت أحداثها تجري في مسقط رأسي حمص. كأنني ألوذ من الوجع إلى حضن أمي تحكي لي عن جدّي، أبيها، الذي أراد أن يقوص المؤذن عند أذان الفجر لقباحة صوته أو إلى راحة والدي يمررها متخللاً بأصابعه شعرات رأسي أو يمدها على جبيني أيان يكون بي مرض أو سقام.

المشكلة أن الوحدة أيضاً جحيم. في الزنزانة، لا ينفك هاجس الانتحار يراودك. قالوا لي: "فكر بشخص تحبه إن أوحشك المكان أو اشتد بك التعذيب. تذكرّت كل من أحببت، ولكن الإحساس بالعزلة كان يزيد حدة ونفوراً. كنت متأكداً من حبهم لي ولكنني كنت أعرف أنهم سيتابعون حياتهم بعد حصة من الوقت، وسيتذكرونني في حفلاتهم فيرفعون نخب المناضل القابع في السجن ثم يتابعون غزلهم وغناءهم ونضالهم: وتصدح أصواتهم بأغنيات فيروز وزياد ومارسيل والشيخ إمام.

وأفضل من كل ذلك كان بعوضة ضلّت طريقها فوجدت نفسها محبوسة في زنزانتي. كان فرحي بها غامراً ورحت أراقبها تنتقل من جدار

إلى جدار بفرح حسي غريب. كانت ككلب تدلله سيدة عجوز تعيش وحيدة في الشارع الثالث والأربعين من شوارع نيويورك. ورحت أفكر في تأمين غذاء لها. وحين أدركتُ أن غذاءها الوحيد سيكون دمي لم أتردد في تقديمه لها. لم أشاهدها ترتوي منه، ولكن في الليل حين يهدأ ضجيج القصعات وأوعية الخدمة وأصوات السخرة والسجانين وصرخات المساجين، في الليل حين يهدأ الجميع ويهجعون باستثناء الذين تنزّ جروحهم أو يمضون الليل وقوفاً ويمناهم معلقة بسقف المنفردة، في الليل حين يأتي الحلم فيداعب القلب والرئتين وخصلات الشعر، فأجدني أحتسي القهوة في الإيتوال وأدخن سيجارة الجيتان من دون فلتر وأنظّر في السياسة والتاريخ والأيديولوجيا وفينومينولوجيا الأديان، يهدأ الاضطرام العاصف الفاجر الذي يفترسني طيلة النهار ويمتد الخدر على كامل مساحة الجسد، وتروح نسمات نيسانية تأتي من ناحية القلب فترسل على العقل سكوناً وسلاماً، عندها، ربما تسللت بعوضتي المدللة إلى مائدة شراييني وراحت تغب من السائل الأحمر القاني الذي يشبه نبيذ بوردو المعتق. وما كنت لأرّدها عما هي فيه لو أنني انتبهت من منامتي، ولكنني لم أفق ليلتها. في الليالي أنام بعمق، وحين يأتي الصباح وتبدأ ضجة السخرة وصيحات السجانين الآمرة وقرع المفاتيح العملاقة على الأبواب الحديدية، أفزع من المنام كالملدوغ، وتبدأ الكآبة تمد ذراعها على مساحة العقل، ويتوتر الجسد وتنشد الأعصاب وينمو التوتر والترقب. طق. طق. طق. طق. ينفتح الباب. أخرج قصعتيّ فارغتين ثم أستعيدهما مليئتين بالشاي الفاتر الماسخ الدلع وقليل من اللبنة ورغيفين منفوخين طازجين هما زادي لليوم كله، ولسنوات عشرٍ ستلي ذلك.

***

حين خسرت اليقين

مهما قلنا في السجن يظلّ السجن أسوأ من القول. ومع ذلك، لا بدّ أن نفي السجن حقّه من بعض الجوانب. إذا تناسينا للحظةٍ التحقيقَ وآلامه، والأشهر الأولى من تدمر وسنوات فرع التحقيق التي كان لواحدنا فيها مساحة تكفي فقط للنوم كالسيف على جنب واحد طيلة الليل، فإن للسجن بعض الحسنات. في السجن تشعر بأنك حرّ في التفكير والقول والفعل، وفي السجن عقدنا ندوات وخضنا نقاشات كنّا نخشى أن نعقدها في الخارج. ولكن في السجن أيضاً وقت طويل، طويل، للتفكير والتأمّل وإعادة التقييم. ستمرّ علينا شهور وسنوات يكون لدينا من الكتب أكثر مما نستطيع أن نقرأ. وفي السجن سنعرف أن كارل ماركس كان فيلسوفاً عظيماً، ولكن الفلسفة لم تتوقّف عنده، وأن لينين وتروتسكي وروزا لوكسمبورغ كانوا ثوّاراً أمجاداً، ولكن الثورة لم تتوقّف عندهم. بل سيتاح لنا أن نسأل بعمق: ما الثورة؟ ولماذا؟ وكم من الدماء يجب أن تجري من أجل التغيير. سنتعلّم الفلسفة ليس كما وردت في كتيبات "المادية الجدلية"، بل من مؤلّفات الفلاسفة أنفسهم، وسنتعرّف على ميشيل فوكو وكيركغارد وهايدغر وهنري لوفيفر، وسنتعلّم أن نيتشه ليس شرّاً مطلقاً، وأن المثالية لا تعني التخلّف الفكري بالضرورة وأن المادية لا تعي التقدّم الفكري في الضرورة. سندرك أن ستالين كان أسوأ من كلّ ما قلنا عنه أو تخيّلناه. سنعيد الاعتبار

للمارقين والمهرطقين من أمثال روجيه غارودي وفيلهلم رايش ولويس التوسير. ثمّ سوف ندرّب أنفسنا على تقبّل مفاهيم مثل الجنسانية والجنون والمثلية.

أهم من ذلك كلّه سوف نعيد الاعتبار لمفهومٍ احتقرته الماركسية اللينينية كثيراً: الديمقراطية. كان أسوأ ما ابتكره لينين في تطويره للماركسية مفهوم الدور المركزي للحزب العصبوي المتماسك تماسكاً حديدياً في الثورة. منذ صدور كتاب لينين «ما العمل؟» عام 1902 الذي تحول إلى إنجيل للشيوعيين في العالم، أخذت نظرية لينين عن الحزب الثوري تتكامل. لا ينبغي أن يعتمد الحزب على الكم، على الحجم، بل على "دزينة من الواعين الثوريين المحترفين" الذين يبنون علاقات جيدة مع العمال ويقودون -معهم- الثورة. ففي ظل الدولة الأوتوقراطية، "كلما كان الأعضاء مرتبطين بالنشاط الثوري بشكل محترف ومدرَّبين باحترافية على فن مراوغة البوليس السياسي، كان من الصعب الإجهاز على المنظمة". سوف يراوغ لينين ومن بعده قادة الحركة الشيوعية العالمية مفهوم الديمقراطية ويلتفّون عليه بمفاهيم تفرغه من مضمونه، مثل الديمقراطية-الثورية والديمقراطية الاشتراكية والمركزية الديمقراطية. في السجن سنجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام الديمقراطية العارية، الديمقراطية غير المقنّعة، الديمقراطية كما هي.

قد يبدو بديهياً اليوم أن ننادي بالديمقراطية، بل إن المفهوم قد استُخدم إلى حدّ الابتذال. أما في تلك الأيام، فالديمقراطية كانت مكافئاً للبورجوازية التي هي بحدّ ذاتها تهمة لأي ماركسي. وثمّة من سيساعدني في مواجهة نفسي وتقبّل هذا الأمر بشجاعة. كان سالم قدّاح رجلاً شجاعاً بكل ما للكلمة من معنى، اعتقل سنة 1980 مع من اعتقل من قيادات الحزب الشيوعي – المكتب السياسي، وكان من القلّة الذين كان بإمكانهم أن يواجهوا زعيم الحزب رياض الترك. لا أدري كيف بدأ هو

يتحوّل من الفكر الشمولي إلى تقبّل الآخر، ولكنني أذكر جلساتي معه، حين أجلس جواره، في ضيافته، ثمّ نتحدّث بصوت خافت. لم يكن سالم يغادر عازله قطّ، يهتمّ بنظافته وترتيب عازله، يقرأ باعتدال ويتحرّك باعتدال ويتكلّم باعتدال. وبسبب تقدمه في العمر أعفيناه من خدمة السخرة الجماعية، فكان لا يبارح مكانه، وغالباً ما نأتي نحن إليه نسامره ونتعلّم منه. وعلى عازله علّم الرفاق اللغة الإنكليزية، وبين من تعلّم على يديه من أصبح اليوم مترجماً محترفاً.

وحين بعد سنوات سيسقط جدار برلين، ويأتي الزعيم السوفياتي غورباتشوف بفكرة البيريسترويكا، سينقسم جناحنا في سجن صيدنايا بين متحمّس للتغيير ومناهض له وسترتفع أصواتنا في مناقشات وجدالات حادة، ستكرّر من جديد مع حرب تحرير الكويت، حيث انقسمنا أيضاً بين من يؤيّد الحرب ضدّ الطاغية ومن يعارضها بقوة الإيديولوجيا القديمة نفسها. أما سالم قدّاح فكان يجلس على عازله، يضع أذنه فوق الراديو الترانزستور ويسمع إلى سقوط جدار برلين بفرح طفولي كبير.

لم تكن فكرة الحريات الفردية وحرية التعبير والديمقراطية غريبة عليّ. كانت إحدى أهم نقاط الخلاف بيني وبين قيادة التنظيم قبل الاعتقال، آرائي التي كان البعض يراها متحرّرة زيادة عن اللزوم وأيضاً "بورجوازية". ولكن قراءة الفلاسفة وعلماء الاجتماع الحداثيين ستساعدني على أن أبصر الطريق قدّامي بشكل أوضح. شخصان سيلعبان دوراً في تحديد مساري السياسي النهائي: ماكس فيبر وحنا أرندت. من فيبر تعلّمتُ أن لبّ مفهوم الديمقراطيّة كونها وسيلة لاختيار أصحاب القرار، مع ضرورة وضع قيود ثقيلة تخفّف من تجاوزات أصحاب القرار هؤلاء، وتعلّمت أهمية الحرّية الفردية في حقبة عاشت تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسيّة هدّدت جوهر الثقافة السياسيّة الليبراليّة. وحين كان فيبر

يجنح قليلاً صوب تمجيد الدولة ومديح البيروقراطية، كانت أرندت تردّني صوب الاعتدال وتحذّرني من قدرة القادة السلطويين على التلاعب بعدد أكبر من الناس ونشر أكاذيبهم على نطاق أكبر، وهي جعلتني أقدّر الثورة الأمريكية (1776) وأنظر إلى الثورات ضدّ الستالينية كثورة المجر 1956 بعين مختلفة.

المشكلة أن القراءة الجديدة حرمتني من النوم. فتحت عينيّ على أسئلة لم أكن أسألها، وسرقت مني سرّ الراحة المطلقة: اليقين. عرفت اليقين مرّتين في حياتي. الأولى حين كنت أختلف وأنا ولد إلى جامع حارتنا في مدينة حمص بعد العصر، فتلفحني سكينة وطمأنينة لا عهدي لي بهما، وتجتاحني لذّة غريبة تكاد تكون شبقاً. أجلس في حلقة الذكر مع حفنة من الرجال، نتلو القرآن ونذكر الله إلى أن تحين صلاة المغرب. لكم كنت أودّ لو أن جلسة العصر تلك تمتدّ إلى الأبد، تمتدّ وتمتدّ فلا تبدو لها نهاية ولا غاية. وحين يدخل شيخ عبد العزيز عيون السود الجامعَ بلحيته البيضاء، كنت أتأمله بانخطاف صوفي، وأحياناً يحلو لي أن أتخيل الله مثله، بلحية بيضاء وقامة قصيرة ووجه منير. ثمّ فقدت كلّ شيء. أفقت ذات صباح، فلم أجد الله في قلبي، غابت صورته كما تغيب الشمس في الأفق مساء، ولكن من دون أن تعود في الصباح التالي. ثمّ وجدتني أميل نحو الماركسية حتى عمّر قلبي يقين أن الشيوعية هي الحقيقة المطلقة، فاطمأنّت روحي لذلك، واجتهدتُ في قراءة المادية الجدلية والمادية التاريخية، وعجبت لمن لا يقتنع بمراحل التاريخ الخمس وبقانون التراكمات الكمية التي تؤدّي إلى التغيير النوعي وصراع الأضداد ونفي النفي. كما عجبت لمن يضيف لهذه القوانين الثلاثة رابعاً، وهي ثلاثة لا شريك لها.

في السجن، ستبدأ روحي بالتأرجح، وستبدأ الأسئلة تتسارع في ذهني وتزدحم، ولا جواب عندي لأي منها. إذا كانت الماركسية فلسفة قد

خلت من قبلها الفلسفات وستعقبها فلسفات أخرى، فما الجدوى من إيماني بها كما آمنت سابقاً بالدين؟ وماذا لو كان في الكون خالق؟ وماذا لو كانت القوانين أربعة أو مائة أو من دون عدد؟ في كلّ يوم كنت أفقد جزءًا من سكينتي وراحة بالي، فتغلي روحي بالقلق والأرق والدوار.

ثمّ جاءني في المهجع رقم 1 في سجن تدمر، ذات يوم خريفي من عام 1982، نصّار يحيى.

"سأترك اللجنة المركزية،" قال لي. وفتح في القلب هوّة سحيقة وبدأ سؤالاً كبيراً جديداً، سيكون مقدّمة لتغيير كبير في حياتي.

***

الستارة الأخيرة :انقسام وحيد الخلية

وحيد الخلية حيوان مجهري يتكاثر تكاثراً لا جنسياً، عبر انقسام الكائن إلى اثنين، ثم أربع، وهكذا كمتوالية هندسية لا تنتهي. وهو بذلك لا يعرف الانقسام بين ذكر وأنثى، ولا الجماع ولا الحياة المشتركة. الأحزاب السياسية في بلادنا أشبه ما تكون بوحيد الخلية. فهي لا تتنوع في داخلها ولا تختلف أيديولوجيا، وإذ تتكاثر، فهي تفعل ذلك عن طريق الانقسام. هذا ما فعله البعث حين انقسم أربعة أو خمسة أحزاب تنتمي إلى يمين ويسار ووسط. عام 1961 انقسم البعث فخرج منه الاشتراكيون العرب والوحدويون الاشتراكيون. وسنة 1966 انقسم إلى يمين ويسار، ثم عاد فانقسم إلى شباطيين وحركة تصحيحية. ثم انقسم الاشتراكيون العرب أنفسهم والوحدويون الاشتراكيون. وانقسم الاتحاد الاشتراكي خمس أو ست مرات. وجاء دور الشيوعيين حين خرج المكتب السياسي ثم منظمات القاعدة ثم يوسف فيصل، وانقسم المكتب السياسي فخرجت منه حركة اتحاد الشيوعيين وعاد بكداش فانقسم وخرجت منه مجموعة قاسيون. وانقسم القوميون السوريون والإسلاميون. وانقسم البارتي الكردي إلى بضعة عشر تنظيماً. وهكذا صارت الأحزاب السياسية في الساحة السورية كأطباء الأسنان تزيد نسبتها على حاجة المواطنين السوريين، من دون أن تعرف حقاً ما الفَرْق بين كل هذه الفِرَق ومن دون أن تفهم لماذا لم يظهر على الساحة حزب جديد (أو أحزاب)

يمثل قوى اجتماعية وفكرية غير تلك القائمة على الساحة. ولماذا لم يظهر في سورية حزب ليبرالي حقيقي أو اشتراكي ديموقراطي. أيعقل أن يكون الطيف السياسي السوري بمجمله طيفاً قومياً – يسارياً - شعبوياً أو إسلامياً وحسب؟

مسيرة حزب العمل لا تختلف كثيراً عن بقية الأحزاب، فهو أيضاً تكاثر انقسامياً. أول انقسام كان عام 1978، بعد سنتين فقط من تشكيله (باسمه القديم الرابطة،) حين قرر أحمد جمول وهيثم الغودات (مناع، لاحقاً) ترك صفوف الحزب. كلاهما رأيا أن العمل السري كالعادة السرية، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى لذّة محرمة يعقبها ألم مقيم، من دون أن يؤدّي إلى ناتج ذي فائدة. أحمد رأى ضرورة حلّ التنظيم والعودة إلى النشاط الدعاوي النظري عبر الشكل القديم للحلقات. وحين بدا وكأنه يغني خارج السرب مضى يعمل مع المقاومة الفلسطينية بعيداً عن الساحة السورية. أما هيثم ففكر بالانتقال إلى صفوف المكتب السياسي، بيد أن المقام لم يطب له فهاجر إلى فرنسا وبدأ يعمل في مجال حقوق الإنسان.

الانقسام الثاني كان حين انتهز بعض الرفاق اعتقال القيادة التاريخية للحزب في مطلع الثمانينات، وراحوا ينعطفون بالحزب بعقلية قومية - يسارية طفولية ومتطرفة. الانقسام الثالث تمّ في الداخل، بدأ بمجموعة من بضعة أفراد منعزلين وانتهى بثمانين رجلاً وامرأة اتفقوا جميعاً على عقم العمل السري في زمن البطش، واختلفوا على كل ما عدا ذلك.

لا أريد الآن أن أدافع عن الانقسام الذي جرى في السجن، ولا أريد أيضاً أن أزدريه. كان حالة سياسية مرتبطة بزمان ومكان محدّدين، وجاء نتاجاً لظروف سياسية وإنسانية لا يمكن أن تتكرّر كثيراً. لست فخوراً بها، ولستُ منكراً لها.

بدأت خلافاتنا السياسية داخل السجن تتبلور منذ خريف 1982،

ولكنها لم تولد في السجن، بل جاءت امتداداً لخلافاتنا قبل المعتقل. في الأشهر ما قبل انعقاد المؤتمر الأول الذي غيّرت فيه رابطة العمل اسمها إلى حزب العمل في 1-6 آب / أغسطس 1981، كنت وقلّة من الرفاق نعارض هذا التوجّه، وقد كتبت سلسلة مقالات في مجلة "البروليتاري" وهي النشرة الداخلية التي كنا نعبّر فيها عن آرائنا واختلافاتنا أبيّن فيها لماذا كنت أعارض تغيير اسم الرابطة إلى حزب. بالنسبة لي، كان التغيير يتعدّى الاسم إلى جوهر عمل الرابطة. على مدى سنوات كانت الرابطة تعتبر نفسها فصيلاً شيوعياً يعمل على بناء الحزب الشيوعي في سوريا من خلال الحوار والتنسيق مع الفئات الأكثر ثورية داخل الحركة الشيوعية المحلية. وكان رهاننا الأساسي على الحزب الشيوعي المكتب السياسي والانشقاقات الشيوعية الأخرى، من مثل حركة اتحاد الشيوعيين التي قادها يوسف نمر ومنظمات القاعدة التي قادها مراد يوسف.

مع تفاقم الأوضاع الأمنية والسياسية واندلاع الحرب المفتوحة بين حافظ الأسد والإخوان المسلمين، ضاعت البوصلة من كثرة الشيوعيين، بما فيهم نحن. ورأينا أنفسنا نقترب أكثر من سياسة الاتحاد السوفييتي والحركة الشيوعية الأرثوذكسية بعد أن كنا ننتقدها بحماس وتوقّد. وفجأة برز داخل الرابط من أعلن أن الأمل من وحدة الشيوعيين قد مات، وبالتالي فإننا وحدنا من يمثل الحركة الشيوعية السورية، وقرّر بناء على ذلك تحويل الرابطة إلى حزب.

وفي مطلع آب / أغسطس 1981، سافرت إلى لبنان ومنها إلى بلدة شحيم للمشاركة في المؤتمر التأسيسي الأول لحزب العمل الشيوعي. كنت آمل أن أضغط مع بعض الرفاق على المؤتمر للعدول عن الفكرة، وإبقاء اسم الرابطة وفكرة الحوار مع القوى الشيوعية الأخرى لبناء حزب قوي وموحد، ولكنني فشلت، وعزلت مع قلّة من الرفاق بينهم

نصّار يحيى، وخسرت مقعدي في اللجنة المركزية الجديدة. وفي طريق العودة، تمّ اعتقالي ولحق بي الشباب إلى تدمر.

انتحى بي نصّار جانباً وقال لي:

"سأترك اللجنة المركزية."

بيني وبين نصّار تاريخ طويل من الألفة والتقارب في وجهات نظرنا. رجعت بي الأيّام سراعاً إلى حيث كنا قبل سنوات في خليّة واحدة مع علي الكردي ومن ثمّ حليم رومية، نقرأ "خطتا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطي"، ونرثي لتخلّي بليخانوف عن الخطّ الثوري، ولكنّ الأيّام ستعلّمنا معاً أن الثورة ليست فقط شعارات نرفعها، بل كيف نحقّق هذه الشعارات وما القوّة التي نحتاجها لفعل ذلك. وفي ربيع وصيف 1980، سنجد زوارقنا تجري في نهر واحد. أيّدنا سوية تقرير آب، وحاججنا بقوّة ضدّ أفكار جناح من التنظيم كان أميل إلى التصعيد السياسي والتحريض. وفي المؤتمر كنا قريبين جداً في أفكارنا. ستقارب بيننا السنوات التالية أكثر، حين نشكل مع بعض الرفاق حالة سياسية مختلفة داخل السجن، ثمّ ستباعد بيننا سنوات أخرى بعدها، حين سيأخذه منا -بعيداً- ميشيل فوكو وجاك دريدا وبول ريكور.

كان نصّار يقصد مجموعة أعضاء اللجنة المركزية التي نصّبت نفسها قيادة للمعتقل. كان نصّار دائماً، ومعه أحمد رزق، أحد أكثر الأصوات عقلانية وهدوءًا وحكمة. وخشيت من قراره أن أُترَك في قيادة المعتقل وحيداً.

قلت له: "تعال نحكِ!"

وحكينا كثيراً. راجعنا سويّة مسار الرابطة منذ تحوّلها إلى حزب ووضع القيادة الحالية في الخارج التي كانت تنعطف يساراً بشكل حادّ جداً،

وراجعنا دور قيادة المعتقل، واتفقنا على أن عضو اللجنة المركزية يكفّ عن لعب هذا الدور لحظة اعتقاله، ليتحوّل إلى مجرّد عضو عادي في التنظيم، كما هي العادة في كثير من الأحزاب التي تعتمد العمل السري وفي ظروف قمعية مشدّدة، تماماً كما فعل المناضل المخضرم رياض الترك لحظة اعتقاله في كلّ المرّات التي اعتقل فيها.

ووسعّنا نقاشاتنا مع رفاق آخرين، حتى تكوّنت مجموعة من ستة عشر رفيقاً، بينهم نصّار وأحمد رزق وأنا، واتفقنا على تشكيل تيار داخل التنظيم، قبل أن ننتقل خطوة إلى الأمام فنترك التنظيم نهائياً.

بيد أن الانقسام الأكبر جرى بعد غزو صدّام حسين للكويت. عندها، وبعد ذلك، إبان حرب التحرير، انقسم الجناح ألف يمين إلى معسكرين متبلورين واضحين، لم يعد اللقاء بينهما ممكناً. التيار الأول رأى في صدّام بسمارك عربياً جديداً يريد توحيد بلاد العرب بالقوة كما وحد بسمارك الإمارات الألمانية بالقوة، ناسياً أو متناسياً أن سبعينات القرن التاسع عشر ليست تسعينات القرن العشرين، وأن صدام لا يملك من بسمارك إلا ما يملك القذافي من عبد الناصر. دافع أصحاب هذا التيار عن احتلال الكويت وتذكروا كل مساوئ أنظمة الحكم في الخليج (وهي صحيحة) ولم يريدوا أن يتذكّروا فجور صدام وعائلته ومجازره، والمقابر الجماعية وقصور النهاية وملايين القتلى المجانيّين في حرب الخليج الأولى والأمهات الثكلى والأرامل والمغتصبات طوعاً والمغتصبات كرهاً.

التيار الثاني بدأ يبلور وجهة نظر جديدة غير قابلة للمساومة: الأولوية دائماً للفرد - الإنسان. الحرية مطلب مطلوب لذاته وبذاته. نريد الديموقراطية لأنها مطلبنا النهائي، وليست لأنها طريقنا إلى التحرير أو مواجهة الغرب أو تعزيز الاقتصاد القومي. نريد الحرية للحرية، تماماً على مبدأ الفن للفن، ولن نخجل بعد الآن من هذا المطلب. والطريق إلى ذلك واضح: دولة القانون القائمة على الديموقراطية السياسية،

المجتمع المدني وحقوق الإنسان غير القابلة لأية مساومة أو تسوية أو حلول وسط. وداعاً للديموقراطية الشعبية والديموقراطية الثورية وديموقراطية الشورى والديموقراطية المشروطة بتقاليد(نا) وأعراف(نا) وأخلاق(نا) وكلّ ما يحدّ ويقف في وجه ديموقراطية أصيلة واحدة موحدة، هي انعكاس لصورة الروح التي لا صورة لها: الروح الشاملة للكون، والتي إذ تتوزع بين البشر والشجر والحجر لا تنقص قيراطاً ولا تزيد. وكما أن الروح واحدة لا تعرف شرقاً وغرباً ولا جنسيات وحدوداً وسجوناً وأقبية، كذلك الحرية التي لا تكون إلا إذا كانت نفسها. حرية تعمل من أجل الفرد ويعمل المجتمع من أجلها. حرية لنايا ولين وحنين وليلي وهيا ولكل الأطفال الآخرين الذين سيكبرون يوماً على عالم لا بد أن يكون مختلفاً: عالم الإنسان فيه هو الأساس، لا الأيديولوجية، ولا الحزب ولا النضال ولا السجن ولا الوطن ولا الفروع ولا الأصول ولا الأقبية الرطبة الخانقة النتنة التي يأنف منها الخلد. لا بدّ لجميع الأطفال أن يكبروا في عالم خالٍ من كل أنواع الكراهية والحقد والثأر. ومن أجل ذلك لا بد أن تزول كافة أشكال الخوف والقلق والتوتر والتوجس من احتمال أن يعود يوم يمكن لطفلة أن تفيق ذات صباح فلا تجد أباها؛ وعندها يجب أن نفسر لها الأمر بكلمات لن تفهمها. من أجل هذا لا بدّ أن نقول بصوت عالٍ: وداعاً للسجون. وداعاً للزنازين والسواليل والمهاجع. وداعاً للرقيب شفيق والعريف محمد عاقل والمساعد نزيه. وداعاً للسلالم والكراسي والدواليب والطميشات القذرة.

وداعاً للسجون!

انتهى

وائل السوّاح

روائي وباحث وسياسي سوري
معارض. ولد في حمص في 1955 .

عضو الأمانة العامة لرابطة الكتاب السوريين. عضو الهيئة الاستشارية لبرنامج سوريا في معهد الشرق الأوسط بواشنطن برأس تحرير موقع The Syrian Observer من كتبه، لماذا مات يسف النجّار"، "قالت إيمان"، "الديمقراطية "

وهو مؤلف مشارك لمجموعة من الكتب باللغتين العربية والإنكليزية، منها "رواية اسمها سورية" "العلمانية في المشرق العربي"، "حول جدلّ العلمانية والديمقراطية "Taking to the Street" " Transitional Justice: A Handbook for Journalists, Citizens and Activists وغيرها .
إضافة إلى عدد كبير من الأبحاث والدراسات في دوريات ويوميات عربية من بينها العربي الجديد والحياة والنهار والسفير وأصوات عربية وغيرها .

غلاف أخير

هل يمكن الحديث حالياً عن "يسار سوري"؟ لا يمكن للحياة السياسية ولا المجتمعية أن تتقدّم من دون حوار وجدال وصراع بين المحرّك إلى الأمام والقوّة التي تريد المحافظة على الواقع. ولئن اتُّفِق على تسمية الفئة الأولى يساراً، فإن هذه القوّة ستظلّ موجودة وستظلّ تلعب دوراً في عملية التغيير. غير أن المفاهيم لن تكون ذاتها، واليسار التقليدي (وخاصة اليسار الشيوعي الذي لا يستطيع التمييز بين روسيا بوتين وبين الاتحاد السوفييتي) سيتحولّ إلى معاقل اليمين من دون خجل. أما اليسار المتجدّد الذي يرى في الحركة إلى الأمام قدر السوريين، فسيظلّ موجوداً، وسوف يجمّع نفسه قريباً في حركة واضحة المعالم تسير على طريق واضح ومحدّد

ISBN 978-1-990723-04-9
9 781990 723049
عشتار
Ishtar